لا يَثْلِم دينك[١]، وَوَلِّ[٢] أهلَ البُيوتات والشرف، تستصلحْ بهم عشائرهم، حتى يكون الناس جماعةً، فإن بعض ما يكرَه الناسُ ـ ما لم يتعدَّ الحقَّ، وكانت عواقبُه تؤدى إلى ظهور العدل، وعزِّ الدين ـ خيرٌ من كثير مما يحبه الناس، إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجَوْر، وذُلِّ المؤمنين، وعزِّ الفاجرين، واقتد بما جاء عن أئمة العدل، فقد جاء عنهم: « إنه لا يَصلُح الكذبُ إلا فى حرب أو إصلاح بين الناس، فإن الحرب خُدْعة[٣] » ولك فى ذلك سَعة، إذا كنت محاربا، مالم تُبْطِلْ حقًّا.

واعلم أن عليّا أباك إنما رغَّب الناسَ عنه إلى معاوية أنه آسَى[٤] بينهم فى الفَيْء، وسَوَّى بينهم فى العطاء، فثَقُل عليهم، واعلم أنك تحارب من حاربَ اللهَ ورسولَه فى ابتداء الإسلام، حتى ظهر أمر الله، فلما وُحِّد الربُّ، ومُحِقَ الشِّركُ، وعَزَّ الدين، أظهروا الإيمان، وقرءوا القرآن مستهزئين بآياته، وقاموا إلى الصلاة وهم كُسَالَى، وأدَّوا الفرائِضَ وهم لها كارهون، فلما رأوا أنه لا يَعِزُّ فى الدين إلا الأتقياءُ الأبرار، توسَّموا بسيمى الصالحين، ليظن المسلمون بهم خيراً، فما زالوا بذلك حتى شرِكوهم فى أماناتهم، وقالوا حسابُهم على الله، فإن كانوا صادقين فإخوانُنا فى الدين، وإن كانوا كاذبين كانوا بما اقترفوا هم الأخسرين، وقد مُنِيت بأولئك وبأبنائهم وأشباههم،

---

(١) الظنين: المتهم، من ظننته إذا اتهمته فهو فعيل بمعنى مفعول، ويثلم: يعيب وينقص، وأصله من ثلم الإناء إذا كسر حرفه وبابه ضرب وفرح، ويروى « واستر من الظنين دينه بما لا يثلم دينك » والظنين: البخيل. (٢) وفى رواية « واستعمل » وفى أخرى « ووال ».

(٣) الحرب خدعة مثلثة الخاء، وبضمها مع فتح الدال: أى تنقضى بخدعة.

(٤) آسى بينهم: أى سوّى.

والله ما زادهم طولُ العمر إلا غيًّا ، ولا زادهم ذلك لأهل الدين إلا مَقْتاً ، فجاهِدْهم ولا تَرْضَ دَنِيَّةً ، ولا تقبَلْ خَسْفاً[1] ، فإن علياً لم يُجِب إلى الحكومة حتى غُلب على أمره فأجاب، وإنهم يعلمون أنه أولى بالأمر إن حكموا بالعدل، فلما حكموا بالهَوَى رجع إلى ما كان عليه حتى أَتَى عليه أَجَلُه، ولا تخرجَنَّ من حقٍّ أنت أولى به ، حتى يَحُول الموت دون ذلك ، والسلام » .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص : ٨ ، والعقد الفريد ١ : ٩ ، ٢ : ٢٤٤)

٢ — كتاب الحسن إلى معاوية

ودَسَّ معاوية رجلا من حِمْير إلى الكوفة ، ورجلا من بنى القَيْن إلى البصرة ، يكتبان إليه بالأخبار فدُلَّ على الحميرىّ وعلى القَيْنىّ فأُخِذا وقتلا ، وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية :

« أما بعد : فإنك دَسَسْتَ إلىَّ الرجالَ ، كأنك تحبّ اللِّقاء ، لا أشك فى ذلك ، فتوقَّعْه إن شاء الله ، وبَلَغَنى أنك شَمِتَّ بما لم يَشْمَتْ به ذوو الحِجَى[2] ، وإنما مَثَلُكَ فى ذلك كما قال الأول :

فإنّا ومَنْ قد مات مِنّا لَكالَّذِى ... يَرُوحُ فيُمْسِى فى المَبِيت لِيَغْتَدِى

فقل للذى يَبْغِى خِلافَ الذى مضى ... تَجَهَّزْ لأُخْرَى مثلِها فكأَنْ قَدِ

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ١١)

---

(١) ذلا . (٢) أى شمتّ بموت أبى ، والعاقل لا يشمت بالموت .

٣ — رد معاوية على الحسن

فأجابه معاوية .

« أما بعد : فقد وصل كتابك ، وفهِمت ما ذكرتَ فيه ، ولقد علمتُ بما حدث فلم أفرح ولم أحزَن ، ولم أشْمَت ولم آسَ[1] ، وإن عليًّا أباكَ لكما قال أعشَى بنى قيس بن تَعلبة :

فأنت الجواد وأنت الذى ... إذا ما القلوبُ مَلأْنَ الصدورا
جَـــدِيرٌ بطَعْنَةٍ يوم اللِّقا ... يُضَرِّبُ منها النساءُ النُّحُورا
وما مُزْبِدٌ من خليج البِحَا ... رِ يَعْلُو الإِكامَ ويعلو الجُسُورَا[2]
بِأَجْوَدَ منــــــه بما عِندِه ... فيُعْطِى الألوفَ ويعطى البُدُورا[3]

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ . ص ١١)

٤ — كتاب ابن عباس إلى معاوية

وكتب عبد اللّٰه بن عباس من البصره إلى معاويه :

« أما بعد : فإنك ودسَّك أخا بنى القَيْنِ إلى البصره تلتمس من غَفَلات قريش مثل ما ظفِرْتَ به من يَمَانِيَتك لكما قال أُمَيَّه بن الأسكر[4] :

---

(١) أى ولم أحزن وفعلا كفرح .

(٢) أزبد البحر إزباداً فهو مزبد أى مائج يقذف بالزبد (بالتحريك) وهو كالرغوة ، والإكام : جمع أكمة كقصبة وهى التل . (٣) البدرة كوردة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم أو سبعة آلاف دينار وجمعه بدر كعنب وبدور كجنود .

(٤) فى شرح ابن أبى الحديد « أمية بن أبى الصلت » وهو خطأ ، روى صاحب الأغانى قال : أصاب قوم من بنى جندع (كقنفذ) بن ليث بن بكر بن هوازن رهط أمية بن الأسكر مالا لهم من زنيمة (كصحيفة) بن جندع ، أصابهم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم يوم المريسيع فى غزوة بنى المصطلق

لَعَمْرُكَ إنِّى والخُزَاعِىّ طارقاً ... كَنَعْجةَ فادَتْ حَتْفَها تتحفّرُ[1]

أثارتْ عليها شَفْرَةً بِكُراعِها ... فظلَّتْ بها من آخِرِ الليل تُنْحَرُ[2]

شَمِتَّ بقوم هم صَدِيقُك أُهلكوا ... أصابهمُ يومٌ من الدهر أعسَرُ

(الأغانى ١٨ : ١٦٢ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٢)

٥ — رد معاوية على ابن عباس

فأجابه معاوية :

« أما بعد : فإن الحسن بن علىّ قد كتب إلىّ بنحو مما كتبتَ به ، وأنَّبنى بما لم يحقِّق سوء ظن ورأيٍ فىّ ، وإنك لم تُصِبْ مَثَلى ومثلكم ، وإنما مَثَلُنا كما قال طارق الخُزاعى يُجيب أميّة عن هذا الشعر :

فواللّهِ ما أدرى (وإنى لَصادقٌ) ... إلى أىّ مَنْ يَظَّنُّنِى أتعذّرُ[3]

أُعنَّفُ أنْ كانت زَبِينةُ أهلِكتْ ... ونالَ بنى لِحْيانَ شَرٌّ فأُنْفِرُوا[4]

(الأغانى ١٨ : ١٦٢ ، وشرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٢)

وكانوا جيرانه يومئذ ومعهم ناس من بنى لحيان (بالكسر) من هذيل ، ومن بنى جندع رجل من خزاعة يقال له طارق ، فاتهمه بنو ليث بهم وأنه دل عليهم ، وكانت خزاعة مسلمها ومشركها يميلون إلى النبى صلى الله عليه وسلم على قريش ، فقال أمية بن الأسكر : لعمرك إنى والخزاعى .... فى أبيات ، فأجابه طارق الخزاعى: لعمرك ما أدرى .... »

(١) فادت : نا كرب ، والحتف . الموت ، ومنع تنوينه من الصرف للضرورة.

(٢) الشفرة : السكين العظيم ، والكراع من الغنم والبقر : مستدق الساق وهو بمنزلة الوظيف من الفرس ، وجاء فى المثل : « كالباحث عن المدية » ويروى « عن الشفرة » وفى آخر : « كباحثة عن حتفها بظلفها » وأصله أن رجلا كان جائعاً بالفلاة القفر ، فوجد شاة ولم يكن معه ما يذبحها به ، فبحثت الشاة الأرض بأظلافها ، فسقطت على شفرة فذبحها بها ، فضرب لكل من أعان على نفسه بسوء تدبيره . (٣) اظنه واطنه : الظنة . والظاء مشددتين : التهمة ، وهو افتعل من الظنة بالكسر أى التهمة ، فأصله اظتن ، ثم أبدل وأدغم . (٤) أنفروا : شرّدوا .

٦ — كتاب الحسن إلى معاوية

وكتب الحسن عليه السلام إلى معاوية :

« من عبد الله الحسن أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سُفيان ، أما بعد : فإن الله بعث محمداً صلى الله عليه وآله رحمةً للعالمين ، فأظهر به الحقّ ، وقَمَعَ به الشِّركَ ، وأعزّ به العَرب عامّة ، وشَرّف به قريشاً خاصّة ، فقال : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » فلما توفاه الله تنازعت العرب فى الأمر بعده ، فقالت قريش : نحن عَشيرته وأولياؤه ، فلا تُنازِعونا سلطانَه ، فعَرَفت العربُ لقريش ذلك ، وجاحَدَتْنا قريش ما عرفَتْ لها العربُ ، فهيهات ! ما أنصَفَتْنا قريش ، وقد كانوا ذوى فضيلة فى الدين ، وسابِقةٍ فى الإسلام ، ولا غرْوَ[1] إلا منازَعَتُكَ إيانا الأمرَ بغير حق فى الدنيا معروف ، ولا أثرٍ فى الإسلام محمود ، فاللهُ المَوْعِد ، نسأل الله معروفَه أن لا يُؤْتِيَنا فى هذه الدنيا شيئاً يَنقُصُنا عنده فى الآخرة .

إن عليًّا لما توفاه الله وَلاّنى المسلمون الأمر بعده ، فاتق الله يا معاوية ، وانظر لأمة محمد صلى الله عليه وآله ما تَحْقِنُ به دماءها ، وتُصْلِح به أمرها ، والسلام » .

وبعث بالكتاب مع الحارث بن سُوَيد التَّيْمىّ (تيم الرَّباب) وجُنْدُب الأزدى ، فقَدِما على معاوية ، فدعَواه إلى بَيْعة الحسن عليه السلام ، فلم يجبهما . وكتب جوابه : (شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٩)

---

(١) لا غرو ولا غروى : أى لا عجب .

٧ — رد معاوية على الحسن

« أما بعد : فقد فهمتُ ما ذكرتَ به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كله ، وذكرتَ تنازُعَ المسلمين الأمْرَ بعده ، فصرَّحتَ بتُهمَة أبي بكر الصديق وعُمَرَ وأبي عُبيدة الأمين وصُلَحاء المهاجرين ، فكرهتُ لك ذلك ، إن الأمة لمَّا تنازعت الأمرَ بينها ، رأت قريشاً أخْلَقَها به ، فرأت قريش والأنصار وذوو الفضل والدين من المسلمين أن يُوَلّوا من قريش أعلَمَها بالله ، وأخشاها له ، وأقواها على الأمر ، فاختاروا أبا بكر ولم يَأْلُوا[1] ، ولو علموا مكان رجل غير أبي بكر يقوم مَقامه ويَذُبُّ عن حُرَم الإسلام ذَبَّه ، ما عَدَلوا بالأمر إلى أبي بكر ، والحالُ اليومَ بيني وبينك على ما كانوا عليه ، فلو علمتُ أنك أضبطُ لأمر الرعية ، وأحْوَطُ على هذه الأمة ، وأحسنُ سياسةً ، وأكْيَد للعدو ، وأقوى على جمع الفَيْء ، لسلّمتُ لك الأمر بعد أبيك ، فإن أباك سَعَى على عثمان حتى قُتِل مظلوما ، فطالب اللهُ بدمه ، ومن يطلُبه اللهُ فلن يفوته، ثم ابتزّ الأمةَ أمرَها ، وفرّق جماعتها، فخالفه نُظَراؤه من أهل السابقة والجهاد والقِدَم في الإسلام ، وادعى أنهم نكثوا بيعته ، فقاتلهم ، فسُفِكت الدماء ، واستُحلّت الحُرَم ، ثم أقبل إلينا لا يدَّعي علينا بيعة ، ولكنه يريد أن يَملِكنا اغتراراً ، فحاربناه وحاربنا ، ثم صارت الحرب إلى أن اختار رجلا واخترنا رجلا ليحكما بما تَصْلُح عليه الأمة، وتعود به الجماعةُ والألفة ، وأخذنا بذلك عليهما ميثاقا ، وعليه مثله ، على الرِّضا

(١) ألا يألو : قصر وأبطأ .

بما حَكَمَا ، فأمضى الحَكَمَان عليه الحُكم بما علمت وخلعاه ، فوالله ما رضى بالحكم ، ولا صَبَر لأمر الله ، فكيف تدعونى إلى أمر إنما تطلبه بحق أبيك وقد خرج منه ، فانظر لنفسك ولدينك ، والسلام » .

ثم قال للحارث وجُنْدُب : ارجعا فليس بينى وبينكم إلا السيف .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٩)

صورة أخرى لكتاب الحسن إلى معاوية

وروى كتاب الحسن السابق إلى معاوية بصورة أخرى وهى :

كتب الحسن عليه السلام إلى معاوية مع جُنْدُب بن عبد الله الأزْدِىّ :

« من الحسن بن على أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان ، سلام عليك فإنى أحمَد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن الله جل جلاله بعث محمداً رحمةً للعالمين ، ومِنَّةً للمؤمنين ، وكافة للناس أجمعين « لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ » فبلّغ رسالات الله ، وقام بأمر الله : حتى توفاه الله غير مُقَصِّر ولا وانٍ ، بعد أن أظهر الله به الحقّ ، ومَحَق به الشِّرك ، وخَصّ به قريشاً خاصة ، فقال له : « وَإِنَّه لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » فلما تُوُفِّىَ تنازعت سلطانَه العربُ ، فقالت قريش . نحن قبيلته وأسرته وأولياؤه ، ولا يحل لكم أن تنازعونا سلطانَ محمد وحقّه ، فرأت العرب أن القول ما قالت قريش ، وأن الحجة فى ذلك لهم على من نازَعَهم أمرَ محمد ، فأنْعَمَت[1] لهم وسلَّمت إليهم ، ثم حاجَجْنا نحن قريشاً بمثل ما حاجبت به العرب ، فلم تُنْصِفنا

---

(١) أنعم له : قال له نعم .

قريش إنصافَ العرب لها ، إنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالإنصاف والاحتجاج ، فلما صرنا أهلَ بيت محمد وأولياءه إلى مُحاجّتهم وطلب النّصَف[١] منهم ، باعدونا واستولَوا بالاجتماع على ظلمنا ومُراغمتنا[٢] ، والعَنَت منهم لنا، فالموعد الله ، وهو الولى النصير .

ولقد كنا تعَجّبْنا لتوثُّب المتوثبين علينا فى حقنا وسلطان بيتنا ، وإن كانوا ذوى فضيلة وسابقة فى الإسلام ، وأمسَكْنا عن منازعتهم مخافةً على الدين أن يجد المنافقون والأحزابُ[٣] فى ذلك مَغمَزًا يَثْلِمونه به ، أو يكون لهم بذلك سبب إلى ما أرادوا من إفساده ، فاليوم فليتعجب المتعجِّب من توثُّبك يا معاوية على أمر لست من أهله ، لا بفضل فى الدين معروف ، ولا أثر فى الإسلام محمود ، وأنت ابن حزب من الأحزاب ، وابن أعدى قريش لرسول الله صلى الله عليه وآله ولكتابه ، والله حَسِيبك ، فستُرَدّ وتعلم لِمنْ عُقْبى الدار ، وبالله لتلقَيَنَّ عن قليل ربّك ، ثم ليَجْزِيَنّك بما قدّمَتْ يداك ، وما الله بظلاّم للعبيد .

إنّ عليًا لما مضى لسبيله ــ رحمة الله عليه يوم قُبِض ، ويوم مَنّ الله عليه بالإسلام ، ويوم يُبْعث حيا ــ ولاّنى المسلمون الأمر بعده ، فأسألُ اللهَ أن لا يُؤتينا فى الدنيا الزائلة شيئًا يَنْقُصُنا به فى الآخرة مما عنده من كرامة ، وإنما حملنى على الكتابِ إليك الإعذارُ فيما بينى وبين الله عزّ وجل فى أمرك

---

(١) النصف : الانصاف . (٢) راغمهم . نابذهم وعاداهم ، والعنت : المشقة .

(٣) هى الأحزاب التى تحزبت وتظاهرت على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم من قريش وغطفان وبنى مرة وبنى أشجع وبنى سليم وبنى أسد (فى غزوة الأحزاب ، وهى غزوة الخندق سنة ٥ هـ) وكان قائدهم العام أبا سفيان .

ولك فى ذلك إن فعلته الحَظُّ الجسيم ، والصلاح للمسلمين ، فدع التمادىَ فى الباطل ، وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتى ، فإنك تعلم أنى أحق بهذا الأمر منك عند الله وعند كل أوّاب[1] حفيظ ومَن له قلب مُنيب ، واتق الله ودع البغى واحقن دماء المسلمين ، فوالله مالك خير فى أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقيه به ، وادخل فى السِّلم والطاعة ، ولا تُنازِع الأمرَ أهلَه ، ومَن هو أحق به منك ، ليطفئ الله النائرةَ[2] بذلك ، ويجمع الكلمة ، ويصلح ذاتَ البين ، وإن أنت أبيت إلا التمادِى فى غيك ، سرتُ إليك بالمسلمين ، فحاكَمْتُك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٢)

صورة أخرى لرد معاوية على الحسن

وروى أيضاً : رد معاوية على الحسن بصورة أخرى وهى :

فكتب معاوية إليه

من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى الحسن بن على : سلام عليك فإنى أَحْمَد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فقد بلغنى كتابك ، وفهمت ما ذكرتَ به محمداً رسول الله من الفضل ، وهو أحق الأولين والآخرين بالفضل كلِّه ، قديمِه وحديثِه ، وصغيره وكبيره ، وقد والله بلّغ وأدّى ، ونَصح وهَدَى ، حتى أنقذ اللهُ به من الهَلَكة ، وأنار به من العَمَى ، وهَدَى به من

(١) آب إلى الله تعالى : رجع عن ذنبه وتاب ، فهو آوّاب ، مبالغه .
(٢) النائرة : العداوة والشحناء .

الجَهالة والضَّلالة ، فجزاه الله أفضل ما جزَى نبيًّا عن أمته ، وصلوات الله عليه يوم وُلِد ، ويوم بُعِث ، ويوم قُبِض ، ويوم يُبْعث حيا ، وذكرتَ وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتنازُعَ المسلمين الأمرَ بعده ، وتغلُّبَهم على أبيك ، فصرّحت بتُهمَة أبي بكر الصديق ، وعمر الفاروق ، وأبى عُبَيدة الأمين ، وحَوارِىّ[1] رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلحاء المهاجرين والأنصار ، فكَرِهت ذلك لك ، إنك امرؤ عندنا وعند الناس غير الظَّنين ولا المسئ ولا اللئيم ، وأنا أحب لك القول السديد ، والذكر الجميل .

إن هذه الأمة لما اختلفت بينها ، لم تجْهَل فضلكم ولا سابقتكم ولا قَرابتكم من نبيكم ، ولا مكانكم فى الإسلام وأهله ، فرأت الأمة أن تَخْرُج من هذا الأمر لقريش لمكانها من نبيها ، ورأى صلحاء الناس من قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس وعوامّهم أن يُوَلُّوا هذا الأمر من قريش أقدمَها إسلامًا ، وأعلمها بالله ، وأحبّها له ، وأقواها على أمر الله ، فاختاروا أبا بكر ، وكان ذلك رأى ذوى الدين والفضل والناظرين للأمة ، فأوقع ذلك فى صدوركم لهم التُّهمَة ، ولم يكونوا متَّهَمين ، ولا فيما أَتَوا بالمخطئين ولو رأى المسلمون أن فيكم من يُغْنِى غناءه[2] ، ويقوم مقامه ، ويَذُبّ عن حريم الإسلام ذَبّه ، ما عدلوا بالأمر إلى غيره رغبةً عنه ، ولكنهم عملوا فى ذلك بما رأَوه صلاحًا للإسلام وأهله ، والله يجْزِيهم عن الإسلام وأهله خيرًا

وقد فهمتُ الذى دعوتنى إليه من الصلح ، والحال فيما بينى وبينك اليو

---

(١) هو الزبير بن العوام ، والحوارىّ : الناصر أو ناصر الأنبياء .

(٢) الغناء : النفع ، وأغنى غناءه : أجزأ عنه وقام مقامه .

مثل الحال التى كنتم عليها أنتم وأبو بكر بعد وفاة النبي صلى ٱلله عليه وسلم ، فلو علمت أنك أضبط منى للرعية ، وأحوط على هذه الأمة ، وأحسن سياسة ، وأقوى على جمع الأموال ، وأكيد للعدو ، لأجبتك إلى ما دعوتنى إليه ، ورأيتك لذلك أهلاً ، ولكن قد علمتَ أنى أطول منك ولاية ، وأقدم منك بهذه الأمة تجربة ، وأكبر منك سنا ، فأنت أحقّ أن تُجيبنى إلى هذه المنزلة التى سألتنى ، فادخُل فى طاعتى ولك الأَمر من بعدى ، ولك ما فى بيت مال العراق من مالٍ ، بالغاً ما يبلغ تحمله إلى حيثُ أحببت ، ولك خَراج أىِّ كُوَرِ العراق شِئت ، معونةً لك على نفقتك ، يَجْبِيها أمينك ، ويحملها إليك فى كل سنة ، ولك ألا يُستولَى عليك بالإساءة ، ولا تُقضَى دونك الأمور ، ولا تُعصَى فى أمر أردت به طاعة الله ، أعاننا ٱلله وإياك على طاعته ، إنه سميع مجيب الدعاء ، والسلام » . (شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٣)

٨ — كتاب معاوية إلى الحسن

وكتب معاوية إلى الحسن رضى ٱلله عنه :

« أما بعد : فإن ٱلله يفعل فى عباده ما يشاء لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ، فاحذر أن تكون منيّتك على أيدى رَعَاعٍ من الناس ، وَأْيَسْ من أن تجد فينا غَمِيزَةً ، وإن أنت أعرضتَ عما أنت فيه وبايعتنى ، وفَيْتُ لك بما وعدتُ ، وأجرَيْتُ لك ما شَرَطْتُ ، وأكون فى ذلك كما قال أعشى بنى قيس بن ثَعْلَبة :

وإنْ أحدٌ أَسْدَى إليك أمانةً ... فَأَوْفِ بها ، تُدْعَى إذا مُتَّ وافيا

ولا تحسُدِ المَوْلَى إذا كان ذا غِنًى ... ولا تَجْفُه إن كان فى المال فانيا[١]

ثم الخلافة لك من بعدى ، فأنت أَوْلَى الناس بها ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ ص ١٣)

٩ — رد الحسن على معاوية

فأجابه الحسن .

« أما بعد : فقد وصل إلىَّ كتابُك تذكر فيه ما ذكرتَ ، وتركتُ جوابَك خَشْيَةَ البغى عليك ، وبالله أعوذ من ذلك ، فاتَّبِع الحق تعلم أنى مِن أهله ، وعلىّ إثمٌ أنْ أقولَ فأكْذِبَ ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ١٣)

١٠ — كتاب معاوية إلى عماله

فلما وصل كتاب الحسن إلى معاوية قرأه ، ثم كتب إلى عماله على النواحى بنسخة واحدة :

« من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان ، ومَن قِبَله من المسلمين ، سلام عليكم ، فإنى أحمَدُ إليكم اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فالحمد لله الذى كفاكم مُؤْنة[٢] عدوكم ، وقَتَلَةَ خليفتكم ، إن اللهَ بلطفه وحُسْن

---

(١) المولى : الصاحب والقريب كابن العم ونحوه .

(٢) المؤنة : الثقل ، وفيها لغات إحداها : مئونة على وزن فعولة بفتح الفاء وبهمزة مضمومة ، والثانية : مؤنة بهمزة ساكنة كغرفة ، والثالثة : مونة كسورة .

صنعه أتاح لعليّ بن أبي طالب رجلا من عباده فاغتاله فقتله ، فترك أصحابَه متفرقين مختلفين ، وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم ، فأقبِلوا إليّ حين يأتيكم كتابي هذا بجُهْدكم وجندكم ، وحسن عُدَّتكم ، فقد أصبتم بحمد الله الثأرَ ، وبلغتم الأملَ ، وأهلكَ اللهُ أهلَ البغي والعُدوان ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » .

وأقبل معاوية بجيشه قاصداً إلى العراق .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ١٣)

١١ — الصلح بين الحسن ومعاوية

وتجهز الحسن عليه السلام للقاء معاوية ، وخرج بأصحابه إلى المدائن ، ولكنهم رأوا منه أنه يجنح إلى موادعة معاوية ومصالحته ، فثاروا به وأساءوا إليه[1] ، فازداد لهم بغضا ، وازداد منهم ذعرا ، ورأى الأمر قد تفرق عنه ،

---

(١) وذلك أن الحسن عليه السلام لما أتى ساباط ، أقام بها أياما ، فلما أراد أن يرحل إلى المدائن ، قام فخطب الناس . فقال . « أيها الناس إنكم بايعتموني على أن تسالموا من سالمت ، وتحاربوا من حاربت ، وإني والله ما أصبحت محتملا على أحد من هذه الأمة ضغينة في شرق ولا غرب ، ولما تكرهون في الجماعة والألفة والأمن وصلاح ذات البين ، خير مما تحبون في الفرقة والخوف والتباغض والعداوة ، وإن عليا أبي كان يقول : لا تكرهوا إمارة معاوية ، فإنكم لو فارقتموه لرأيتم الرءوس تندر عن كواهلها كالحنظل » ثم نزل فقال الناس بعضهم إلى بعض ، وقالوا : ما قال هذا القول إلا وهو خالع نفسه ومسلم الأمر لمعاوية ، كفر والله الرجل ! ثم شدوا على فسطاطه فانتهبوا متاعه حتى أخذوا مصلاه من تحته ، وانتزعوا مطرفه عن عاتقه ، وأخذوا جارية كانت معه فدعا بفرسه فركبه ، وأحدق به طوائف من خاصته وشيعته ، ومنعوا منه من أراده ، ولاموه وضعفوه لما تكلم به ، فلما مر في مظلم ساباط ، قام إليه رجل يقال له جراح بن سنان وبيده معول ، فأخذ بلجام فرسه وقال : الله أكبر يا حسن ! أشرك أبوك ثم أشركت أنت ! وطعنه بالمعول فوقعت في فخذه فشقها حتى بلغت أربيته (أصل الفخذ) وسقط الحسن إلى الأرض بعد أن ضرب الذي طعنه بسيف كان بيده ، واعتنقه فخرا جميعاً إلى الأرض ، وابتدر أصحاب الحسن جراح بن سنان فقتلوه وحمل الحسن على سرير إلى المدائن وبها سعد بن مسعود الثقفي (عم المختار ابن أبي عبيد) والياً عليها من قبله فأقام عنده حتى برئ من جرحه (شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ١٠ — ١٥) .

فبعث إلى معاوية يطلب الصلح ، وبعث معاوية إليه رسولين قَدِما عليه المدائن ، فأعطياه ما أراد ، وصالحاه على أن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف فى أشياء اشترطها

قال الطبرى : «كَاتب الحسن معاوية وأرسل إليه بشروط ، قال : إن أعطيتنى هذا فأنا سامع مطيع ، وعليك أن تَفِيَ لى به ، ووقعت صحيفة الحسن فى يد معاويه ، وقد أرسل معاوية قبل هذا إلى الحسن بصحيفة بيضاء مختوم على أسفلها ، وكتب إليه : أنِ اشترِطْ فى هذه الصحيفة التى ختمتُ أسفلَها ما شئتَ فهو لك ، فلما أتت الحسنَ اشترط أضعاف الشروط التى سأل معاويةَ قبل ذلك وأمسكها عنده ، وأمسك معاوية صحيفةَ الحسن عليه السلام ، التى كتب إليه يسأله مافيها .

فلما التقى معاوية والحسن عليه السلام ، سأله الحسن أن يعطيه الشروط التى شرط فى السِّجِلّ الذى ختم معاوية فى أسفله ، فأبى معاوية أن يعطيَه ذلك ، فقال : لك ما كنت كتبتَ إلىّ أوّلا تسألنى أن أعطِيكه ، فإنى قد أعطيتك حين جاء نى كتابك ، قال الحسن عليه السلام : وأنا قد اشترطت حين جاء نى كتابك ، وأعطيتنى العهد على الوفاء بما فيه ، فاختلفا فى ذلك فلم ينفِّذ للحسن عليه السلام من الشروط شيئًا » .

وسلم الحسن عليه السلام الأمر إلى معاوية ، ودخل معاوية الكوفة وبايعه أهلها بالخلافة لخمس بقين من ربيع الأول ، ويقال من جمادى الأولى سنة ٤١ هـ .   (تاريخ الطبرى ج : ٦ ص ٩٢ — ٩٣)

١٢ — كتاب الحسن إلى معاوية بعد الصلح

ولما سلم الحسن بن عليٍّ رضى الله عنه الأمر إلى معاوية ، سار يريد المدينة ، فكتب إلبه معاوية يدعوه إلى قتال الخوارج ، فكتب إليه :

« لو آثَرْتُ أن أقاتلَ أحداً من أهل القِبْلة لبَدأتُ بقتالك ، فإنى تركتك لصلاح الأمة ، وحَقْنِ دمائها » . (ا الكامل لابن الأثير ٣ : ١٦٣)

☆☆☆

وروى أبو العباس المبرِّد قال :

دخل معاوية الكوفه مع الحسن بن علىّ صلوات الله عليه بعد أن بايعه الحسن والحسين عليهما السلام ، وقيس بن سعد بن عُبَاده ، ثم خرج الحسن يريد المدينة ، فوجَّه إليه معاوية ، وقد تجاوز فى طريقه ، يسأله أن يكون المتولِّى لمحاربة الخوارج[1] ، فقال الحسن : « والله لقد كففتُ عنك لحقن دماء المسلمين ، وما أحسبُ ذلك يَسَعنى ، أَفأُقاتِل عنك قومًا أنت والله أَوْلَى بالقتال منهم » . (ا الكامل للمبرد ٢ : ١٥٦)

---

(١) وكان أول من خرج منهم بعد قتل على عليه السلام حوثرة الأسدى ، فإنه كان معتزلا بالبندنيجين ، فكتب إلى حابس الطائى يسأله أن يولى أمر الخوارج حتى يسير إليه فيعينه ، فيتعاضدا على مجاهدة معاويه ، فأجابه ورجعا إلى موضع أصحاب النخيلة ، فلما رجع جواب الحسن إلى معاوية وجه إليهم جيشاً أكثرهم من أهل الكوفه فهزموهم .

١٣ — كتاب معاوية إلى ابن عباس

وكتب معاوية إلى ابن عباس رضى الله عنه ، عند صلح الحسن عليه السلام له كتابا يدعوه فيه إلى بيعته ، ويقول له فيه :

« ولَعَمْرِى لو قتلتُك بعثمان رجوتُ أنْ يكون ذلك لِلّه رِضًا ، وأن يكون رأيًا صوابًا ، فإنك من السَّاعين عليه ، والخاذلين له ، والسَّافكين دَمَهُ ، وما جَرَى بينى وبينك صُلْح فيمنعَك منى ، ولا بِيَدِك أمان » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٥٨)

١٤ — رد ابن عباس على معاوية

فكتب إليه ابن عباس جوابًا طويلاً يقول فيه :

« وأمّا قولك : إنّى من الساعين على عثمان ، والخاذلين له ، والسافكين دَمَه ، وما جرى بينى وبينك صلح فيمنعَك منى ، فأُقسِم بالله لَأنت المتربِّصُ بقتله ، والمحبُّ لهلاكه ، والحابِسُ الناسَ قِبَلك عنه ، على بصيرة من أمره ، ولقد أتاك كتابه وصَرِيخُه[١] يستغيث بك ويستصرخ ، فما حَفَلْتَ به[٢] ، حتى بعثتَ إليه مُعَذِّراً بأَخَرَة[٣] ، أنت تعلم أنهم لن يتركوه حتى يُقتلَ ، فقُتل كما كنت أردت ، ثم علمت عند ذلك أن الناس لن يَعْدِلوا[٤] بيننا وبينك ،

(١) الصريخ : المستغيث (والمغيث أيضاً ، ضد) واستصرخ : استغاث ، تقول : استصرخه فأصرخه
(٢) انظر ص ٣١٤ من الجزء الأول . (٣) المعذر : المقصر يعذر بغير عذر ، يوهم أن له عذراً ولا عذر له ، وجاء أخرة وبأخرة محركتين وقد يضم أولهما : أى آخر كل شىء ، وفى الأصل (بآجره) وهو تحريف . (٤) أى لن يسووا .

فطفقتَ تنعَى عثمان وتُلزِمنا دَمَه ، وتقول : قُتل مظلومًا ، فإن يك قُتل مظلومًا فأنت أظلم الظالمين ، ثم لم تزل مُصَوِّبا ومُصَعِّدا[١] ، وجاثمًا ورابِضاً[٢] ، تستغوى الجُهّال ، وتنازعنا حقَّنا بالسفهاء ، حتى أدركتَ ما طلبتَ ، وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٥٨)

١٥ — كتاب معاوية إلى الحسين بن علىّ

قال صاحب زهر الآداب :

وكان لمعاوية بن أبى سفيان عَيْنٌ بالمدينة يكتب إليه بما يكون من أمور الناس وقريش ، فكتب إليه أن الحسين بن علىّ رضى الله عنه أعتق جارية له وتزوجها ، فكتب معاوية إلى الحسين :

« من أمير المؤمنين معاوية إلى الحسين بن على :

أما بعدُ ، فإنه بلغنى أنك تزوجتَ جارِيتَك ، وتركتَ أكفاءَك من قريش ، ممن تستحسنه للولد ، وتَمْجُدُ به فى الصِّهر ، فلا لنفسك نظرتَ ، ولا لِولدك انتقَيْتَ » .

---

(١) التصويب خلاف التصعيد ، يقال صوّب رأسه : إذا خفضه.

(٢) جثم الطائر والإنسان كضرب ونصر جثما وجثوما: تلبد بالأرض، وربضت الشاه كضرب ربضة وربوضاً ، وهو مثل جثوم الطير وبروك الإبل .

١٦ — رد الحسين على معاوية

فكتب إليه الحسين بن عليّ رضى الله عنه :

« أما بعدُ ، فقد بلغنى كتابُك وتَعييرُك إياى بأنى تزوجتُ مَوْلاتى ، وتركتُ أكفائى من قريش ، فليس فوقَ رسول الله صلى الله عليه وسلم مُنْتهًى فى شَرَفٍ ، ولا غايةٌ فى نَسَبٍ[1]، وإنما كانت مِلْكَ يمينى ، خَرَجَتْ عن يدى بأمرٍ الْتَمستُ فيه ثوابَ الله تعالى ، ثم ارتجعتها على سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وقد رفع اللهُ بالإسلام الخَسيسةَ ، ووضع عنّا به النقيصةَ ، فلا لومَ على امرئ مُسْلم إلا فى أمرٍ مَأْثَم ، وإنما اللومُ لَوْمُ الجاهلية »

فلما قرأ معاوية كتابه نبذه إلى يزيد فقرأه وقال : لَشَدَّ ما فَخَر عليك الحسينُ ! قال : لا ، ولكنها أَلسِنَةُ بنى هاشم الحِداد ، التى تَفْلِقُ الصَّخْر ، وتغرِف من البحر   (زهر الآداب ١ : ٧٢)

☆☆☆

وروى صاحب العقد هذا الخبر قال :

تزوج علىّ (زين العابدين) بن الحسين جارية له وأعتقها ، فبلغ ذلك عبد الملك بن مروان ، فكتب إليه يؤنّبه ، فكتب إليه علىّ :

« إن اللهَ رَفَعَ بالإسلام الخَسيسةَ ، وأتمَّ به النقيصة ، وأكرمَ به من

(١) وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غزا يهود خيبر (سنة ٧ هـ) وهزمهم وسباهم ، وكان فى السبى صفية بنت حيي بن أخطب سيد بنى النضير ، فتزوجها عليه السلام وأصدقها عتقها ، وقد أسلمت .

اللؤم ، فلا عارَ على مسلم ، وهذا رسول ٱللّٰه صلى ٱللّٰه عليه وسلم قد تزوج أَمَتَه[1] ، وامرأةَ عَبْدِهِ[2] » .

فقال عبد الملك : إن عليّ بن الحسين يَتَشَرَّفُ من حيث يتّضعُ الناس .

(العقد الفريد ٣ : ٢٤٣)

١٧ — كتاب الحسين بن على إلى معاوية

وروى ابن أبى الحديد عن المدائنى قال :

قال معاوية يوما لعَقِيل بن أبى طالب : هل من حاجة فأقضِيَها لك ؟

---

(١) هى صفية اليهودية كما قدمنا .

(٢) يشير إلى زواجه صلى الله عليه وسلم من زينب بنت جحش — وأمها أميمة عمته — بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة ، وذلك أن رسول الله كان خطبها له ، فأنف أهلها من ذلك لشرفها ورفعة حسبها — وكان العرب يأبون أن يزوجوا بناتهم من الموالى — وزيد وإن كان قد تبناه الرسول لا يلحقه ذلك بالأشراف ، فلما نزل قوله تعالى « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللّٰهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ ٱللّٰهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا » لم يروا بدا من القبول ، فلما دخل بها زيد أرته من كبريائها ودلالها ما لم يحتمله ، فشكاها لرسول الله فأمره باحتمالها والصبر عليها ، إلى أن ضاق بها ذرعا ، فأخبره بعزمه على طلاقها وكرر ذلك ، فأمر الله نبيه أن يتزوج زينب بعد طلاقها ، حسما لهذا الشقاق من جهة ، وحفظا لشرفها أن يصيبه بزواجها مولى من جهة أخرى ، ولكن رسول الله خشى لوم اليهود والعرب عليه فى زواجه بزوجة ابنه . فقال لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله ، وأخفى فى نفسه ما أبداه الله ، فبين الله حكمه بإبطال هذه القاعدة وهى تحريم زوج المتبنى بقوله تعالى : « وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللّٰهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللّٰهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَٱللّٰهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللّٰهِ مَفْعُولًا » .

قال : نعم ، جارية عُرِضت عليّ وأَبَى أصحابها أن يبيعوها إلا بأربعين ألفاً ، فأحبَّ معاوية أن يمازحه فقال : وما تصنع بجارية قيمتُها أربعون ألفاً ، وأنت أعمى تجتزئ بجارية قيمتها خمسون درهما ؟ قال : أرجو أن أطَأَها فتَلِدَ لى غلاما إذا أغضبتَه يضرب عنقك بالسيف ، فضحك معاوية وقال : مازَحْناك ياأبا يزيد ، وأمر فابتيعت له الجارية التى أولدها ابنه «مُسْلِماً» ، فلما أتت على مُسْلِم ثمانى عشره سنة ، وقد مات عقيل أبوه ، قال لمعاوية : يا أمير المؤمنين إن لى أرضاً بمكان كذا من المدينة ، وإنى أُعْطِيتُ بها مائة ألف ، وقد أحببت أن أبيعك إياها ، فادفع إلىّ ثمنها ، فأمر معاوية بقبض الأرض ودفع الثمن إليه ، فبلغ ذلك الحسين عليه السلام ، فكتب إلى معاوية :

« أما بعدُ : فإنك غَرَرْتَ غلاما من بنى هاشم ، فابتعت منه أرضاً لا يملكها ، فاقبِض من الغلام ما دَفَعْتَه إليه ، واردد إلينا أرضنا »

١٨ — رد معاوية على الحسين

فبعث معاوية إلى مسلم فأخبره ذلك وأقرأه كتاب الحسين عليه السلام ، وقال : اردد علينا مالنا وخذ أرضك ، فإنك بعت مالا تَمْلِكُ ، فقال مسلم : أَمَّادُونَ أن أضرِبَ رأسك بالسيف فلا ، فاستلْقَى معاوية ضاحكا يضرب برجليه ، وقال : يا بنىّ هذا والله كلام قاله لى أبوك حين ابتعتُ له أمَّك ، ثم كتب إلى الحسين :

« إنى قد رَدَدْتُ عليكم الأرض ، وسوّغتُ[١] مسلماً ما أخذ » فقال الحسين عليه السلام : « أبَيْتم يا آلَ أبى سفيانَ إلا كَرَمًا » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٣ : ص ٨٢)

١٩ — كتاب الحسين بن على إلى معاوية

وكان مال حُمِل من اليمن إلى معاوية ، فلما مَرّ بالمدينة وثب عليه الحسين بن علىّ عليه السلام ، فأخذه وقسمه فى أهل بيته ومَواليه ، وكتب إلى معاوية :

« من الحسين بن علىّ إلى معاوية بن أبى سفيان :

أما بعد : فإن عِيرًا[٢] مَرّتْ بنا من اليمن تحمِل مالاً وحُللا ، وعَنْبراً وطِيباً إليك ، لِتُودِعَها خزائن دِمَشق ، وتُعِلّ بها بعد النَّهَلِ[٣] بنى أبيك ، وإنى احتجت إليها فأخذتها ، والسلام » . (شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٣٢٧)

٢٠ — رد معاوية على الحسين

فكتب إليه معاوية :

« من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى الحسين بن علىّ :

سلام عليك، أما بعدُ : فإن كتابك ورد علىّ، تذكُر أن عِيرا مرت بك

---

(١) سوّغه ما أصاب : تركه له خالصا .

(٢) العير : الإبل تحمل الميرة ، بلا واحد من لفظها ، أو كل ما امتير عليه إبلا كانت أو حميرا أو بغالا

(٣) العلّ والعلل محركة : الشربة الثانية أو الشرب بعد الشرب تباعا ، علّ كضرب ونصر ، وعلله كضرب ونصر أيضا وأعله ، والنهل محركة : أول الشرب . نهلت الإبل كفرح ، وقد أنهلها

من اليمن ، تحمل مالاً وحُلَلا ، وعَنبراً وطِيباً إلىّ ، لِأُودِعَها خزائن دمشق ، وأعلّ بها بعد النَّهَل بنى أبى ، وأنك احتجت إليها فأخذتها ، ولم تكن جديراً بأخذها ، إذ نسبْتَها إلىّ ، لأن الوالى أحقّ بالمال ، ثم عليه المَخْرَجُ منه ، وأَيْمُ اللّٰه لو تركْتَ ذلك حتى صار إلىّ ، لم أبْخَسْك حظَّك منه ، ولكنى قد ظننت يا بن أخى أن فى رأسك نَزْوةً[1] ، وبوُدِّى أن يكون ذلك فى زمانى ، فأعرفَ لك قَدْرَك ، وأتجاوزَ عن ذلك ، ولكنى وَاللّٰهِ أتخوفُ أن تُبْتَلَى بمن لا يُنظِرُكَ فُوَاقَ[2] ناقة ، وكتب فى أسفل كتابه :

يا حسينُ بنَ علىّ : ليس ما … جئتَ بالسائغِ يوما فى العِلَلْ[3]

أخْذُكَ المالَ ولم تُؤْمَرْ به … إنّ هذا من حُسَينٍ لَعَجَلْ

قد أجَزْناها ولم نَغْضَبْ لها … واحتملْنا من حسينٍ ما فعلْ

يَا حُسَينُ بن علىّ ذَا الأَمَلْ … لَكَ بَعْدِى وَثْبَةٌ لاَ تُحْتَمل

وبودّى أننى شاهدُها … فَأَلِيها منك بالخُلُق الأجَلّ[4]

إننى أَرْهَبُ أَنْ تَصْلَى بمن … عِندَهُ قد سَبَق السيفُ العَذَلْ[5]

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٣٢٧)

---

(١) النزوة : الوثبة ، من نزا نزوا ونزوانا إذا وثب ، يريد أنه يتوثب لطلب الخلافة .

(٢) أنظره : أمهله ، والفواق كغراب وصبح : مابين الحلبتين من الوقت ، أو مابين فتح يدك وقبضها على الضرع . (٣) السائغ : الجائز . (٤) أليها : أى أتولاها وأعالجها .

(٥) سبق السيف العذل : مثل معناه قد فرط من الفعل مالا سبيل إلى رده (والعذل : اللوم) وأول من قال هذا المثل ضبة بن أدّ بن طابخة بن إلياس بن مضر ، وكان له ابنان فقال لأحدهما سعد وللآخر سعيد ، فنفرت إبل لضبة تحت الليل ، فوجه ابنيه فى طلبها ، فوجدها سعد فردها ، ومضى سعيد فى طلبها ، فلقيه الحارث بن كعب ، وكان على الغلام بردان ، فسأله الحرث إياهما ، فأبى عليه ، فقتله وأخذ برديه ، وكان ضبة إذا أمسى فرأى تحت الليل سوادا قال : أسعد أم سعيد (فذهبت مثلا يضرب فى النجاح والخيبة) فمكث ضبة بذلك ماشاء الله أن يمكث ، ثم إنه حج فوافى عكاظ ، فلقى بها الحرث بن كعب ورأى عليه بردى ابنه سعيد ، فعرفهما فقال له : هل أنت مخبرى ماهذان

٢١ ـ كتاب محمد بن الحنفية إلى الحسين بن علي

وجرى بين الحسين بن عليّ وبين أخيه محمد[1] بن الحنفيّة رضى الله عنهما كلام، واقترقا متغاضِبَين، فلما وصل محمد إلى منزله كتب إلى الحسين بعد البسملة:

« من محمد بن عليّ إلى أخيه الحسين بن عليّ، أما بعد، فإن لك شَرَفا لا أُبْلُغُهُ، وفضلاً لا أُدْرِكه، فإن أمّى امرأة من بنى حَنِيفة، وأمّك فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولوكان مِلْءُ الأرض نساء مثل أمّى ما وَفَيْنَ بأمّك، فإذا قرأتَ رُقْعتى هـذه فالبَسْ رداءك ونعليك، وسِرْ إلَىّ لتُرضِيَنى، وإياك أن أَسْبِقَك إلى هـذا الفضل الذى أنت أَوْلَى به منى، والسلام »:

فلبس الحسين رداءه ونعليه وجاء إليه وترضّاه[2].

(عرر الخصائص الواضحة: ص ٣٨٣)

البردان اللذان عليك؟ قال: بلى، لقيت غلاما وهما عليه، فسألته إياهما فأبى علىّ فقتلته وأخذت برديه هذين، فقال ضبة: سيفك هذا؟ قال: نعم، فقال: فأعطنيه أنظر إليه فإنى أظنه صارما، فأعطاه الحارث سيفه، فلما أخذه من يده هزه وقال: الحديث ذوشجون (أى ذو طرق جمع شجن كشمس) ثم ضربه به حتى قتله، فقيل له: ياضبة، أفى الشهر الحرام؟ فقال: سبق السيف العذل.

(١) هو محمد بن على بن أبى طالب، والحنفية أمه، وهى من بنى حنيفة بن لجيم، واسمها خولة بنت جعفر، وتوفى محمد سنه ٨١ ـ انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ١ : ٤٤٧.

(٢) وفى رواية زهر الآداب (١ : ٧١).

وقع بين الحسن بن على ومحمد بن الحنفية رضى الله عنهما لحاء (أى منازعة) ومشى الناس بينهما بالنمائم، فكتب إليه محمد بن الحنفية:

« أما بعد، فإن أبى وأباك على بن أبى طالب، لاتفضلنى فيه ولا أفضلك، وأمى امرأة من بنى حنيفة، وأمك فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلو ملئت الأرض بمثل أمى، لكانت أمك خيرا منها، فإذا قرأت كتابى هذا، فاقدم حتى تترضانى، فإنك أحق بالفضل منى ».

٢٢ — كتاب الحسن بن على إلى أهل البصرة

وكتب الحسن بن على عليهما السلام إلى أهل البصرة كتابا قال فيه :

« من لم يُؤْمن بالله وقضائه وقَدَره فقد كفر ، ومن حَمَل ذنْبه على ربه فقد فَجَر ، إن الله لا يُطاعُ استكراهاً ، ولا يُعْصَى لِغَلَبة ، لأنه المَلِيك لما ملّكهم ، والقادر على ما أقدرهم عليه ، فإن عَمِلوا بالطاعة لم يَحُل بينهم وبين ما فعلوا ، وإن عَمِلوا بالمعصية فلو شاء حال بينهم وبين ما فعلوا ، فإذا لم يفعلوا فليس هو الذى أجبرهم على ذلك ، فلو أجبر الله الخلقَ على الطاعة لأَسْقَط عنهم الثوابَ ، ولو أجبرهم على المعاصى لأسقط عنهم العقابَ ، ولو أهملهم لكان عَجْزاً فى القدرة ، ولكن له فيهم المَشِيئة التى غيَّبها عنهم ، فإن عملوا بالطاعات كانت له المِنّةُ عليهم ، وإن عملوا بالمعصية كانت له الحُجّة عليهم » .

(المنية والأمل ص ١٠)

٢٣ — كتاب ابن عباس إلى مجبرة الشام

وكتب عبد الله بن عباس إلى مُجْبِرة[1] الشأم :

« أما بعد ، أتأمرون الناس بالتقوى وبكم ضَلّ المتقون ، وتَنْهَوْن الناس عن المعاصى وبكم ظهر العاصُون ؟ يا أبناء سَلَفِ المقاتلين ، وأعوان الظالمين ، وخُزّان مساجد الفاسقين ، وعُمّار سلف الشياطين ، هل منكم إلا مُفْتَرٍ على الله

(١) المجبرة أو الجبرية : فرقة تقول بأن الإنسان لا يقدر على شىء ولا يوصف بالاستطاعة ، وإنما هو مجبور فى أفعاله لا قدرة له ولا إرادة ولا اختيار ، وإنه كالريشة فى مهب الرياح ليس له كسب فيما يأتيه .

يحمِلُ أجْرَامه(١) عليه ، وينسِبُها عَلاَنِيةً إليه ، وهل منكم إلا مَن السيفُ قِلادتُه ، والزور على الله شهادته ؟ أعَلَى هذا تواليَتم ، أم عليه تَمَاليتم(٢) ؟ حَظُّكم منه الأوفر ، ونصيبكم منه الأكبر ، عَمَدتم إلى مُوالاةِ مَن لم يَدَعْ لله مالاً إلا أخذه ، ولا مَنَاراً إلا هَدَمه ، ولا مالاً ليتيم إلا سَرَقه أو خانه ، فأوجبتم لِأَخبث خلقِ الله أعظمَ حقِّ الله ، وتخاذلتم أهل الحق حتى ذَلُّوا وقلّوا ، وأعَنْتم أهلَ الباطل حتى عَزُّوا وكَثُروا ، فأَنِيبوا إلى الله وتوبوا ، تاب الله على من تاب ، وقبل من أناب» . (المنية والأمل ص ٩)

٢٤ — كتاب معاوية إلى عمرو بن العاص

وكتب معاوية إلى عمرو بن العاص — وبلغه عنه أمر — :

« وفَّقك الله لِرُشْدك ، بلغنى كلامك فإذا أولُه بَطَر وآخره خوَرٌ ، ومن أبطره الغنى أذلَّه الفقرُ ، وهما ضِدّان مُخادعان للمرء عن عقله ، وأولى الناس بمعرفة الدواء من يَبِينُ له الداء ، والسلام » .

٢٥ — رد عمرو على معاوية

فأجابه عمرو :

« طاولَتْك النِّعم ، وطاولَتْ بك ، علوُّ إنصافك يُؤْمِن سطوةَ جَوْرك ، ذكرتَ أنى نطقتُ بما تكره ، وأنا مخدوع ، وقد علمت أنى مِلْت إلى محبتك ولم أُخْدع ، ومثلك شَكَرَ مَسْعَى معتذِر ، وعفا زَلَّة مُعْتَرِف » .

(العقد الفريد ٢ : ٢٠١)

---

(١) الأجرام : جمع جرم بالضم وهو الجريمة . (٢) مخفف عن تمالأتم أى اجتمعتم .

٢٦ — كتب بين معاوية وبسر بن أبى أرطاة وبين زياد ابن أبيه

روى الطبرى قال :

« صالحَ الحسن عليه السلام معاوية ، وشَخَص إلى المدينة ، فبعث معاوية بُسْرَ بن أبى أَرْطاة إلى البصرة فى رجب سنة ٤١ هـ ، وزيادٌ متحصِّنٌ بفارس[١] ، فكتب معاوية إلى زياد : « إنّ فى يديك مالاً من مال الله ، وقد وَلِيتَ ولايةً ، فأَدِّ ما عندك من المال » :

فكتب إليه زياد :

« إنه لم يَبْقَ عندى شىء من المال ، وقد صَرَفتُ ما كان عندى فى وَجْهِهِ ، واستودعتُ بعضَه قومًا ، لِنازلةٍ إن نَزَلَتْ ، وحَمَلْتُ ما فَضَلَ إلى أمير المؤمنين[٢] رحمةُ الله عليه » .

فكتب إليه معاوية « أَنْ أقبلْ إلىّ نَنظُرْ فيما وَلِيتَ وجرَى على يديك ، فإن استقام بيننا أمر فهو ذاك ، وإلا رجعْتَ إلى مَأْمَنِك » .

فلم يأته زياد ، فأخذ بُسْرٌ بنى زياد الأكابرَ منهم فحبسهم (عبد الرحمن وعُبيد الله وعَبَّادا) وكتب إلى زياد :

« لتَقْدَمَنَّ على أمير المؤمنين أو لأَقتُلَنَّ بنيك » فكتب إليه زياد :

« لستُ بارِحًا من مكانى الذى أنا بهِ حتى يَحكمَ اللهُ بينى وبين صاحبك

---

(١) وكان واليا عليها من قبل الإمام على كرم الله وجهه كما قدمنا فى الجزء الأول .

(٢) يعنى الامام عليا رضى الله عنه .

فإن قتلتَ مَن في يديك من ولدى ، فالمصيرُ إلى اللّٰه سبحانه ، ومِنْ ورائنا ووراءكم الحسابُ ، وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » .

فهمَّ بقتلهم ، فأتاه أبو بَكْرة[1] فقال: أخذتَ ولدى وولدَ أخى غِلمانا بلا ذنب ، وقد صالح الحسن معاوية على أمان أصحاب عليّ حيث كانوا ، فليس لك على هؤلاء ولا على أبيهم سبيل ، فقال : إنَّ على أخيك أموالاً قد أخذها ، فامتنع من أدائها ، قال : ما عليه شيء ، فاكفُف عن بنى أخى حتى آتِيَك بكتاب من معاوية بتخليتهم ، فأجَّلَه أياما ، قال له : إن أتيتنى بكتاب معاوية بتخليتهم ، وإلا قتلتهم ، أو يُقبِلَ زياد إلى أمير المؤمنين، فأتى أبو بكرة معاوية فكلمه فى زياد وبنيه ، وكتب معاويةُ إلى بُسْر بالكف عنهم وتخلية سبيلهم فخلاهم .

وفى رواية أخرى للطبرى أيضاً قال :

كتب بُسْر إلى زياد : « لَئِن لم تَقْدَم لَأَصْلُبَنَّ بنيك » فكتب إليه : « إن تفعل فأهلُ ذاك أنت ، إنما بعثَ بك ابنُ آكِلَة الأكباد[2] » فركب أبو بكرة إلى معاوية ، فقال : يا معاوية إن الناس لم يعطوك بَيْعَتهم على قتل الأطفال ، قال : وما ذاك يا أبا بكرة ؟ قال : بُسْرٌ يريد قتل أولاد زياد ،

---

(١) هو أخو زياد لأمه ، وأبوه الحرث بن كلدة .

(٢) هى هند أم معاوية، وذلك أن حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يوم بدر قد قتل عمها شيبة بن ربيعة بن عبد شمس ، واشترك هو والإمام على وعبيدة بن الحرث بن المطلب فى قتل أبيها عتبة بن ربيعة، واشترك هو والإمام على وزيد بن حارثة فى قتل ابن زوجها حنظلة ابن أبى سفيان ، فلما كانت غزوة أحد قتل حمزة رضى الله عنه (قتله وحشى مولى جبير بن مطعم ، دعاه سيده وقال له اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة نعمى طعيمة فأنت حر) ومثل المشركون بقتلى المسلمين ، وبقرت هند بطن حمزة وأخذت كبده لتأكلها انتقاما منه فلاكتها ثم أرسلتها .

فكتب معاوية إلى بسر أن خَلِّ من بيدك من ولد زياد ، وكان معاوية قد كتب إلى زياد بعد قتل عليّ عليه السلام يتوعده : (تاريخ الطبرى ٦ : ٩٦)

٢٧ — كتاب معاوية إلى زياد

وروى ابن أبى الحديد قال :

كان عليّ عليه السلام قد ولّى زياداً قطعة من أعمال فارس ، واصطنعه لنفسه ، فلما قتل عليّ عليه السلام بقي زياد فى عمله ، وخاف معاوية جانبَه ، وعلم صعوبة ناحيته ، وأشفق من مُمَالأته الحسنَ بن عليّ عليه السلام ، فكتب إليه :

«من أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان إلى زياد بن عُبَيْد[1] ، أما بعد : فإنك عَبْد قد كفَرْتَ النعمةَ ، واستدعيتَ النِّقمةَ ، ولقد كان الشكرُ أوْلَى بك من الكفر ، وإن الشجرة لَتَضْرِبُ بعِرْقها ، وتتفرّع من أصلها ، إنك — لا أمَّ لك[2]

(١) ذكروا أن سمية أم زياد كانت قد وهبها أبو الخير بن عمرو الكندى للحرث بن كلدة — وكان طبيبا يعالجه — فولدت له على فراشه نافعا ، ثم ولدت أبا بكرة فأنكر لونه ، وقيل له : إن جاريتك بغى ، فانتفى من أبى بكرة ومن نافع ، وزوجها عبيدا — وكان عبدا لابنته — فولدت على فراشه زيادا (العقد الفريد ٣ : ٢) .

(٢) يقول الرجل للرجل « لا أم لك » وهو شتم وسب ، ومعناه : ليس لك أم حرة . وذلك أن بنى الإماء عند العرب مذمومون ليسوا عرضيين ولا لاحقين ببنى الحرائر ، وقيل معناه : أنت لقيط لاتعرف لك أم ، ولايقول الرجل لصاحبه « لا أم لك » إلا فى غضبه عليه مقصرا به شاتما له (وربما وضع موضع المدح على التعجب منه) .

وأما إذا قال « لا أبا لك » — ويقال أيضا لا أب لك ولا أباك ولا أبك بغير لام — فلم يترك له من الشتيمة شيئاً ، وإذا أراد كرامة قال « لاأبا لشانيك » « ولا أب لشانيك » .

وجاء فى كتب اللغة أيضا : وأكثر مايذكر « لا أبا لك » فى المدح ، أى لا كافى لك غير نفسك وقد يذكر فى معرض الذم كما يقال لا أم لك ، وقد يذكر فى معرض التعجب ودفعا للعين كقولهم لله

بل لا أبَ لك ـ قد هلكتَ وأهلكتَ[1] ، وظننت أنك تخرج من قبْضَتى ، ولا ينالك سلطانى ! هيهاتَ ! ما كُلُّ ذى لُبٍّ يُصيبُ رأيُه ، ولا كلُّ ذى رأيٍ ينصَح فى مَشُورته ، أمسِ عبدٌ، واليومَ أميرٌ ! خُطَّةٌ ما أرتقاها مثلُك يا بن سُمَيَّة !

وإذا أتاك كتابى هذا فخذ الناس بالطاعة والبيْعة ، وأسرِع الإجابة ، فإنك إن تفعل فدَمَك حقَنتَ ، ونفسَك تداركتَ ، وإلا اختطفتُك بأضعف رِيش[2] ، ونِلْتُك بأهون سعى ، وأُقسِم قَسَماً مَبْرُورا أنْ لا أُوتَى بك إلا فى زَمّارة[3] ، تمشى حافياً من أرض فارس إلى الشأم ، حتى أُقيمَك فى السوق ، وأبيعَك عبداً ، وأردَّك إلى حيثُ كنتَ فيه ، وخرجتَ منه ، والسلام » . (شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٦٨)

٣٨ — رد زياد على معاوية

فلما ورد الكتاب على زياد غَضِب غضباً شديداً ، وكتب إلى معاوية :

« أما بعد : فقد وصل إلىَّ كتابك يامعاوية ، وفهمتُ ما فيه ، فوجدتك كالغَريق يُغطّيه الموجُ فيتشبَّث بالطُّحْلُب[4] ، ويتعلق بأرجل الضفادع ،

درك ، وقد يذكر بمعنى جد فى أمرك وشمر لأن من له أب اتكل عليه فى بعض شأنه » .
وجاء فيها « لا أبا لك : دعاء ، فى المعنى لامحالة وفى اللفظ خبر ، يقال لمن له أب ولمن لاأب له ، وقيل لا أبا لك : كلمة تفصل بها العرب كلامها » .

(١) أى وأهلكت أسرتك ، لأن خروجك علىّ يعرضها لبطشى بها .

(١) يريد بأضعف قوة ، وكانوا يلزقون الريش على السهم ليقوّوه ويسددوه ، ومنه قالوا راش السهم يريشه إذا ركب عليه الريش ، فهو مريش .

(٣) أى فى جماعة زمارة نزمر حولك بالمزامير لتشهيرك والتشنيع عليك .

(٤) الطحلب بضم اللام وفتحها : خضرة تعلو الماء المزمن .

طَمَعًا فى الحياة ، إنما يكفرُ النِّعَمَ ، ويستدعى النِّقَمَ مَن حادَّ[1] اللهَ ورسولَه وسعى فى الأرض فساداً .

فأمّا سبُّك لى فلولا حِلْمٌ ينهانى عنك ، وخوفى أن أُدْعَى سفيهاً ، لَأَثَرْتُ[2] لك مَخازِىَ لا يغسلها الماء ، وأمّا تعييرُك لى بسُمَيَّة ، فإن كنتُ ابنَ سمية فأنت ابن حمامَةَ[3] ، وأمّا زَعْمُك أنك تختطفنى بأضعف ريش ، وتتناولُنى بأهون سعى ، فهل رأيتَ بازِيًا يُفْزِعه صغيرُ القَنَابِرِ[4] ؟ أم هل سمعتَ بذئب أكله خروف ؟ فامضِ الآن لطِيَّتك[5] ، واجْهَد جَهْدك[6] ، فلستُ أنزِل إلا بحيثُ تَكْرَه ، ولا أجتهد إلا فيما يَسوءك ، وستعلم أيُّنا الخاضع لصاحبه ، الطالعُ إليه ، والسلام » . (شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٦٨)

٢٩ — رد معاوية على زياد

فلما ورد كتاب زياد على معاوية غمّه وأحزنه[7] ، ثم كتب إليه مع المُغِيرَة بن شُعْبة :

---

(١) أى عاضبه وخالفه وعاداه . (٢) لأبرزت وأظهرت .

(٣) روى ابن أبى الحديد فى شرحه (م ١ : ص ١٠٧) أن حمامة جدة معاوية أم أبيه أبى سفيان، وأنها كانت بغيا فى الجاهلية صاحبة راية .

(٤) البازى : واحد البزاة التى تصيد ، ضرب من الصقور ، القبر كسكر : ضرب من العصافير واحدته قبرة ، والقنبراء بضم الباء وفتحها لغة فيها والجمع القنابر ، والعامة تقول القبرة بالضم ، وقد جاء ذلك فى الرجز * جاء الشتاء واجثألّ القنبر * (اجثأل الطائر : نفش ريشه) .

(٥) الطية : الناحية ، والحاجة والوطر ، فهى تكون منزلا وتكون منتوى ، ومضى لطيته أى لوجهه وقصده الذى يريده ولنيته التى انتواها .

(٦) الجهد بالفتح ويضم : الطاقة ، واجهد جهدك : ابلغ غايتك .

(٧) روى ابن أبى الحديد قال : « وبعث إلى المغيرة بن شعبة فخلا به وقال : يامغيرة ، إنى أريد مشاورتك فى أمر أهمنى ، فانصحنى فيه وأشر علىّ برأى المجتهد ، وكن لى أكن لك ، فقد خصصتك

« من أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان إلى زياد بن أبى سفيان[1] ، أما بعدُ : فإن المرء ربّما طَرَحَه الهوَى فى مَطَارِح العَطَب ، وإنك لَلمرءُ المضروبُ به المثلُ : قاطِعُ الرَّحِم ، وواصِلُ العدوّ ، حَمَلَكَ سوءُ ظنّك بى ، وبُغضك لى على

بنى ، وآثرتك على ولدى ، قال المغيرة : فما ذاك ؟ والله لتجدنى فى طاعتك أمضى من الماء فى الحدور ، ومن ذى الرونق فى كف البطل الشجاع ، قال : يامغيرة إن زيادا قد أقام بفارس يكش لنا كشيش الأفاعى (كشيش الأفعى : صوتها من جلدها لامن فيها ، وفعله كضرب) وهو رجل ثاقب الرأى ماضى العزيمة جوال الفكر مصيب إذا رمى ، وقد خفت منه الآن ما كنت آمنه إذ كان صاحبه حيا ، وأخشى ممالأته حسنا ، فكيف السبيل إليه ، وما الحيلة فى إصلاح رأيه ؟ قال المغيرة: أنا له إن لم أمت ، إن زيادا رجل يحب الشرف والذكر وصعود المنابر ، فلو لاطفته المسألة وألنت له الكتاب ، لكان لك أميل وبك أوثق ، فاكتب إليه وأنا الرسول ، ورحل المغيرة بالكتاب حتى قدم فارس ، فلما رآه زياد قربه وأدناه ولطف به فدفع إليه الكتاب فجعل يتأمله ويضحك ، وكان مما قاله له المغيرة : دع عنك اللجاج يرحمك الله وارجع إلى قومك وصل أخاك وانظر لنفسك ولاتقطع رحمك ، قال زياد : إنى رجل صاحب أناة ، ولى فى أمرى روية ، فلا تعجل علىّ ولاتبدأنى بشىء حتى أبدأك » وقال صاحب العقد : (٣ : ٣) وكان المغيرة لزياد صديقا ، وذلك أن زيادا كان أحد الشهود الأربعة الذين شهدوا على المغيرة (أى بالزنا) وهو الذى تلجلج فى شهادته عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فنجا المغيرة وجلد الثلاثة من الشهود وفيهم أبو بكرة أخو زياد ... قال زياد للمغيرة : أشر علىّ وارم الغرض الأقصى ، فإن المستشار مؤتمن ، قال أرى أن تصل حبلك بحبله وتسير إليه وتعير الناس أذنا صماء وعينا عمياء ... وقد عمل بمشورة المغيرة وسار إلى معاوية .

[1] ذكروا أن البغايا فى الجاهلية كانت لهن رايات يعرفن بها وينتحيها الفتيان ، فيقال إن أباسفيان خرج يوما وهو ثمل إلى تلك الرايات ، فقال لصاحبة الراية هل عندك من بغىّ ؟ فقالت : ماعندى إلا سمية ، قال: هاتها على نتن إبطيها ، فوقع بها ، فولدت له زيادا على فراش عبيد (العقد الفريد ٣ : ٢)

وقد شهد أبو مريم السلولى حين استلحق معاوية زيادا قال : أشهد أن أباسفيان قدم علينا بالطائف ، وأنا خمار فى الجاهلية ، فاشتريت له لحما وخمرا وطعاما ، فلما أكل قال : يا أبامريم ابغنى بغيا ، فخرجت فأتيت سمية ، فقلت لها : إن أبا سفيان من قد عرفت شرفه وجوده ، وقد أمرنى أن أصيب له بغيا ، فهل لك ؟ فقالت : نعم يجىء الآن عبيد بغنمه — وكان راعيا — فإذا تعشى ووضع رأسه أتيته ، فرجعت إلى أبى سفيان فقلت : لم أجد إلا جارية الحرث بن كلدة : سمية ، فقال : ائتنى بها على ذفرها وقذرها ، وأخذ بكم درعها ، وأغلقت الباب عليهما ، فلم ألبث أن خرج علىّ يمسح جبينه ، فقلت : مه يا أباسفيان ، فقال : ماأصبت مثلها ياأبا مريم ، لولا استرخاء من ثدييها وذفر فى إبطيها (شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٧٠ ومروج الذهب ٢ : ص ٥٦) (الذفر بالتحريك ويسكن : النتن ، والذفر بالتحريك : كل ريح ذكية من طيب أونتن ، أويخص برائحة الإبط المنتنه) .

وكان يقال له : زياد بن عبيد ، وزياد بن أبيه ، وزياد بن سمية ، وزياد بن أمه ، ولما استلحق (سنة ٤٤ هـ) قيل له زياد بن أبى سفيان .

أن عَقَقْتَ قرابتى ، وقطعْت رَحِمى ، وبَتَتّ[1] نَسَبى وحُرْمتى ، حتى كأنك لست أخى ، وليس صَخْر بن حَرْب أباك وأبى ! وشتان ما بينى و بينك ، أطلب بدم ابن أبى العاص[2] وأنت تقاتلنى ، ولكن أدركك عِرْقُ الرّخاوة من قبَل النساء ، فكنتَ كتاركةٍ بيضَها بالعَرَاء[3] : ومُلْحِفَة بيض أخرى جَناحَها ، وقد رأيتُ أن أعطِفَ عليك ، ولا أؤاخذَك بسوء سعيك ، وأن أَصِلَ رَحِمَك ، وأَبتغِيَ الثواب فى أمرك ، فاعلم أبا المُغيرة أنك لو خُضْتَ البحر فى طاعة القوم فتضرب بالسيف حتى ينقطع مَتْنُه ، لَمَا ازددتَ منهم إلا بُعْدا ، فإن بنى عبد شمس أبغضُ إلى بنى هاشمٍ من الشَّفْرَة إلى الثور الصَّرِيع وقد أُوثِقَ للذبح ، فارجِعْ رحمك الله إلى أصلك واتَّصل بِقومك ، ولا تكن كالموصول يطِير بريشِ غيره ، فقد أصبحتَ ضالَّ النسب ، ولَعَمْرِى ما فعل بك ذلك إلا اللَّجاجُ ، فدَعْه عنك فقد أصبحتَ على بيِّنةٍ من أمرك ، ووضوحٍ من حُجَّتك ، فإن أحببتَ جانبى ووثِقْتَ بى فإمْرَةٌ بإمرة ، وإن كرِهْتَ جانبى ولم تثق بقولى ، ففِعلٌ جميل ، لا علىَّ ولا لى ، والسلام » .

(شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٦٩)

٣٠ — رد زياد على معاوية

فكتب إليه زياد جواب كتابه :

« أما بعدُ : فقد وصل كتابك يا معاوية مع المُغيرة بن شُعْبَة وفهمتُ

---

(١) قطعت . (٢) أى عثمان وهو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية .
(٣) العراء : الفضاء لا يستتر فيه بشىء .

ما فيه ، فالحمد لله الذى عرَّفك الحقَّ وردّك إلى الصِّلة ، ولست ممن يجهل معروفاً ، ولا يُغْفِل حسباً ، ولو أردتُ الآن أن أُجيبك بما أوجَبَته الحجَّةُ ، واحتمله الجوابُ ، لطال الكتابُ ، وكثر الخطابُ ، ولكنك إن كنتَ كتبتَ كتابك هذا عن عَقْدٍ صحيح ونية حسنة ، وأردت بذلك برّاً ، فستزرع فى قلبي مَودة وقَبولا ، وإن كنتَ إنما أردتَ مَكِيدة ومكراً وفساد نِيَّة ، فإن النفس تأبَى ما فيه العَطَبُ ، ولقد قمتُ يوم قرأت كتابك مَقامًا يَعْيا به الخطيبُ المِدْرَه[1] ، فتركتُ مَنْ حَضَرَ لاأهلَ وِرْدٍ ولا صَدَر[2] ، كالمتحيّرِين بمَهْمَهٍ[3] ضل بهم الدليلُ ، وأنا على أمثال ذلك قدير »

وكتب فى أسفل الكتاب :

إذا مَعْشَرِى لم يُنْصفونى وَجَدتَنى	أدافِعُ عنى الضَّيْمَ ما دمتُ باقيا
وكم معشرٍ أعيَتْ قَناتِى عليهمُ	فلاموا وألْفَونى لدى العزم ماضيا
وَهَمٍّ به ضاقت صـــدورٌ فَرَجْتُه	وكنت بطبِّى للرجالِ مُــــداويا

(١) وذلك أنه لما ورد عليه المغيرة بكتاب معاوية ، جمع الناس بعد يومين أو ثلاثة فخطبهم فقال أيها الناس : ادفعوا البلاء ما اندفع عنكم ، وارغبوا إلى الله فى دوام العافية لكم ، فقد نظرت فى أمور الناس منذ قتل عثمان ، وفكرت فيهم فوجدتهم كالأضاحى فى كل عيد يذبحون ، ولقد أفنى هذا اليومان يوم الجمل وصفين ما ينيف على مائة ألف كلهم يزعم أنه طالب حق وتابع إمام وعلى بصيرة من أمره ، فإن كان الأمر هكذا فالقاتل والمقتول فى الجنة ، كلا ليس كذلك ، ولكن أشكل الأمر ، والتبس على القوم ، وإنى لخائف أن يرجع الأمر كما بدأ ، فكيف لامرئ بسلامة دينه ، وقد نظرت فى أمر الناس فوجدت أحمد العاقبتين العافية ، وسأعمل فى أموركم ما تحمدون عاقبته ومغبته ، فقد حمدت طاعتكم إن شاء الله » .

والمدره : المقدم فى اللسان عند الخصومة ، فهو لسان القوم والمتكلم عنهم الذى يرجعون إلى رأيه .

(٢) الورد : الإشراف على الماء وغيره دخله أو لم يدخله ، والصدر : الرجوع .

(٣) المهمه : المفازة البعيدة والبلد المقفر .

أُدافِعُ بالحِـلمِ الجَهُولَ مَكيدَةً ... وأُخفِي له تحت الضلوع الدَّواهيا[1]
فإن تدنُ مني أدنُ منك، وإن تَبِنْ ... تجِدْني إذا لم تدْنُ مـنِّيَ نائيا»[2]

فأعطاه معاوية جميع ما سأله ، وكتب إليه بخط يده ما وَثِقَ به فدخل إليه الشأم ، فقربه وأدناه وأقره على ولايته ، ثم استعمله على العراق .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٦٩)

٣١ — كتاب الحسن بن علي إلى زياد ابن أبيه

وكان سعيد بن أبي سَرْح مَوْلَى حَبِيب بن عبد شَمس شِيعةً لعليّ ابن أبي طالب عليه السلام ، فلما قدِم زياد الكوفة[3] طلبه وأخافه ، فأتى الحسنَ بن عليّ عليه السلام مستجيراً به، فوَثَب زياد على أخيه وولده وامرأته فحبسهم ، وأخذ ماله ونَقَض داره ، فكتب الحسن بن عليّ عليه السلام إلى زياد :

من الحسن بن علي إلى زياد :

« أما بعدُ ، فإنك عَمَدْتَ إلى رجل من المسلمين ، له مالهم ، وعليه ما عليهم ، فهدَمْتَ دارَه ، وأخذت ماله ، وحَبَسْتَ أهله وعِياله[4] ، فإن أتاك كتابي هذا فابْنِ له دارَه ، وارْدُد عليه عِياله وماله ، وشفِّعْني فيه فقد أجَرْتُه . والسلام[5] » .

---

(١) في الأصل «تحت العصاة» وأرى أنه محرف ، والأقرب إلى المعنى «تحت الضلوع» كما أثبته
(٢) وإن تبن : أي وإن تفارق وتبعد .
(٣) ولاه معاوية البصرة سنة ٤٥ ، ثم ضم إليه الكوفة بعد موت أميرها المغيرة بن شعبة سنة ٥٠ هـ
(٤) العيال جمع عيل (كجياد جمع جيّد) وهو من تلزم الانفاق عليه ، ويكون اسما للواحد .
(٥) وفي رواية أخرى أن نص الكتاب .
« أما بعد فقد علمت ما كنا أخذنا من الأمان لأصحابنا ، وقد ذكر لي فلان أنك تعرضت له ، فأحب أن لا تعرض له إلا بخير والسلام » .

٣٢ — رد زياد على الحسن

فغضب زياد إذ قدَّم نفسه عليه ولم ينسبه إلى أبى سفيان، وكتب إليه :

« من زياد بن أبى سفيان إلى الحسن بن فاطمة ، أما بعد : فقد أتانى كتابك تَبْدَأ فيه بنفسك قَبْلى وأنت طالِبُ حاجة ، وأنا سلطان، وأنت سُوقة ، وتأمرنى فيه بأمر المُطاع المُسَلَّط على رعيته ، كتبتَ إلىَّ فى فاسقٍ آوَيْتَه[1] إقامةً منك على سوء الرأى ، ورِضاً منك بذلك ، وأيْمُ الله لا تَسْبِقنى به ولو كان بين جِلدك ولحمك ، وإن نِلْتُ بعضَك غيرَ رفيقٍ بك ، ولا مُرْعٍ عليك ، فإنَّ أحبَّ لحم علىّ أنْ آكُلَه لَلَّحْمُ الذى أنت منه ، فسلِّمْه بجَرِيرته[2] إلى من هو أولى به منك ، فإن عفوتُ عنه لم أكن شفَّعْتُك فيه ، وإن قتلتُه لم أقتله إلا لحبِّهِ أباكَ الفاسِق ، والسلام[3] » .

٣٣ — رد الحسن على زياد

فلما ورد الكتاب على الحسن عليه السلام قرأه وتبسم ، وكتب بذلك إلى معاويه ، وجعل كتاب زياد عِطْفَه[4] ، وبعث به إلى الشأم ، وكتب جواب كتابه كلمتين لا ثالثة لهما :

---

(١) السوقة : الرعية ، للواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، وربما جمع على سوق بفتح الواو .

(٢) الجريرة : الذنب .

(٣) وفى رواية أخرى : « أما بعد فإنك كتبت إلىّ فى فاسق لا تؤويه إلا الفساق من شيعتك وشيعة أبيك ، وايم الله لأطلبنه ولو بين جلدك ولحمك فإن أحب أن آكل لحما أنت منه » .

(٤) أى جانبه ، وعطفا كل شىء جانباه .

« من الحسن بن فاطمة إلى زياد بن سُمَيَّة ، أما بعدُ : فإن رَسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الولد للفِراشِ ، وللعاهِرِ الحَجَرُ[١] » ، والسلام » .

٣٤ — كتاب معاوية إلى زياد

فلما قرأ معاوية كتاب زياد إلى الحسن ضاقت به الشام ، وكتب إلى زياد :

« أما بعدُ ، فإن الحسن بن عليّ بعث إلىّ بكتابك إليه ، جوابًا عن كتاب كتبه إليك فى ابن أبى سَرْح ، فأكثرتُ العَجَبَ منك ، وعلمت أنّ لك رأيين ، أحدهما من أبى سفيان ، والآخر من سُمَيَّة ، فأما الَّذى من أبى سفيان فحِلْم وحَزْمٌ ، وأما الذى من سمية فما يكون من رأى مِثلِها ، من ذلك كتابك إلى الحسن تَشْتُمُ أباه وتَعْرِض له بالفسق ، ولعمرى إنك لَأَوْلى بالفِسق من أبيه ، فأمّا أن الحسن بدأ بنفسه ارتفاعًا عليك ، فإن ذلك

---

(١) العاهر : الزانى . والمعنى أن الزانى لاحق له فى النسب ولا حظ له فى الولد ، وإنما هو لصاحب الفراش أى لصاحب أم الولد وهو زوجها أو مولاها ، وهو كقوله الآخر : له التراب أى لا شىء له ، أراد الحسن عليه السلام بذلك أن يبين لزياد أن استلحاق معاوية إياه مخالف لما تقضى به الشريعة ، وأنه يجب أن يدعى لعبيد لا لأبى سفيان .

وقد حدث أنه لما شهد الشهود بحضرة معاوية أن زيادا نسب إلى أبى سفيان ، قام يونس بن عبيد الثقفى فقال : يامعاوية قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الولد للفراش وللعاهر الحجر ، وقضيت أنت أن الولد للعاهر ، وأن الحجر للفراش ، مخالفة لكتاب الله تعالى وانصرافا عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بشهادة أبى مريم على زنا أبى سفيان ، فقال معاوية : والله يايونس لتنتهين أو لأطيرن بك طيرة بطيئا وقوعها ، فقال يونس : هل إلا إلى الله ثم أقع ؟ قال : نعم وأستغفر الله فقال عبد الرحمن بن أم الحكم فى ذلك — ويقال إنه ليزيد بن مفرغ الحميرى —

ألا أبلغ معاوية بن حرب مغلغلة عن الرجل اليمانى
أتغضب أن يقال أبوك عفّ وترضى أن يقال أبوك زانى !

(مروج الذهب ٢ : ٥٧)

لا يَضَعُكَ لو عَقَلتَ ، وأما تسلُّطه عليك بالأمر فحُقٌّ لِمِثْلِ الحسن أن يتسلَّط ، وأمّا تركُكَ تشفيعَه فيما شَفَعَ فيه إليك ، فحظٌّ دَفَعْتَه عن نفسك إلى من هو أَوْلَى به منك ، فإذا ورد عليك كتابي فَخَلِّ ما في يديك لسعيد ابن أبي سرح ، وابنِ له دارَه ، وارْدُد عليه ماله ، ولا تَعَرَّضْ له ، فقد كتبتُ إلى الحسن « عليه السلام » أن يُخَيّره : إن شاء أقام عنده ، وإن شاء رجع إلى بلده ، ولا سلطانَ لك عليه لا بيدٍ ولا لسان ، وأما كتابك إلى الحسن « عليه السلام » باسمه واسم أمه ، ولا تنسُبه إلى أبيه ، فإن الحسن وَيْحَكَ مَنْ لا يُرْمَى به الرَّجَوانِ[1] ، وإلى أيِّ أم وَكَلْتَه لا أُمَّ لك ؟ أَمَا علِمت أنها فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فذاك أفخر له لو كنتَ تعلمه وتعقله[2] ! »

وكتب في أسفل الكتاب شعراً مِن جملته :

أَمَا حَسَنٌ فابنُ الذي كان قبلَه ... إذا سار سار الموتُ حيث يسير

وهل يَلِدُ الرِّيبالُ إلا نظيرَه ... وذا حَسَنٌ شِبْهٌ له ونظير[3]

ولكنه لو يُوزَن الحِلم والحِجا ... بأمرٍ لقالوا يَذبُلٌ وثَبِيرُ[4]

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٧٢ ، وص ٧ ، والعقد الفريد ٣ : ٥)

---

(١) الرجوان : مثنى رجا كعصا وهو ناحية البئر من أعلاها إلى أسفلها ، ورمى به الرجوان : استهين به واستهزئ كأنه رمى به رجوا بئر ، أرادوا أنه طرح في المهالك .

(٢) وفي رواية أخرى : « أما بعد : فإن لك رأيين أحدهما من أبي سفيان والآخر من سمية ، فأما الذي من أبي سفيان فحزم وعزم ، وأما الذي من سمية فكما يكون رأي مثلها ، وإن الحسن بن علي كتب إليّ يذكر أنك عرضت لرجل من أصحابه ، وقد حجرناه عليك ونظرائه ، فليس لك على واحد منهم سبيل ولا عليه حكم ، وعجبت منك حين كتبت إلى الحسن لا تنسبه إلى أبيه ، أفإلى أمه وكلته لا أم لك ، وهو ابن فاطمة الزهراء ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالآن حين اخترت له » .

(٣) الرئبال : الأسد وقد لا يهمز . (٤) يذبل : جبل ببلاد نجد . وثبير : جبل بمكة .

٣٥ — كتاب زياد إلى معاوية

وقال زياد : ما غَلَبنى أمير المؤمنين معاويةُ فى شىء من السياسة إلا مرة واحدة : استعملتُ رجلا فكَسَر خَرَاجَه فخشِى أن أعاقبَه، ففرّ إليه واستجار به فأمَّنه ، فكتبتُ إليه : « إن هـــذا فساد لعملى إذا طلبتُ أحدا لجأ إليك فتحرَّم بك[1] » .

٣٦ — رد معاوية عليه

فكتب إلىّ: «إنه لا ينبغى لنا أن نسوس الناس بسياسة واحدة ،فيكون مَقامُنا مَقامَ رجل واحد ، لا نَلِنْ جميعاً فيَمْرَحَ الناسُ فى المعصية ، ولا نشتدَّ جميعاً ، فنَحمِلَ الناس على المَهالك ، ولكن تكون أنت للشدة والغلظة ، وأكون أنا للرأفة والرحمة ، فيستريح الناس فيما بيننا » .

(العقد الفريد ١ : ١٥ ، ٣ : ٥)

٣٧ — كتاب معاوية إلى زياد

وكتب معاوية إلى زياد : « أما بعد فاعْزل حُرَيْثَ بن جابر عن العمل، فإنى لا أذكر مَقاماتِه بصِفِّينَ إلا كانت حَزَازةً فى صدرى » .

---

(١) وفى رواية أخرى : « إن هذا أدب سوء لمن قبلى » .

٣٨ — رد زياد عليه

فكتب إليه زياد : « أما بعدُ : خفِّض عليك : يا أمير المؤمنين ، فإن حرينا قد سَبَق شرفا ، لا يَرْفعه معه عمل ، ولا يَضَعه معه عَزْل » .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ : ص ٧٤)

٣٩ — كتاب زياد إلى الحكم بن عمرو الغفارى

ولما ولى زياد البصرة استعمل الحكم بن عمرو الغِفَارى على خُراسان (سنة ٤٥ هـ) ثم كتب إليه (سنة ٥٠ هـ) « إن أهل جبل الأَشَلِّ[1] سلاحُهم اللُّبود[2] ، وآنِيَتهم الذهب » فغزاهم وغَنِم منهم غنيمة عظيمة ، وورد على زياد الخبرُ بما غنِم ، فكتب إليه :

« إن أمير المؤمنين كتب إلىّ أن أَصْطفِيَ له كلّ صفراء وبيضاء والرَّوَائعَ[3] ، فلا تحركَنَّ شيئا حتى تُخْرِج ذلك »[4] .

٤٠ — رد الحكم عليه

فكتب إليه الحكم : « أما بعدُ فإن كتابك ورد ، تذكر أن أمير المؤمنين كتب إلىّ أن أصطفى له كل صفراء وبيضاء والروائع ، ولا تحركَنّ

---

(١) جبل في ثغور خراسان .
(٢) هكذا في الأصل ولعله « لباسهم اللبود » واللبود جمع لبد كحمل وهو الصوف يلبد بعضه على بعض
(٣) الصفراء الذهب. والبيضاء : الفضة ، والروائع : النفائس التي تروع الناظرين بجمالها وحسنها
(٤) وفي رواية العقد « فلا تقسم بين الناس ذهباً ولا فضة » .

شيئاً ، وإنى وجدت كتاب الله عزّ وجل قبل كتاب أمير المؤمنين[1] ، وإنه والله لو كانت السموات والأرض رَتْقا[2] على عبد اتقى الله عزّ وجل جعل الله سبحانه وتعالى له منها مَخْرَجا » .

وقال للناس اغْدُوا على غنائمكم ، فغدا الناس ـ وقد عزل الخُمْس ـ فقسم بينهم تلك الغنائم .

٤١ — رد زياد عليه

فكتب إليه زياد : « والله لئن بقيتُ لك لأقطعَنّ منك طابقا[3] سَحْتا » فقال الحكم : اللهم إن كان لى عندك خير فاقبِضْنى ، فمات بخراسان بمَرْو سنة ٥٠ هـ .

(تاريخ الطبرى ٦ . ١٤١ ، والعقد الفريد ١ : ١٩)

٤٢ — كتاب المغيرة بن شعبة إلى معاوية

وكتب المُغيرة بن شُعْبة إلى معاوية حين كبِر وخاف أن يستبدِلَ به ـ وكان عامله على الكوفة ـ :

---

(١) يشير إلى قوله تعالى . « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ » .

(٢) الرتق ضد الفتق ، رتقت الفتق : سددته .

(٣) الطابق بفتح الباء وكسرها العضو . والسحت : العذاب والاستئصال ، سحت الشحم عن اللحم : قشره عنه ، وسحتهم : بالغ مجهودهم فى المشقة عليهم وأسحتهم لغة ، وسحته وأسحته : استأصله ، وقرئ قوله تعالى « فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ » بضم الياء من الإسحات وهو لغة نجد وتميم ، وبفتح الياء والحاء من السحت ، وهو لغة الحجاز : أى يهلككم ويستأصلكم .

«أما بعدُ : فقد كبرت سِنِّي[1]، ورَقَّ عظمى ، واقترب أجلى ، وسَفَّهنى سُفَهَاءُ قريش ، فرَأْيُ أمير المؤمنين فى عَمَله مُوَفَّقا » .

(العقد الفريد ، ٢٦ ، وصبح الأعشى ٦ . ٤٧٨)

٤٣ — رد معاوية عليه

فكتب إليه معاوية :

« أمَّا ما ذكرتَ من كِبَرِ سِنِّك فأنت أكلْتَ شبَابَك ، وأما ماذكرت من اقتراب أجَلِك ، فإنى لو أستطيع دَفْعَ المَنِيَّة لَدَفَعْتُها عن آل أبى سُفيان ، وأماماذكرت من سُفهاء قريش فحُكماؤها أَحَلُّوكَ ذلك المَحَلّ، وأما ماذكرت من العمل : فَضَحِّ رُوَيْدًا يدركْ الهَيْجَا حَمَل »[2] . (العقد الفريد ١ : ٢٦)

---

(١) عاش سبعين سنة ، وتوفى سنة خمسين هجرية . وقيل سنة ٥١ وقيل سنة ٤٩ .

(٢) هو مثل ، معناه لا تعجل فى الأمر وتأنَّ وارفق ، ضحى الإبل : غداها فى الضحى ، وضحت هى : أى أكلت فى الضحى . وأصله أن العرب كانوا يسيرون فى البادية يوم ظعنهم ، فإذا مروا ببقعة من الأرض فيها كلأ وعشب ، قال قائلهم : ألا ضحوا رويدا : أى ارفقوا بالإبل حتى تتضحى : أى تنال من هذا المرعى ، ثم وضعت التضحية مكان الرفق ، لتصل الإبل إلى المنزل ، وقد شبعت . والهيجا بالقصر والمد . الحرب ، وحمل : هو حمل بن سعدانة الصحابى ، وقد قدمنا فى الجزء الأول ص ٤٥٥ كلمة مطولة فى هذا المثل ، فارجع إليها .

قال صاحب العقد . فلما انتهى الكتاب إلى المغيرة كتب إليه يستأذنه فى القدوم عليه فأذن له ، فلما دخل عليه قال له : يامغيرة ، كبرت سنك ، ورق عظمك ، ولم يبق منك شىء ، وما أراني إلا مستبدلا بك ، قال المحدث عنه : فانصرف إلينا ، ونحن نرى الكآبة فى وجهه ، فأخبرنا بما كان من أمره ، قلنا له : فما تريد أن تصنع ؟ قال : ستعلمون ذلك ، فأتى معاوية فقال له : يا أمير المؤمنين إن الأنفس ليغدى عليها ويراح ، ولست فى زمن أبى بكر وعمر ، فلو نصبت لنا علما من بعدك نصير إليه ؟ فإنى قد دعوت أهل العراق إلى بيعة يزيد ، فقال : يا أبا محمد ، انصرف إلى عملك ورم هذا الأمر لابن أخيك ، فأقبلنا نركض على البريد ، فالتفت وقال : والله لقد وضعت رجله فى ركاب طويل الغى على أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

٤٤ — بين معاوية والمغيرة بن شعبة

وكتب معاوية إلى المغيرة بن شعبة أن «أكتب إلىّ بشىء سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم»:

فكتب إليه : « سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إن الله كَرِهَ لكم ثلاثاً : قِيل وقال ، وإضاعةَ المال ، وكثرة السؤال » .

(صحيح البخارى ١ : ١٧٧)

٤٥ — كتاب المستورد بن علفة الخارجى إلى سماك بن عبيد

واجتمعت الخوارج بالكوفة ـ إبَّانَ وِلاية المُغِيرة بن شُعْبة عليها ـ وولَّوا عليهم المُسْتَوْرِد بن عُلَّفَة التَّيْمِي وبايعوه ، واتّعدوا أن يخرجوا هلال شعبان سنة ٤٣ هـ ، ونَمَى إلى المغيرة أنهم خارجون عليه ، فحذّر أهل الكوفة إيواءهم ونُصرتهم ، فخرجوا منها ، فوجّه فى أثرهم مَعْقِل بن قيس الرِّياحى :

وسارت الخوارج حتى بلغوا المدائن ، وكان سماك بن عُبَيْد العَبْسيّ عاملاً للمغيرة عليها ، فكتب إليه المستورد :

« من عبد الله المستورد أمير المؤمنين إلى سِماك بن عُبَيد :

أما بعدُ : فقد نَقَمنا على قومنا الجَوْرَ فى الأحكام ، وتعطيلَ الحدود ، والاستئثارَ بالفَىْء ، وإنا ندعوك إلى كتاب الله عز وجل ، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وولايةِ أبى بكر وعمر رضوان الله عليهما ، والبراءة من عثمان

وعلىّ ، لأحداثهما فى الدين ، وتركهما حكمَ الكتاب، فإن تقبَلْ فقد أدركتَ رُشْدَكَ ، وإلا تقبلْ فقد أبْلَغْنا فى الإعذار إليك ، وقد آذَنّاكَ بحَرْب فنَبَذْنا إليك على سَوَاء[1] ، إن الله لا يحب الخائنين » .

وتبِعهم معقل حتى لَحِقهم بالمَذار[2] ، ودارت بينهما رحى الحرب بشدة ، ودعا المستورد مَعْقِلا للمبارزة ، وطعنه المستورد حتى خرج سنان الرمح من ظهره ، وضربه معقل بالسيف حتى خالط سيفه أمَّ الدماغ ، فوقع ميتاً وقتل معقل ، وشدّ أصحابه على الخوارج ، فما لبثّوهم أن قتلوهم .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٠٩)

٤٦ — كتاب حبيب بن مسلمة إلى أهل تفليس

روى الطبرى قال :

« وَكَفَرَ أهل إِرْمِينِيَة زمان معاوية[3] ، وقد أمَّرَ حَبِيب بن مَسْلَمَة على الباب ، وحبيب يومئذ بجُرْزَان[4] . وكاتب أهل تَفلِيس وتلك الجبال ، ثم ناجزهم حتى استجابوا ، واعتقدوا من حبيب ، وكتب بينه وبينهم كتابًا بعد ما كَاتَبهم .

---

(١) اقتباس من قوله تعالى « فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللّٰهَ لاَ يُحِبُّ الْخَائِنِينَ » ومعناه إذا هادنت قوما فعلمت منهم النقض للعهد ، فلا توقع بهم سابقا إلى النقض حتى تلقى إليهم أنك قد نقضت العهد ، فيكونوا فى علم النقض مستوين ثم أوقع بهم .

(٢) بلد فى ميسان بين واسط والبصرة .

(٣) أى نقضوا الأمان الذى كان كتبه لهم سراقة بن عمرو فى خلافة عمر بن الخطاب (انظر جمهرة رسائل العرب ج ١ : ص ٢٧٩) .

(٤) اسم لناحية بأرمينية ، وكانت قصبتها تفليس .

وكان كتابه إليهم :

« بسم اللّٰه الرحمن الرحيم ، من حبيب بن مَسْلَمَة إلى أهل تِفليس من جُرْزان أرض الهُرْمز ، سِلْم أنتم ، فإنى أَحمَد إليكم اللّٰهَ الذى لا إله إلا هو ، فإنه قد قَدِم علينا رسولكم « تفلى » فبلَّغ عنكم وأدّى الذى بعثتم ، وذكر « تفلى » عنكم أنا لم نكن أمة فيما تحسبون ، وكذلك كُنّا حتى هدانا اللّٰه عز وجل بمحمد صلى اللّٰه عليه وسلم ، وأعزّنا بالإسلام بعد قِلة وذِلّة وجاهلية[1] ، وذكر « تفلى » أنكم أحببتم سِلْمنا ، فما كَرِهتُ والذين آمنوا معى ، وقد بعثتُ إليكم عبد الرحمن بن جَزْء السُّلَمىّ ، وهو من أَعْلَمِنا ، من أهل العلم باللّٰه ، وأهل القرآن ، وبعثتُ معه بكتابى بأمانكم ، فإن رضيتم دفَعَه إليكم ، وإن كَرِهتم آذَنكم بحرب على سَواء إن اللّٰه لا يحب الخائنين » .

(تاريخ الطبرى ٤ : ٢٦)

٤٧ — عهد حبيب بن مسلمة لأهل تفليس

« بسم اللّٰه الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لأهل تِفليس من جُرْزان أرض الهُرْمز بالأمان على أنفسكم وأموالكم وصَوامِعِكم وبِيَعكم[2] وصلواتكم ، على الإقرار بصَغار الجِزْية ، على كل أهل بيت دينارٌ وافٍ ، ولنا نُصْحُكم ونصرُكم على عدو اللّٰه وعدونا ، وقِرَى[3] المجتاز ليلةً

(١) الجاهلية هى الحال التى كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل باللّٰه سبحانه ورسوله وشرائع الدين والمفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر ، وغير ذلك .

(٢) الصومعة : معبد النصارى ، وكذا البيعة بالكسر ، والصغار : الذل .

(٣) القرى : مايقدم للضيف .

من حَلالِ طعام أهل الكتاب ، وحلال شرابهم ، وهداية الطريق فى غير ما يُضَرُّ فيه بأحد منكم ، فإن أسلمتم ، وأقمتم الصلاة ، وآتيتم الزكاة ، فإخواننا فى الدين ومَوالِينا[1] ، ومن تولَّى عن الله ورسله وكتبه وحِزبه فقد آذَنَّا كم بحَرْب على سَوَاءٍ ، إن الله لا يحب الخائنين » .

شهد عبد الرحمن بن خالد والحجاج وعِياض ، وكتب رَبَاح ، وأشهد الله وملائكته والذين آمنوا ، وكَفَى بالله شهيداً[2] » . (تاريخ الطبرى ٤ : ٢٦٠)

٤٨ — كتاب زياد إلى معاوية فى شأن حجر بن عدى

ولما مات المغيرة بن شُعبة والى الكوفة سنة ٥٠ هـ وكان زياد على البصرة، ضم معاوية الكوفة إلى زياد ، وكان من كبراء الشيعة بها حُجْر بن عَدِىٍّ الكِنْدى ، فبلغ زياداً أن حجراً يجتمع إليه الشيعة ويظهرون لعن معاوية والبراءة منه ، فكتب إلى معاوية فى أمره وكثر عليه ، فكتب إليه معاوية أنْ شُدَّه فى الحديد ثم احمله إلىّ ، فشده فى الحديد وحمله هو ورءوس أصحابه إلى معاوية ، وكانوا أربعة عشر رجلا ، وكتب إليه كتابا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : لعبد الله معاوية أمير المؤمنين من زياد ابن أبى سفيان : أما بعدُ : فإن الله قد أحسن عند أمير المؤمنين البَلاءَ[3] ، فكاد له عدوَّه ، وكفاه مؤنةَ مَن بَغَى عليه ، إن طَوَاغِيتَ[4] من هذه التُّرابية

---

(١) أى أصحابنا وحلفاؤنا . (٢) انظر ما قدمناه فى الجزء الأول من هامش ص ٢٠٣ .

(٣) البلاء : الإنعام (والبلاء يكون منحة ويكون محنة) .

(٤) طواغيت : جمع طاغوت، وهو الشيطان ، وكل رأس ضلال . والترابية : الشيعة ، نسبة إلى أبى تراب كنية الإمام على كرم الله وجهه ، كناه بها رسول الله صلى الله عليه وسلم . حدث عمار بن

. . . .

ياسر قال : كنت أنا وعلى رفيقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة العشيرة (كجهينة ، وهى من ناحية ينبع بين مكة والمدينة وكانت الغزوة سنه ٢ هـ) فنزلنا منزلا فرأينا رجالا من بنى مدلج يعملون فى نخل لهم ، فانطلقنا فنظرنا إليهم ساعة ، ثم غشينا النعاس ، فعمدنا إلى صور من النخل (الصور بالفتح : النخل المجتمع) فنمنا تحته فى دقعاء من التراب ، فما أيقظنا إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتانا وقد تتربنا فى ذلك التراب فجلس عند رأس على وأيقظه وجعل يمسح التراب عن ظهره ويقول : قم ياأبا تراب فكانت من أحب كناه إليه ، وكان يفرح إذا دعى بها ، ودعت بنو أمية خطباءها أن يسبوه بها على المنابر وجعلوها نقيصة له ووصمة عليه (انظر تاريخ الطبرى ٢ : ٢٦١ وسيرة ابن هشام ١ : ٣٦٥ وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤) والسبئية : فرقة من غلاة الشيعة نسبة إلى عبد الله بن سبأ وهو يهودى من أهل صنعاء أمه سوداء ، أسلم زمن عثمان — على دخل — ثم جعل يتنقل فى بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم ، وهو رأس الغلاة من الشيعة ، ومنه انبعثت أصنافها وهو الذى وضع للمسلمين مبدأ الرجعة فكان يقول : لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ، ويكذب بأن محمدا يرجع ، وقد قال الله عز وجل : « إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ » فمحمد أحق بالرجوع من عيسى ، ثم قال لهم بعد ذلك : إنه كان ألف نبىّ ، ولكل نبى وصى ، وكان علىّ وصى محمد ، ثم قال : محمد خاتم الأنبياء وعلىّ خاتم الأوصياء ، ثم قال : من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ووثب على وصى رسول الله وتناول أمر الأمة ، ثم قال لهم : إن عثمان أخذها بغير حق ، وهذا وصى رسول الله فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه . . . . . .

وقد غلا فى علىّ فزعم أنه نبى ، ثم غلا فيه حتى زعم أنه إله ، ودعا إلى ذلك قوما من غواة الكوفة ، وقد أتى قوم منهم إلى على ، فقالوا له مشافهة : أنت هو ، فقال لهم : ومن هو ؟ قالوا : أنت الله أنت خالقنا ورازقنا ، فاستتابهم وتوعدهم ، فأقاموا على قولهم ، فاستعظم الأمر وأمر بنار فأججت فى حفرتين ودخن عليهم فيها طمعا فى رجوعهم فأبوا فحرقهم بالنار حتى قال بعض الشعراء فى ذلك :

لترم بى الحوادث حيث شاءت   إذا لم ترم بى فى الحفرتين

فجعلوا يقولون وهم يرمون فى النار : الآن صح عندنا أنه الله ، لأنه لا يعذب بالنار إلا الله ، وفى ذلك يقول رضى الله عنه :

لما رأيت الأمر أمرا منكرا   أججت نارا ودعوت قنبرا

« يريد قنبرا مولاه ، وهو الذى تولى طرحهم فى النار » .

ثم إن عليا خاف من إحراق الباقين منهم شماتة أهل الشأم وخاف اختلاف أصحابه عليه ، وشفع جماعة من أصحابه منهم عبد الله بن عباس فى عبد الله بن سبأ خاصة ، وكان على قد همّ بقتله ، وقالوا : يا أمير المؤمنين إنه قد تاب فاعف عنه وأطلقه بعد أن اشترط عليه أن لا يقيم بالكوفه ونفاه إلى المدائن ، فلما قتل على عليه السلام وبلغ ابن سبأ قتله ، قال : لو أتيتمونا بدماغه سبعين مرة ماصدقنا موته ، وزعم أن المقتول لم يكن عليا ، وإنما كان شيطانا تصور للناس فى صورة على ، وأن عليا صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى بن مريم ، وزعموا أنه حى فى السحاب ، فإذا أظلهم سحابة قالوا : السلام عليك يا أمير

السَّبَئِيَّة ، رَأْسُهم حُجْرِبن عَدِىّ خالفوا أمير المؤمنين . وفارقوا جماعة المسلمين، ونَصَبوا لنا الحرب ، فأظهرَنا الله عليهم وأمكننَا منهم ، وقد دعوتُ خيارَ أهل المِصْر وأشرافهم وذوى السِّنِّ والدين منهم ، فشَهِدوا عليهم بما رأَوا وعملوا ، وقد بعثت بهم إلى أمير المؤمنين ، وكتبت شهادة صُلَحاء أهل المصر وخيارهم فى أسفل كتابى هذا » .

وكانت الشهادة عليهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم : هذا ما شَهِد عليه أبو بُرْدَة بن أبى موسى الأشعرى لله رب العالمين : شهد أن حُجْر بن عدى خَلَع الطاعة ، وفارق الجماعة ، ولَعَن الخليفة ، ودعا إلى الحرب والفتنة ، وجمع إليه الجموع يدعوهم إلى نَكْث البيعة ، وخلع أمير المؤمنين معاوية ، وكفر بالله عزّ وجل كفرة صَلْعاء[1] » .

وشهد رءوس الأرباع[2] ووجوه من أهل الكوفة على مثل شهادة أبى بردة ، فأمر معاوية بالقوم فحبسوا . (تاريخ الطبرى ٦ : ص ١٥٠ وص ١٥٢)

الحسن ، وزعموا أن الرعد صوته والبرق سوطه ، وأنه سينزل بعد ذلك إلى الأرض فيملؤها عدلا كما ملئت جورا .

(انظر تاريخ الطبرى ٥ : ٩٨ والفرق بين الفرق ص ٢٢٣ والملل والنحل للشهرستانى ٢ ، ١٢ والفصل لابن حزم ٤ : ١٣٨ و ١٤٢ وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٢٥) .

وقد أراد زياد من وصف الشيعة بالسبئية أن يتنقصهم ويزرى بهم ، لما عرف عن السبئية من المعتقدات الفاسدة والمبادئ الباطلة .

(١) أى مكشوفة بارزة ، أخذا من الأرض الصلعاء : وهى التى لا نبات فيها . والرأس الأصلع : الذى انحسر شعر مقدمه . والصلعاء أيضا الداهية والأمر الشديد ، ومن كلامهم « ركبت الصليعاء » والصليعاء كحميراء : السوءة الشنيعة البارزة المكشوفة ، أو الداهية الشديدة.

(٢) وكانت الكوفة يومئذ مقسمة أرباعا ، ورءوس الأرباع عمرو بن حريث على ربع أهل المدينة ، وخالد بن عرفطة على ربع تميم وهمدان ، وقيس بن الوليد بن عبد شمس بن المغيرة على ربع ربيعة وكندة ، وأبو بردة بن أبى موسى على مذحج وأسد .

٤٩ — كتاب شريح بن هانئ إلى معاوية

وكان زياد قد كتب فى الشهود شُرَيح بن هانئ الحارثى ، فكتب شريح إلى معاوية كتابا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبدالله معاوية أمير المؤمنين من شريح ابن هانئ ، أما بعدُ : فإنه بلغنى أن زياداً كتب إليك بشهادتى على حُجْر بن عدى ، وإن شهادتى على حجر أنه ممن يُقيم الصلاة ، ويُؤْتِى الزكاة ، ويُديم الحج والعُمْرة ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، حَرَامُ الدَّمِ والمال ، فإن شئتَ فاقتله ، وإن شئت فَدَعْه » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٥٢ ، والأغانى ١٦ : ٨)

٥٠ كتاب معاوية إلى زياد

فكتب معاوية إلى زياد :

« أما بعد ، فقد فهمت مااقتصصت به فى أمر حجر وأصحابه ، وشهادة من قِبَلك عليهم ، فنظرت فى ذلك : فأحيانا أَرَى قتلَهم أفضل من تركهم ، وأحيانا أرى العفو عنهم أفضل من قتلهم ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٥٣)

٥١ — رد زياد على معاوية

فكتب إليه زياد :

« أما بعد : فقد قرأت كتابك وفهمت رأيك فى حجر وأصحابه ، فعَجِبتُ لاشتباه الأمر عليك فيهم ، وقد شَهِد عليهم بما قد سمعتَ مَن هو أعلم بهم ، فإن كانت لك حاجةٌ فى هذا المصر فلا تَرُدَّنَّ حجراً وأصحابه إلىّ » .

وشُفع فى ستة من أصحاب حجر فخلى معاوية سبيلهم ، وأوفد إلى حجر وسائر أصحابه رسولاً ، فقال لهم الرسول : إنا قد أُمرنا أن نَعْرِض عليكم البراءة من علىّ واللعن له ، فإن فعلتم تركناكم ، وإن أبيتم قتلناكم ، فأبرءوا من هذا الرجل نُخَلِّ سبيلكم ، فأبَوا وقالوا : بل نتولاه ، ونتبرأ ممن تبرأ منه ، فأقبل أصحاب معاوية يقتلونهم واحدا واحدا حتى قتلوا ستة (منهم حجر) .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٥٣)

٥٢ — كتاب معاوية إلى زياد

وبقى من أصحاب حُجْر اثنان : هما عبد الرحمن بن حَسَّان العَنَزِىّ وكَرِيم ابن عَفِيف الخَثْعَمِىّ ، فقالا : ابعثوا بنا إلى أمير المؤمنين فنحن نقول فى هذا الرجل مثل مقالته : فلما دخلا على معاوية قال للخثعمى : ما تقول فى على ؟ قال : أقول فيه قولك ، قال : أتبرأ من دين علىّ الذى كان يَدِينُ الله به ؟ فسكت وكره معاوية أن يجيبه وشُفع فيه فخلى سبيله .

ثم أقبل على عبد الرحمن الْعَنَزِىّ ، فسأله فلم يَرُقه جوابه[1] ، فبعث به إلى زياد ، وكتب إليه .

أما بعد : فإن هذا العَنَزِىّ شرُّ مَن بعثتَ ، فعاقِبه عُقوبته التى هو أهلها ، واقتله شرَّ قِتْلَةٍ » .

فبعث به زياد إلى قُسِّ الناطف[2] ، فدفن به حيا ، وكان ذلك سنة ٥١ هـ

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٥٥ ، والأغانى ١٦ : ١٠)

٥٣ — كتاب معاوية إلى زياد

وأوفد زيادٌ ابنه عُبيدَالله إلى معاوية ، فكتب إليه معاوية :

« إن ابنك كما وصفتَ ، ولكن قوِّمْ من لسانه[3] » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٠٩)

---

(١) قال له معاوية : إيه ياأبا ربيعة ، ماقولك فى على ؟ قال : دعنى ولا تسألنى فإنه خير لك ، قال : والله لا أدعك حتى تخبرنى عنه ، قال : أشهد أنه كان من الذاكرين الله كثيرا ، ومن الآمرين بالحق ، والقائمين بالقسط ، والعافين عن الناس ، قال : فما قولك فى عثمان ؟ قال : هو أول من فتح باب الظلم وأرتج أبواب الحق ، قال : قتلت نفسك ، قال : بل إياك قتلت ، ولا ربيعة بالوادى (يريد أنه ليس له أحد من قومه يكلمه فيه كما شفع فى الخثعمى) .

(٢) موضع قرب من الكوفة على شاطىء الفرات الشرقى .

(٣) قال الجاحظ : وكانت فى عبيد الله لكنة ، لأنه نشأ بالأساورة مع أمه مرجانة (والأساورة : قوم من العجم نزلوا بالبصرة كالأحامرة بالكوفة) وكان زياد زوجها من شيرويه الأسوارى ، وكان قال مرة : « افتحوا سيوفكم » يريد « سلوا سيوفكم » فقال يزيد بن مفرغ :

ويوم فتحت سيفك من بعيد   أضعت وكل أمرك للضياع

وقال لسويد بن منجوف : « اجلس على است الأرض » فقال سويد : « ما كنت أحسب أن للأرض استا » .

وقال المبرد : وكان عبيد الله ألكن يرتضخ لغة فارسية ، وقال لرجل مرة واتهمه برأى الخوارج : أهرورى منذ اليوم ! (يريد أحرورىّ ، وكانت الخوارج تسمى الحرورية) ــ الكامل للمبرد ٢ : ١٦٥ ــ .

٥٤ — كتاب زياد إلى معاوية

وكتب زياد إلى معاوية :

« إنى قد ضَبَطْتُ لك العراق بيمينى ، وبقِيت شِمالى[1] فارغة » يُعَرِّض له بالحجاز .

فبلغ ذلك عبد الله بن عمر بن الخطاب ، فرفع يده إلى السماء وقال : اللهم اكفِنا شِمال زياد ، فخرجت فى شماله قرْحَة فقتلته ، وكانت وفاته سنة ٥٣ هـ .

(العقد الفريد ١ : ٢٦ ، ٣ : ٥ ، وتاريخ الطبرى ٦ : ١٦٢ ، ومروج الذهب ٢ : ٦٨)

٥٥ — كتاب السيدة عائشة إلى معاوية

وكتبت السيدة عائشة رضى الله عنها إلى معاوية :

« أما بعد : فإنه من يعمل بِمَسَاخِطِ الله يصيِّرْ حامِدَه من الناس ذامًّا له والسلام » . (العقد الفريد ١ : ٢٠)

وفى رواية البيان والتبيين :

كتب معاوية إلى عائشة أن اكتبى إلىّ بشىء سمعته من أبى القاسم صلى الله تعالى عليه وسلم ، فكتبت إليه : « سمعت أبا القاسم صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : « من عمل بما يُسْخِط الله عاد حامِدُه من الناس له ذامًّا » .

(البيان والتبيين ٢ : ١٦١)

---

(١) ورواية الطبرى « قد ضبطت لك العراق بشمالى ويمينى فارغة فاشغلها بالحجاز » .

٥٦ — كتاب عبد الله بن الزبير إلى معاوية

وكان لعبد الله بن الزبير أرض قريبة لأرضٍ لمعاوية ، فيها عَبيد له من الزَّنوج يَعْمُرونها ، فدخلوا فى أرض عبدالله ، فكتب إلى معاوية :

« أمّا بعد ، فإنه يامعاوية إن لم تمنع عبيدك من الدخول فى أرضى ، وإلاّ كان لى ولك شأن » .

٥٧ — رد معاوية على ابن الزبير

فلما وقف معاوية على الكتاب دفعه إلى ابنه يزيد ، فلما قرأه قال له : ما ترى ؟ قال : أرى أن تُنفِذ إليه جيشاً أوّلُه عنده وآخِرُه عندك يأتونك برأسه ، فقال : يابنى ، عندى خيرمن ذلك ، علىّ بدواة وقِرْطاس ، وكتب :

« وقفتُ على كتابك يابْنَ حَوارِىِّ رسولِ اللّه صلى الله عليه وسلم ، وساءنى والله ما ساءك ، والدنيا هيِّنة عندى فى جَنب رضاك ، وقد كتبت على نفسى رَقْماً[1] بالأرض والعَبد ، وأشهدتُ علىّ فيه ، ولْتُضَفِ الأرض إلى أرضك ، والعبيد إلى عبيدك ، والسلام » .

٥٨ — رد ابن الزبير على معاوية

فلما وقف عبد الله على كتاب معاوية كتب إليه :

« وقفت على كتاب أمير المؤمنين ــ أطال الله بقاءه ــ فلا عَدِمَ الرأىَ الذى أحلّه من قريش هذا المحلّ والسلام » :

---

(١) الرقم : الكتاب والختم ، وهو هنا فعل بمعنى مفعول أى كتابا مرقوما أى مكتوبا ، وربما كان الأصل « رقما » والرقيم : الكتاب : وهو فعيل بمعنى مفعول أيضا .

فلما وقف معاوية على كتاب عبد الله ، رماه إلى ابنه يزيد ، فلما قرأه أَسْفَرَ وجْهُهُ ، فقال : يا بنىّ ، إذا رُميتَ بهذا الداء ، فدَاوِه بهذا الدواء .

(ثمرات الأوراق ص ١١٧)

٥٩ — كتاب سعيد بن العاص إلى معاوية

وذكروا أن معاوية كان يُغْرى بين مَرْوان بن الحَكَم وسَعيد ابن العاص ، وكان قد عزل مروان بن الحكم عن المدينة وولى عليها سعيد ابن العاص (سنة ٤٩ هـ) .

وكتب إليه يأمره بقَبض أموال مروان كلِّها فيجعلها صافيةً ، ويقبض فَدَك[1] منه — وكان وهبها له — فراجَعه سعيد فى ذلك وقال : قَرَابته قريبة[2] ، فكتب إليه ثانية آمِرَه باصطفاء أموال مروان فأبى ، وأخذ سعيد الكتابين فوضعهما عند جارية ، ثم عزل عن المدينة سنة ٥٤ هـ ، ووليَها مَرْوانُ بن الحكم ، فكتب إليه معاوية يأمره بقبض أموال سعيد بالحجاز ، وأرسل مروان إليه بالكتاب مع ابنه عبد الملك ، يخبِّره أنه لو كان شيئاً غير كتاب أمير المؤمنين لتجافيتُ ، فدعا سعيد بالكتابين اللذين كتب بهما معاوية إليه فى أموال مروان يأمره فيهما بقبض أمواله ، فذهب بهما إلى مروان ، فقال : هو كان أوْصَلَ لنا مِنَّا له ، وكَفَّ عن قبض أموال سعيد ، وكتب سعيد إلى معاوية :

(١) فدك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان ، أفاءها الله على رسوله صلى الله عليه وسلم فى غزوة خيبر سنة ٧ هـ وسيأتى فصل مطول عنها بعد (فى شرح كتاب عمر بن عبد العزيز إلى ابن حزم)

(٢) فالثلاثة يلتقون فى جدهم أمية ، فهم : معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية ، ومروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية ، وسعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية .

« العجبُ مِمَّا صَنَع أميرُ المؤمنين بنا فى قَرابتنا أن يُضْغِن بعضَنا على بعض، فأميرُ المؤمنين فى حلمه ، وصبره على ما يكره من الأَخْبَثِين ، وعفوه ، وإدخاله القطيعةَ بيننا والشَّحناء ، وتَوَارُث الأولاد ذلك[1] ، فوالله لو لم نكن بنى أب واحد إلا لِمَا جَمَعنا الله عليه من نصر الخليفة المظلوم وباجتماع كلمتنا ، لكان حقا علينا أن نَرْعَى ذلك ، والذى أدركنا به خير » .

فكتب إليه يتنصَّل من ذلك وأنه عائد له إلى أحسن ما يعهده .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٦٥)

٦٠ — كتاب معاوية إلى مروان بن الحكم

وكتب معاوية إلى مَرْوان بن الحَكَم وهو والى المدينة :

أما بعدُ : فإن أمير المؤمنين أحَبَّ أن يَرُدَّ الأُلْفة ، ويَسُلّ السَّخِيمة[2] ، ويَصِلَ الرَّحِمَ ، فإذا وصل إليك كتابى فاخطُبْ إلى عبد الله بن جعفر ابنتَه أمَّ كُلثوم على يزيد ابن أمير المؤمنين ، وارغَبْ له فى الصَّداق[3] » .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٤١ ، ومعجم البلدان ٢ : ٢٤٨)

---

(١) خبر قوله « فأمير المؤمنين » محذوف ، أى غير محق فيما فعله بنا من ذلك .

(٢) السخيمة : الحقد والضغينة .

(٣) فوجه مروان إلى عبد الله بن جعفر فقرأ عليه كتاب معاوية وأعلمه بما فى رد الألفة من صلاح ذات البين واجتماع الدعوة ، فقال عبد الله : إن خالها الحسين بينبع ، وليس ممن يفتات عليه بأمر ، فأنظرنى إلى أن يقدم ، وكانت أمها زينب بنت على بن أبى طالب صلوات الله عليه ، فلما قدم الحسين ذكر ذلك له عبد الله بن جعفر ، فقام من عنده ، فدخل إلى الجارية فقال : يابنية إن ابن عمك القاسم ابن محمد بن جعفر بن أبى طالب أحق بك ، ولعلك ترغبين فى كثرة الصداق ، وقد نحلتك البغيبغات (انظر ص ٦٠٦ من الجزء الأول) فلما حضر القوم للإملاك تكلم مروان بن الحكم فذكر معاوية وما قصده من صلة الرحم وجمع الكلمة ، فتكلم الحسين فزوجها من القاسم ، فقال له مروان : أغدرا ياحسين ؟ فقال : أنت بدأت ، خطب أبو محمد الحسن بن على عليه السلام عائشة بنت عثمان بن عفان ، واجتمعنا لذلك ، فتكلمت أنت فزوجتها من عبد الله بن الزبير ، فقال مروان : ما كان ذلك ، فالتفت الحسين إلى محمد بن حاطب فقال : أنشدك الله أكان ذاك ؟ قال : اللهم نعم .

٦١ — كتاب سعيد بن العاص إلى معاوية

وذكروا أن معاوية كتب إلى سعيد بن العاص وهو على المدينة يأمره أن يدعو أهل المدينة إلى البيعة ليزيد ، ويكتب إليه بمن سارَع ممن لم يسارع ، فلما أتى سعيدَ بن العاص الكتابُ ، دعا الناس إلى البيعة ليزيد ، وأظهر الغِلْظة وأخذهم بالعزم والشدة ، وسطا بكل من أبطأ عن ذلك ، فأبطأ الناس عنها إلا اليسير ، لاسيما بنى هاشم ، فإنه لم يُجِبْه منهم أحد ، وكان ابن الزبير من أشد الناس إنكاراً لذلك ورَدًّا له ، فكتب سعيد ابن العاص إلى معاوية :

« أما بعدُ : فإنك أمرتنى أنْ أَدعوَ الناسَ لبَيْعة يزيد ابن أمير المؤمنين ، وأن أكتب إليك بمن سارع ممن أبطأ ، وإنى أُخْبرك أن الناس عن ذلك بِطَاء[1] ، لاسيما أهل البيت من بنى هاشم ، فإنه لم يُجِبْنى منهم أحد ، وبَلَغنى عنهم ما أكْرَه ، وأما الذى جاهر بعداوته وإبائِه لهذا الأمر فعبد الله ابن الزبير ، ولستُ أَقْوَى عليهم إلا بالخيل والرجال ، أو تَقْدَمَ بنفسك فترَى رأْيك فى هذا ، والسلام » . (الإمامة والسياسة ١ : ١٢٩)

٦٢ — رد معاوية على سعيد

فكتب معاوية إلى عبد الله بن عباس ، وإلى عبد الله بن الزبير ، وإلى عبد الله بن جعفر ، وإلى الحسين بن على رضى الله عنهم كُتُبا ، وأمر سعيد

---

(١) بطاء : جمع بطىء ، كطوال وقصار جمع طويل وقصير .

ابن العاص أن يوصِّلَها إليهم، ويَبْعث بجواباتها، وكتب إلى سعيد بن العاص:

« أما بعد: فقد أتانى كتابك، وفَهِمتُ ما ذَكرتَ فيه من إبطاء الناس عن البيعة، ولا سيما بنى هاشم، وما ذكر ابنُ الزبير، وقد كتبتُ إلى رؤسائهم كتباً، فسلِّمها إليهم، وتَنَجَّزْ جواباتِها، وابعث بها إلىَّ حتى أرى فى ذلك رأيى، ولتشتدَّ عزيمتك، ولْتصْلُبْ شَكيمتُك[1]، وتحسن نيَّتك، وعليك بالرفق، وإياك والْخُرْق[2]، فإن الرِّفق رَشَد، والخرق نَكَد، وانظر حُسَيْناً خاصَّةً فلا يناله منك مكروه، فإن له قرابةً وحقًّا عظيما لا يُنْكِره مسلم ولا مسلمة، وهو لَيْثُ عَرِينٍ، ولستُ آمَنُك إن شادَدْته[3] أن لا تَقوَى عليه، فأمّا مَن يَرِد مع السباع إذا وَرَدَتْ، ويَكْنِس إذا كَنَسَت[4]، فذلك عبد الله بن الزبير، فاحْذَره أشَدَّ الْحَذر، ولا قوة إلا بالله، وأنا قادم عليك إن شاء الله، والسلام » (الإمامة والسياسة ١ : ١٢٩)

٦٣ — كتاب معاوية إلى ابن عباس

وكتب إلى ابن عباس:

« أما بعد: فقد بلغنى إبطاؤك عن البيعة ليزيد ابن أمير المؤمنين، وإنى لو قتلتك بعثمان لكان ذلك إلىَّ، لأنك مِمّن أَلَّبَ[5] عليه وأجْلَبَ، وما مَعَك

(١) الشكيمة: الأنفة، وأصلها فى اللجام الحديدة المعترضة فى فم الفرس، وهو شديد الشكيمة: أى أنف أبىّ لا ينقاد.

(٢) الخرق: ضد الرفق، وأن لا يحسن الرجل العمل والتصرف فى الأمور. والحمق، وهو بفتحتين مصدر، وبالضم اسم.

(٣) فى الأصل « شاورته » وهو تحريف.

(٤) أى يستتر ويختفى، من كنس الظبى كضرب: دخل فى كناسه (والكناس ككتاب: مستتره فى الشجر) (٥) ألب: حرّض، وأجلب وجلب (كضرب ونصر) وجلب: أحدث جلبة، وهى اختلاط الأصوات، والمعنى ثار عليه.

منى أمان فتطمئن به ولا عهدٌ فتَسْكُنَ إليه ، فإذا أتاك كتابى هذا فاخرج إلى المسجد ، والْعَن قتلَة عثمان ، وبايِعْ عاملى ، فقد أَعْذَرَ من أَنْذَرَ[1] ، وأنت بنفسك أبصرُ ، والسلام » . (الإمامة والسياسة ١ : ١٣٠)

٦٤ — كتاب معاوية إلى عبد الله بن جعفر

وكتب إلى عبد الله بن جعفر :

« أما بعدُ : فقد عَرَفْتَ أَثَرَتى[2] إياكَ على مَن سِواكَ ، وحُسْنَ رأيى فيك وفى أهل بيتك ، وقد أتانى عنك ما أَكْرَه ، فإن بايعتَ تُشْكَر ، وإن تَأْبَ تُجْبَر ، والسلام » . (الإمامة والسياسة ١ : ١٣٠)

٦٥ — كتاب معاوية إلى الحسين

وكتب إلى الحسين :

« أما بعدُ : فقد انتهت إلىَّ عنك أمورٌ لم أكن أظنُّك بها ، رغبةً بك عنها ، وإن أَحَقَّ الناس بالوفاء لَمَن أعطى بيعتَهُ مَن كَانَ مِثْلَك فى خَطَرِك[3] وشرفك ومنزلتك التى أنزلك الله بها ، فلا تُنازِعْ إلى قطيعتك ، واتق الله ولا تَرُدَّنَّ هذه الأمة فى فتنة ، وانظر لنفسك ودينك وأمة محمد وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لاَ يُوقِنُونَ » . (الإمامة والسياسة ١ : ١٣٠)

---

(١) أعذر : صار ذا عذر .

(٢) آثره إيثارا : فضله ، والأثرة اسم منه . (٣) الخطر : القدر .

٦٦ — كتاب معاوية إلى ابن الزبير

وكتب إلى عبد الله بن الزبير :

«رأيتُ كِرامَ النَّاسِ إن كُفَّ عنهمُ بحِلمٍ ، رأوْا فَضْلاً لمن قد تَحَلَّما
ولا سيَّما إن كان عَفْوا بقُدْرةٍ فذلك أحْرَى أن يُجَلَّ ويُعْظَما
ولستَ بذى لؤمٍ فتُعْذَرَ بالذى أتاه من الأخلاق من كَان ألأَمَا[1]
ولكنَّ غِشًّا لستَ تَعرِفُ غـيرَه وقد غشَّ قبل اليوم إبليسُ آدَمَا
فما غشَّ إلا نفسَـــه فى فِعاله فأصبح ملعونًا وقد كان مُكرَّما
وإنى لأخشى أن أنالك بالذى أردت ،فيُخْزِىَ اللهُ من كان أظْلَما»

(الإمامة والسياسة ١ : ١٣٠)

٦٧ — رد ابن عباس على معاوية

فكان أول من أجابه عبد الله بن عباس ، فكتب إليه :

« أما بعد : فقد جاءنى كتابك ، وفهِمتُ ما ذكرتَ ، وأنْ ليس معى منك أمانٌ ، وإنه والله ما منك يُطْلَبُ الأمان يامعاوية ، وإنما يُطْلَب الأمانُ من الله رب العالمين ، وأما قولك فى قتلى : فوالله لو فعلتَ لَلَقِيتَ اللهَ ، ومحمدٌ صلى الله عليه وسلم خَصْمُك ، فما إخاله أفلَحَ ولا أنْجَحَ[2] مَن كان رسول الله خَصْمه ، وأما ما ذكرتَ من أنى ممن ألَّبَ على عثمان وأجلَبَ ، فذلك أمرٌ

---

(١) فى الأصل ، « أتته من أخلاق من كان ألوما » وهو محرف ، وقد صححته كما ترى .
(٢) أنجح ، صار ذا نجح .

غِبْتَ عنه ، ولو حَضَرتَه ما نسَبْتَ إلىّ شيئاً من التأليب عليه ، وأيمُ اللهِ ما أرى أحداً غَضِبَ لعثمان غضَبى ، ولا أعظمَ أحدٌ قتلَه إعظامى ، ولو شَهِدتُه لنَصرْتُه أو أموتَ دونه ، ولقد قلتُ وتمنَّيتُ يوم قُتِل عثمان : ليت الذى قتَل عثمان لَقِيَنى فقتلنى معه ولا أُبْقِى بعده ، وأما قولك لى : العن قتلة عثمان ، فلعثمانَ ولدٌ خاصة وقرابةٌ هم أحق بلعنهم منى ، فإن شاءوا أن يَلعَنُوا فلْيَلْعَنوا ، وإن شاءوا أن يُمْسِكوا فليمسكوا ، والسلام » .

(الإمامة والسياسه ١ : ١٣٠)

٦٨ — رد عبد الله بن جعفر على معاوية

وكتب إليه عبد الله بن جعفر :

« أما بعد : فقد جاءنى كتابك ، وفهمت ما ذكرتَ فيه من أَثَرتك إياى على من سواى ، فإن تفعل فبحظك أصبتَ ، وإن تأْبَ فبنفسك قصَّرتَ ، وأما ما ذكرت من جَبْرك إياى على البيعة ليزيد ، فلعمرى لئن أجبرتنى عليها لقد أجبرناك وأباك على الإسلام حتى أدخلنا كما كارِهَيْنِ غير طائعين ، والسلام » . (الإمامه والساسه ١ : ١٣١)

٦٩ — رد عبد الله بن الزبير على معاوية

وكتب إليه عبد الله بن الزبير :

أَلَا سمِــعَ اللهُ الذى أنا عَبْدُه فأَخزى إلهُ الناس مَنْ كان أظْلَما

وأَجْرَا على الله العظيم بحِلْمه   وأسرَعَهم فى المُوبقات تَقَحُّما[1]
أغَرَّكَ أنْ قالوا حَلــــيمٌ بعِزّة   وليس بذى حِلم ولـكن تحَلَّما
ولو رُمْتَ ما إنْ قد عزَمتَ وجدتَنى   هِزَبْرَ عَرِينٍ يترك القِرْنَ أَكْتَما[2]
وأُقْسِم لولا بَيْعةٌ لك لم أكن   لِأَنْقُضَها ، لم تَنْجُ منّى مُسَلَّما »

(الإمامة والسياسة ١ : ١٣١)

٧٠ — رد الحسين على معاوية

وكتب إليه الحسين رضى الله عنه :

« أما بعد : فقد جاء نى كتابك تذكر فيه أنه انتهتْ إليك عنى أمور لم تكن تظنُّنى بها رغبةً بى عنها ، وإن الحسناتِ لا يَهْدِى لها ولا يُسَدِّد إليها إلا اللهُ تعالى ، وأما ما ذكرتَ أنه رُقِّىَ[3] إليك عنى ، فإنما رَقَّاه المَلاّقون[4] ، المشَّاءون بالنَّميمة المفرِّقون بين الجمع ، وكَذَب الغاوُون المَارقون ، ما أردتُ حَرْباً ولا خلافاً ، وإنى لأخشى اللهَ فى ترك ذلك منك ومن حِزبك القاسِطِين[5] ،

---

(١) «أجرا» مسهل عن « أجرأ » وهومعطوف على « أظلما » اقتحم الإنسان الأمر وتقحمه : رمى بنفسه فيه بغير روية .

(٢) الهزبر : الأسد ، والعرين : بيته ، والقرن : كفؤك فى الشجاعة أوعام ، والأكتم والأكثم العظيم البطن ، والمعنى : يتركه صريعا منتفخا بطنه .

(٣) رقى عليه كلاما ترقية : رفعه ، وليتنبه إلى أن هذه العبارة لم ترد فى كتاب معاوية إلى الحسين ، ولعلها سقطت من الأصل .

(٤) تملقه وتملق له تملقا وتملاقا (بكسر التاء والميم فى هذه) وملقه وملق له كفرح ملقا : تودد إليه وتلطف له ، فهو متملق وملق (كفرح) وملاّق .

(٥) قسط كضرب قسطا بالفتح وقسوطا ، فهو قاسط : جار وعدل عن الحق . قال تعالى : « وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا » وقسط كضرب ونصر قسطا بالكسر فهو قاسط ،

المُحِلِّين(١) ، حزب الظالم ، وأعوان الشيطان الرجيم ، ألستَ قاتِلَ حُجْرٍ وأصحابه العابدين المُخْبِتين(٢) ، الذين كانوا يستفظعون البِدَعَ ، ويأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر ، فقتلتَهم ظُلْماً وعُدْوانا من بعد ما أعطيتهم المواثيق الغليظة ، والعهود المؤكَّدة(٣) ، جراءةً على الله واستخفافاً بعَهْده ،

وأقسط إقساطا فهو مقسط : عدل ، قال تعالى : « وَأَقْسِطُوا إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ » وقال « وَنَضَعُ ٱلْمَوَازِينَ ٱلْقِسْطَ » أى ذوات القسط ـ والقسط من المصادر الموصوف بها كالعدل يستوى فيه الواحد والجمع ـ وقد تبين مما تقدم أن العدل فيه لغتان قسط وأقسط ، وأن الجور فيه لغة واحدة ، قسط بغير ألف .

(١) قال صاحب القاموس « ورجل محل : منتهك للحرام ، أو لايرى للشهر الحرام حرمة ، وجاء فى اللسان « ويقال : المحل : الذى يحل لنا قتاله ، والمحرم : الذى يحرم علينا قتاله ، ويقال : المحل : الذى لا عهد له ولا حرمه ، والمحرم الذى له حرمه » وقد قدمنا فى الجزء الأوّل ص ٤٥٧ أن الامام عليا كرم الله وجهه كتب كتابا إلى محمد بن سليم جاء فيه « لعلك ترى معنا هـذا العدوّ المحلّ » وكتابا إلى أخيه عقيل جاء فيه « فإن رأيى قتال المحلين » وأن ابن أبى الحديد فسره (م ٤ : ص٥٧) قال : « أى الخارجين من الميثاق والبيعة يعنى البغاة ومخالفى الامام ، ويقال لـكل من خرج من إسلام ، أو حارب فى الحرم ، أو فى الأشهر الحرم ، محلّ ، وعلى هذا فسر قول زهير :

« وكم بالقنان من محل ومحرم » أى من لاذمة له ومن له ذمه ، وكذلك قول خالد بن يزيد بن معاوية فى زوجته رملة بنت الزبير بن العوام :

ألا من لقلب معنى غزل بحب المحلة أخت المحل

أى ناقضه العهد أخت المحارب فى الحرم ، أو أخت ناقض بيعه بنى أميه » وقال المبرد فى الكامل أيضا ج ٢ : ص ١٦٨) « وكان عبد الله بن الزبير يدعى المحل لإحلاله القتال فى الحرم ، وفى ذلك يقول رجل فى رمله بنت الزبير ... الخ » وكذا فى العقد الفريد (ج ٢ : ص ٢٦٨) .

وكان العلويون والخوارج يسمون الأمويين « بالمحلين » كما ترى فى كتاب الحسين عليه السلام ، وكما ورد فى كلام سليمان بن صرد لأصحابه : « وإن تستشهدوا فإنما قاتلتم المحلين ، وماعند الله خير للأبرار والصدّيقين » ـ انظر تاريخ الطبرى ٧ : ٦٨ ـ وقال الصلت بن مرة شاعر الخوارج . لما كثر بينهم الخلاف وخلعوا قطرى بن الفجاءة وولوا عبد ربه الصغير :

قل للمحلين قد قرت عيونكم بفرقة القوم والبغضاء والهرب
كنا أناسا على دين ففرقنا طول الجدال وخلط الجد باللعب

(انظر الكامل للمبرد ٢ : ٢٢٧)

(٢) أخبت : خشع وتواضع .

(٣) يشير إلى ما كان أخذه الحسن عليه السلام من معاوية من كتاب الأمان لشيعته .

أَوَ لَسْتَ بقاتل عمرو بن الحَمِق[1] الذى أَخْلَقَتْ وأَبْلَتْ وجهَه العبادةُ ، فقتلْتَه من بعد ما أعطيته من العهود مالو فهِمتْه العُصْمُ[2] ، نزلتْ من سُقُفِ[3] الجبال ؟ أو لستَ المدّعى زياداً فى الإسلام ، فزعمت أنه ابن أبى سُفيان ،

---

(١) هو عمرو بن الحمق الخزاعى : صحابى هاجر بعد الحديبية ، وكان ممن دخل الدار على عثمان ، ثم صار من شيعة على ، وشهد معه وقعة الجمل وصفين والنهروان ، ولما طلب زياد رؤساء أصحاب حجر ابن عدى ، خرج عمرو بن الحمق ورفاعة بن شداد حتى نزلا المدائن ، ثم ارتحلا حتى أتيا أرض الموصل فأتيا جبلا فكمنا فيه ، وبلغ عامل ذلك الرستاق (الرستاق : يستعمل فى الناحية التى هى طرف الاقاليم ، فارسى معرب) أن رجلين قد كمنا فى جانب الجبل ، فاستنكر شأنهما — وهو رجل من همدان يقال له : عبد الله بن أبى بلتعة — فسار إليهما فى الخيل نحو الجبل ومعه أهل البلد ، فلما انتهى إليهما خرجا ، فأما عمرو بن الحمق فكان مريضاً ، وكان بطنه قد سقى (السقى كشمس وحمل : ماء أصفر يقع فى البطن ، وقد سقى بطنه كرمى) فلم يكن عنده امتناع ، وأما رفاعة بن شداد — وكان شابا قويا — فوثب على فرس له جواد ، فقال له : أقاتل عنك ، قال : ومايفنى أن تقاتل ، انج بنفسك إن استطعت فحمل عليهم فأفرجوا له ، فخرج تنفر به فرسه ، وخرجت الخيل فى طلبه وكان راميا ، فأخذ لا يلحقه فارس إلا رماه فجرحه أو عقره ، فانصرفوا عنه .

وأخذ عمرو بن الحمق ، فسألوه من أنت ؟ فقال : من إن تركتموه كان أسلم لكم ، وإن قتلتموه كان أضر لكم ، فسألوه فأبى أن يخبرهم ، فبعث به ابن أبى بلتعة إلى عامل الموصل — وهو عبد الرحمن بن عبد الله بن عثمان الثقفى — فلما رأى عمرو بن الحمق عرفه ، وكتب إلى معاوية يخبره ، فكتب إليه معاوية : « إنه زعم أنه طعن عثمان بن عفان تسع طعنات بمشاقص كانت معه (المشاقص جمع مشقص كمنبر وهو النصل الطويل أو سهم فيه ذلك يرمى به الوحش) وإنا لا نريد أن نعتدى عليه ، فاطعنه تسع طعنات كما طعن عثمان ، فأخرج فطعن تسع طعنات فمات فى الأولى منهن أو الثانية (سنة ٥١ هـ) وبعث عبد الرحمن الثقفى برأسه إلى معاوية ، وهو أول رأس أهدى فى الإسلام . وقيل إنه لما هرب بالموصل دخل غارا فنهشته حية فمات فأخذ عامل الموصل رأسه فأرسله إلى زياد فبعث به زياد إلى معاوية ، وقيل إنه عاش إلى أن قتل فى وقعة الحرة سنة ٦٣ هـ (انظر تاريخ الطبرى ٦ : ١٤٨ وخلاصة تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ص ٢٤٤ وأسد الغابة فى معرفة الصحابة ٤ : ١٠٠ والاصابة فى تمييز الصحابة ٤ : ٢٩٤) .

وقد جاء فى تاريخ الطبرى أيضا (٥ : ١٣٢) أن عمرو بن الحمق كان مع محمد بن أبى بكر حين تسور على عثمان الدار ، فلما قتله كنانة بن بشر بن عتاب التجيبى ، وثب عمرو بن الحمق على عثمان فجلس على صدره وبه رمق ، فطعنه تسع طعنات ، قال عمرو : فأما ثلاث منهن فإنى طعنتهن إياه لله ، وأما ست فإنى طعنتهن إياه لما كان فى صدرى عليه » .

(٢) العصم : جمع أعصم ، وهو الوعل فى ذراعيه أوفى إحداهما بياض وسائره أسود أو أحمر .

(٣) لعله « من شم الجبال » جمع أشم . والجبل الأشم : المرتفع .

وقد قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الولد للفِراش وللعاهِرِ الحَجَر ، ثم سلَّطته على أهل الإِسلام : يقتلهم ، ويقطّع أيديَهم وأرجلَهم من خِلاف ، ويصلِّبهم على جُذُوع النخل[1] ، سبحانَ اللهِ يا معاوية ! لكأنك لست من

---

(١) جاء فى شرح ابن أبى الحديد (م ٣ : ص ١٥) .

روى أن أبا جعفر محمد بن على الباقر عليه السلام قال لبعض أصحابه — فى كلام له — :

« ثم لم نزل أهل البيت نستذل ونستضام ونقصى ونمتهن ونحرم ونقتل ونخاف ، ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا ، ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعا يتقربون به إلى أوليائهم وقضاة السوء وعمال السوء فى كل بلدة ، فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة ، ورووا عنا مالم نقله ومالم نفعله ليبغضونا إلى الناس ، وكان عظم ذلك وكبره زمن معاوية بعد موت الحسن عليه السلام ، فقتلت شيعتنا بكل بلدة ، وقطعت الأيدى والأرجل على الظنة ، وكان من يذكر بحبنا والانقطاع إلينا سجن أو نهب ماله أو هدمت داره ، ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد إلى زمان عبيد الله بن زياد قاتل الحسين عليه السلام ، ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتلة ، وأخذهم بكل ظنة وتهمة ، حتى إن الرجل ليقال له زنديق أو كافر أحب إليه من أن يقال شيعة على » .

وروى المدائنى فى كتاب الأحداث قال : « كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة » أن برئت الذمة ممن روى شيئا من فضل أبى تراب وأهل بيته » فقامت الخطباء فى كل كورة ، وعلى كل منبر يلعنون عليا ويبرءون منه ويقعون فيه ، وفى أهل بيته ، وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة ، لكثرة من بها من شيعة على عليه السلام ، فاستعمل عليهم زياد بن سمية ، فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف ، لأنه كان منهم أيام على عليه السلام ، فقتلهم تحت كل حجر ومدر وأخافهم ، وقطع الأيدى والأرجل ، وسمل العيون ، وصلبهم على جذوع النخل ، وطردهم وشردهم عن العراق فلم يبق بها معروف منهم ، وكتب معاوية إلى عماله فى جميع الآفاق « ألا يجيزوا لأحد من شيعة على وأهل بيته شهادة » وكتب إليهم « أن انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه ، وأهل ولايته والذين يروون فضائله ومناقبه ، فأدنوا مجالسهم وقربوهم وأكرموهم ، واكتبوا لى بكل مايروى كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته » ففعلوا ذلك حتى أكثروا فى فضائل عثمان ومناقبه ، لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصلات والكساء والحباء والقطائع ، ويفيضه فى العرب منهم والموالى ، فكثر ذلك فى كل مصر ، وتنافسوا فى المنازل والدنيا ، فليس يجىء أحد مردود من الناس عاملا من عمال معاوية ، فيروى فى عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفعه ، فلبثوا بذلك حينا ، ثم كتب إلى عماله : « إن الحديث فى عثمان قد كثر وفشا فى كل مصر ، وفى كل وجه وناحية ، فإذا جاءكم كتابى هذا فادعوا الناس إلى الرواية فى فضائل الصحابة والخلفاء الأولين ، ولا تتركوا خبرا يرويه أحد من المسلمين فى أبى تراب إلا أتونى بمناقض له فى الصحابة مفتعلة ، فإن هذا أحب إلىّ وأقرّ لعينى ، وأدحض لحجة أبى تراب وشيعته ، وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضله » فقرئت كتبه على الناس ، فرويت أخبار كثيرة فى مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها ، وجدّ الناس فى رواية مايجرى هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر ، وألقى إلى معلمى الكتاتيب فعلموا صبيانهم وغلمانهم من

فكتب إليه عبد الملك يلومه فيما صنع ، ويقول : « سعيدٌ وَاللّٰهِ كان أحوجَ أن تَصِلَ رَحِمَه[1] من أن تضربه ، وإنا لَنعلمُ : ما عندَهُ من شقاقٍ ولا خلاف » .

هذا ما رواه الطبرى ، وروى ابن خِلِّكان فى وَفَيَات الأعيان . قال : قال يحيى بن سعيد : كتب هشام بن إسمٰعيل والى المدينة إلى عبد الملك ابن مَرْوَان :

« إن أهل المدينة قد أطْبَقوا[2] على البيعة للوليد وسليمان إلا سعيد ابن المسيب » .

فكتب إليه أن :

« اعْرِضْه على السيف ، فإن مَضَى[3] فاجْلِده خمسين جلدةً ، وطُفْ به أسواق المدينة » . (تاريخ الطبرى ٨ : ٥٦ ؛ ووفيات الأعيان ١ : ٢٠٧)

خلافة الوليد بن عبد الملك ٨٦ — ٩٦ سنة

٢٦٩ — كتاب الحجاج إلى الوليد

لما وَلِيَ الوليدُ بن عبد الملك الخلافة كتب إليه الحجاج :

« أما بعدُ ، فإن اللّٰه تعالى استقبَلَك ياأمير المؤمنين فى حَداثة سِنِّك

(١) لأنه محرومى مثله كما رأيت فى نسبه . (٢) أى أجمعوا .
(٣) أى صمم وتثبت برأيه .

بما لا أَعْلَمه استقبلَ به خليفةٌ قبلك، من التمكين فى البلاد، والملك للعباد، والنصر على الأعداء، فعليك بالإسلام فقوِّمْ أَوَدَه[1] وشرائعَه وحُدودَه، ودَعْ عنك محبةَ الناس وبغضهم وسُخْطهم، فإنهم قلّما يُؤْتَى الناسُ من خيرٍ وشرٍ إلا أفْشَوه فى ثلاثة أيام والسلام». (الإمامة والسياسه ٢ : ٤٢)

٢٧٠ — كتاب الحجاج إلى الوليد

وكتب الوليد بن عبد الملك إلى الحجاج أَنْ صِفْ لى سيرتك، فكتب إليه:

«إنى أَيْقَظْتُ رأيى وأَنَمْتُ هواى، فَأَدْنَيْتُ السَّيِّدَ المُطَاعَ فى قومه، ووَلَّيْتُ الحَرْبَ الحازمَ[2] فى أمره، وقلّدتُ الخَرَاجَ الموفِّرَ لأمانته، وقَسَمْتُ لكل خَصْمٍ من نفسى قسما أُعطيه حظا من لطيف عنايتى ونَظَرى، وَصَرَفْتُ السيفَ إلى النَّطِفِ[3] المُسِيء، والثَّوابَ إلى المُحْسِنِ البرىء، فخاف المُرِيبُ صَوْلَةَ العِقاب، وتمسَّك المحسن بحظِّه من الثواب».

(العقد الفريد ١ : ٨ و ٣ : ١٣)

---

(١) الأود: الاعوجاج، وفعله كفرح.

(٢) وفى الجزء الأول من العقد «ووليت المحرب».

(٣) النطف: الرجل المريب، وإنه لنطف بهذا الأمر: أى متهم، وفى الأصل: فى الجزء الأول «النصف» وفى الثالث «النطق» وكلاهما محرفه.

٢٧١ — كتاب شريح إلى صديق له

ووقع بالكوفة وَبَاء ، فخرج الناس وتفرقوا فى النَّجَف ، فكتب شُرَيْح[1] إلى صديق له خرج بخروج الناس :

« أما بعدُ ، فإنك بالمكان الذى أنت فيه بِعَيْنِ مَنْ لا يُعْجِزْه هربٌ ، ولا يفوته طَلَب ، وإن المكان الذى خلَّفتَ لا يُعجِّل لأحدٍ حِمَامَه ، ولا يَظْلِمُه أيامَه ، وإنا وإياك لَعَلَى بِساط واحد ، وإن النجف من ذى قدرة لقريب » . (زهر الآداب ٣ : ٣٣٧)

٢٧٢ — كتاب الحجاج إلى قتيبة بن مسلم

وولّى الحجاج قُتَيْبَةَ بن مُسْلِم الباهلى خُرَاسان ، فقَدِمَها سنة ٨٦ هـ وغزا أَخْرُون وشُومان ـ وهما من طُخَارُستان[2] ـ وصالحه أهلها على فِدية أدَّوها إليه فقبلها ، ثم قَفَل[3] إلى مَرْو ، وخلّف الجندَ ، واستخلف عليهم أخاه صالح بن مسلم ، فأخذوا طريق بَلْخ إلى مرو ، وبلغ الحجاج ، فكتب إليه يلومه ويعجِّز رأيه فى تخليفه الجندَ وكتب إليه :

« إذا غزوتَ فكن فى مقدَّم الناس ، وإذا قَفَلْتَ فكن فى أُخْرَياتهم وسَاقَتِهِمْ[4] » . (تاريخ الطبرى ٨ : ٦٠)

---

(١) هو شريح بن الحرث قاضى الكوفة ، توفى سنة ٨٧ ، اقرأ ص ٢٨١ من الجزء الأول .

(٢) ناحية كبيرة شرقىّ خراسان على نهر جيحون . وقد ضبطها ابن خلكان هكذا ـ انظر وفيات الأعيان ١ : ٩٠ فى ترجمة بشار بن برد ، وضبطها ياقوت فى معجم البلدان بفتح الطاء .

(٣) رجع . (٤) ساقة الجيش : مؤخره .

٢٧٣ - بين الحجاج وقتيبة

قال الطبرى :

وغزا قُتَيبة وَرْدانَ خُذَاه ملك بُخارَى سنة ٨٩ هـ ، فلم يُطِقْهُ ، ولم يظفَر من البلد بشىء ، فرجع إلى مَرْو وكتب إلى الحجاج بذلك ، فكتب إليه الحجاج : أنْ صَوِّرْها لى ، فبعث إليهِ بصورتها ، فكتب إليه الحجاج أن : « ارجِع إلى مَرَاغتك[1] ، فتُبْ إلى الله مما كان منك ، وأْتِها من مكان كذا وكذا » .

وقيل : كتب إليه الحجاج أن : « كِسْ بِكِسٍّ[2] ، وانسِفْ نَسَفَ[3] ، ورِدْ وَرْدانَ ، وإياك والتَّحْويطَ[4] ، ودَعْنى من بُنَيَّاتِ[5] الطريق » .

فخرج إلى بخارى سنة ٩٠ غازيا ، ففتحها وهزم جنود وردان خذاه ، ومن استنصرهم من السُّغْد والترك ومن حولهم .

ورجع قتيبة إلى مرو ، وكتب إلى الحجاج :

« إنى بعثت عبد الرحمن بن مُسْلِم ، ففتح الله على يديه » .

---

(١) المراغة : متمرَّغ الدابة ، أراد بها بخارى : أى أن تفتحها وتجددها فعلا تتقلب فيه كما تتقلب الدابة فى مراغها ، والمراغة أيضاً : الأتان التى لا تمتنع من الفحول ، كأنه يقول له إنها لا تستعصى عليك فى فتحها. (٢) الكَيْس : العقل والفطنة والتوقد ، وفعله كضرب ، وكايسه فكاسه غلبه بالكياسة ، وكَسّ : مدينة تقارب سمرقند . (٣) نسف : مدينة كبيرة بين جيحون وسمرقند .

(٤) يقال : حوّط حول الأمر : أى دار ، وأصله من حوّط كرمه تحويطا : أى بنى حوله حائطا ، يعنى : إياك والدوران فى القول وكثرة المراجعة فيه (ويقال أيضا : حاوطت فلانا محاوطة : إذا داورته فى أمر تريده منه وهو يأباه كأنك تحوطه ويحوطك) .

(٥) بنيات الطريق : الطرق الصغار تتشعب من الجادة ، أى اسلك الطريق العام المستقيم ولا تعرج فى المنحنيات والمنعطفات .

وكان قد شَهِدَ الفتح مولى للحجاج ، فقَدِم فأخبره الخبر ، فغضب الحجاج على قتيبة ، فاغتمّ لذلك ، فقال له الناس : ابعث وفدا من بنى تميم وأعطهم وأرْضِهم يُخْبروا الأمير أن الأمر على ما كتبتَ ، ففعل ، فلما قَدِمُوا على الحجاج صاح بهم وعابهم ، ودعا بالحجّام بيده مِقْراض[1] ، فقال : لأقطعن ألسنتكم أو لتَصْدُقُنَّنِي ، قالوا : الأمير قتيبة ، وبعث عليهم عبدالرحمن ، فالفتح للأمير ، والرأس الذى يكون على الناس ، فسكن الحجاج .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٦٧ ، ٦٩)

٢٧٤ — بين الوليد وعمر بن عبد العزيز

وفى سنة ٨٨ هـ بعث الوليد إلى عمر بن عبد العزيز ـ وكان عامله على المدينة ـ بكتاب يأمره بإدخال حُجَر أزواج رسول ٱلله صلى ٱلله عليه وسلم فى مسجد رسول ٱلله ، وأن يشترى مافى مؤخره ونواحيه حتى يكون مائتى ذراع فى مائتى ذراع ، ويقول له : « قَدِّم القِبْلة إنْ قَدَرْتَ ـ وأنت تقدر ـ لِمكان أخوالك، فإنهم لايخالفونك ، فمن أبَى منهم فمُرْ أهل المِصْر فليقوِّموا له قيمةَ عَدْل ، ثم اهْدِم عليهم وادفع إليهم الأثمان ، فإن لك فى ذلك سَلَف صدقٍ عمرَ وعثمانَ » .

فأقرأهم كتابَ الوليد ، فأجاب القوم إلى الثمن فأعطاهم إياه ، وأخذ فى هدم بيوت أزواج النبى صلى ٱلله عليه وسلم وبناء المسجد ، فلم يمكث إلا يسيرا حتى قَدِم الفَعَلة ، بعث بهم الوليد .

---

(١) المقراض : المقص .

وفى هذه السنة أيضاً كتب الوليد إلى عمر فى تسهيل الثَّنايا[١] وحَفْرِ الآبار بالمدينة ، وخرجت كتبه إلى البلدان بذلك ، وكتب الوليد إلى خالد ابن عبدالله القَسْرى بذلك ـ وكان على مكة ـ .

وكتب الوليد أيضا إلى عمر أن يعمل الفَوّارة التى كانت عند دار يزيد ابن عبد الملك ، فعمِلها عمر وأجرى ماءها ، فلما حج الوليد وقف عليها ، فنظر إلى بيت الماء والفوارة فأعجبته ، وأمر لها بقُوّام يقومون عليها ، وأن يسقى أهل المسجد منها ففعل ذلك . (تاريخ الطبرى ٨ : ٦٥ ، ٦٦)

٢٧٥ — كتب بين الحجاج والوليد وسليمان ابنى عبد الملك

ولم يجْتَزِئ الحجاج بعزل يزيد بن المهلَّب عن خُراسان كما قدمنا ، بل حبسه هو وإخوته ، وأغرمهم ستة آلاف ألف وعذَّبهم[٢] ، فأعملوا الحيلة فى الفِرار من سجنه (سنة ٩٠ هـ) ففزِعَ الحجاج وذهبَ وَهْمُه أنهم ذهبوا قِبَل خراسان ، وكان يقول : إنى لأظنه يحدِّث نفسه بمثل الذى صنع ابنُ الأشعث ، وكتب إلى الوليد : يخبره بهَرَبهم وأنه لايراهم أرادوا إلا خراسان ، وبعث الْبَريد إلى قُتَيبة بن مسلم يحذِّره قدومهم، ويأمره أن يستعدَّ لهم ، وبعث إلى أمراء الثغور والكُوَر أن يرصُدوهم ويستعدوا لهم .

---

(١) جمع ثنية ، وهى الطريق فى الجبل .

(٢) وكان يزيد يصبر على عذابه صبراً حسناً ، وكان الحجاج يغيظه ذلك ، فقيل له : إنه رمى بنشابة فثبت نصلها فى ساقه فهو لا يمسها شىء إلا صاح ، فإن حرك أدنى شىء سمعت صوته ، فأمر أن يعذب ويدهق ساقه (أى يعصر شديداً) فلما فعل ذلك به صاح ، وأخته هند بنت المهلب عند الحجاج ، فلما سمعت صياح يزيد صاحت وناحت فطلقها .

ومضى يزيد وإخوته حتى قَدِمُوا الشام ، فلاذوا بسليمان بن عبد الملك متعوِّذين به فأجارهم ، فكتب الحجاج إلى الوليد :

« إن آل المهلَّب خانوا مال اللّه ، وهَرَبوا منى ، ولَحِقوا بسليمان ابن عبد الملك أخى أمير المؤمنين ، وولىّ عَهْد المسلمين ، وإن أمير المؤمنين أعلى رأيا » .

فلما بلغ الْوَليد مكانُه عند سليمان ، هوَّن عليه بعض ما كَان فى نفسه ، وطار غضبا للمال الذى ذهب به ، وكتب إلى أخيه سليمان بذلك .

فكتب سليمان إلى الوليد :

« إن يزيد بن المهلَّب عندى ، وقد آمَنْتُه ، وإنما عليه ثلاثةُ آلاف ألف ، كان الحجاجُ أغْرمَهم ستة آلافِ ألف ، فأدَّوا ثلاثة آلاف ألف ، وبقى ثلاثةُ آلاف ألف ، فهى علىّ » .

أو كتب إليه :

« يا أمير المؤمنين : إنى ما أجَرْتُ يزيد بن المهلَّب إلا لأنه هو وأبوه وإخوته من صنائعنا قديما وحديثا ، ولم أُجِرْ عدوا لأمير المؤمنين ، وقد كان الحجاج قصده وعذّبه وغرّمه أربعة آلاف ألف درهم ظلماً ، ثم طالبه بثلاثة آلاف ألف درهم ، وقد سار إلىّ واستجار بى فأجرته ، وأنا أغْرَم عنه هذه ثلاثة آلاف ألف الدرهم ، فإن رأى أمير المؤمنين ألاَّ يُخْزِيَنى فى ضيفى فليفعل ، فإنه أهل الفضل والكرم » .

فكتب إليه الوليد :

« لا وأللّٰه ، لا أُومنه حتى تبعث به إلىّ فى وَثاق[1] »

فكتب إليه سليمان :

« ولَئن أنا بعثت به إليك لَأَجيئنّ معه ، فأنْشُدُكَ أللّٰهَ[2] أن لاتَفضَحَنى ولا تُخْفِرَنى[3] » .

فكتب إليه الوليد : « وأللّٰه لئن جئتنى لا أُومنه » .

فقال يزيد : ابعثنى إليه ، فوأللّٰه ما أحب أن أُوقع بينك وبينه عداوة وحربا ، ابعث إليه بى وأرسل معى ابنك ، واكتب إليه بألطفِ ماقَدَرت عليه .

فأحضر سليمان أبنه أيوب فقيَّده ودعا يزيد بن المهلَّب فقيَّده ، ثم شد قيد هذا إلى قيد هذا بسلسلة وغَلَّهما جميعا بغُلَّين ، وأَرسلهما إلى أخيه الوليد ، فدخلا عليه ، فلما رأى الوليد أبن أخيه فى سلسلة أطرق استحياء ، وقال : لَقد أسأْنا إلى أبى أيوب إذ بَلَغْنا به هذا المَبْلَغ ، ودفع الغلام كتاب أبيه إلى عمه ، وقال : ياأمير المؤمنين ، نفسى فِدَاؤكَ ، لاتُخْفِرْ ذمة أبى وأنت أحقُّ من منعها ، ولا تقطع منا رجاءَ مَنْ رجا السلامةَ فى جوارنا لِمَكاننا منك ، ولا تُذِلَّ من رجا العز فى الانقطاع إلينا لعِزِّنا بك» . وكان فى الكتاب :

« لعبد أللّٰه الوليد أمير المؤمنين من سليمان بن عبد الملك ، أما بعد : ياأمير المؤمنين ، فوأللّٰه إنْ كنتُ لأَظنُّ ـ لواستجارنى عدو قد نابَذَكَ[4]

---

(١) الوثاق بالفتح ويكسر : ماشد به . (٢) أى أسألك بالله .

(٣) أخفره وخفر به كضرب : نقض عهده .

(٤) نابذه : خالفه وعصاه ، ونابذه الحرب : كاشفه إياها وجاهره بها .

وجاهدك فأنزلته وأجرْته ـ أنك لا تُذِلّ جاري ولا تُخفِر جواري ، بل لم أُجِرْ إلا سامعا مطيعا حَسَنَ الْبَلاَء والأثر في الإسلام هو وأبوه وأهل بيته ، وقد بعثت به إليك ، فإن كنتَ إنما تغزو[1] قطيعتي ، والإخفارَ لذمتي ، والإبلاغَ في مساءتي ، فقد قَدَرت إن أنت فعلت ، وأنا أُعيذك بٱللهِ من احتراد[2] قطيعتي ، وانتهاكِ حُرْمتي ، وترك برِّي وصِلتي ، فوٱللهِ يا أمير المؤمنين ما تدري ما بقائي وبقاؤك ، ولا متى يُفَرِّق الموت بيني وبينك ، فإن استطاع أمير المؤمنين ـ أدام ٱلله سروره ـ أن لا يأتيَ علينا أجلُ الوفاة إلا وهو لي واصلٌ ، ولِحَقِّي مؤدٍّ ، وعن مَساءتي نازع[3] ، فليفعلْ ، وٱللهِ يا أمير المؤمنين ما أصبحت بشيء من أمر ٱلدنيا ـ بعد تقوى ٱلله فيها ـ بأسَرَّ مني برضاك وسرورك ، وإن رضاك مما ألتمسُ به رضوانَ ٱلله ، فإن كنتَ يا أمير المؤمنين تريد يوما من الدهر مسرَّتي وصِلَتي وكرامتي وإعظام حقي ، فتجاوَزْ لي عن يزيد ، وكلُّ ما طلبتَه به فهو عليَّ » .

أو كتب إليه : « أما بعد ، يا أمير المؤمنين فقد وَّجهتُ إليك يزيدَ وٱبن أخيك أيوبَ بن سليمان ، ولقد هَمَمْتُ أن أكون ثالِثهما ، فإن هممتَ يا أمير المؤمنين بقتل يزيد فبالله عليك ٱبْدَأْ بأيوبَ من قبله ، ثم ٱجعلْ يزيدَ ثانيا ، وٱجعلني إذا شئت ثالثا ، والسلام » .

فلما قرأ كتابه قال : لقد شَقَقنا[4] على سليمان ، ثم دعا ٱبن أخيه

---

(١) تقصد .

(٢) الاحتراد افتعال من الحرد (بالفتح) وهو القصد ، حرد كضرب : قصد ـ ولم تذكر كتب اللغة المزيد ـ وفي وفيات الأعيان « احسار » . (٣) أي كافّ .

(٤) شق عليه : أوقعه في المشقة ، وفي قوله تعالى : « وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ » .

فأدناه منه ، وتكلم يزيد ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن بلاءكم عندنا أحسن البلاء ، فمن يَنْسَ ذلك فلسنا ناسيه ، ومن يكفُرْ فلسنا كافريه ، وقد كان من بلائنا أهلَ البيت فى طاعتكم ، والطعنِ فى أعين أعدائكم ، فى المواطن العِظام فى المشارق والمغارب ، ما إنَّ المِنّة علينا فيها عظيمة » . فقال له : اجلس فجلس ، فآمنه وكف عنه ، ورجع إلى سليمان ، وسعى إخوته فى المال الذى عليه .

وكتب الوليد إلى الحجاج :

« إنى لم أصِلْ إلى يزيد وأهل بيته مع سليمان ، فاكْفُفْ عنهم والْهُ عن الكتاب إلىَّ فيهم » فلما رأى ذلك الحجاج كف عنهم .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٧٣ ، وثمرات الأوراق ص ٢٠٨ ، ووفيات الأعيان ٢ : ٢٧٠)

٢٧٦ — كتاب الحجاج إلى قتيبة

وكتب الحجاج إلى قتيبة :

« إنى قد نظرتُ فى سِنِّى ، فإذا أنا قد بلغت خمسين سنةً ، وأنت نحوٌ منى فى السِّنِّ[1] ، وإنَّ امرأً قد سار نحو خمسين حِجَّةً[2] إلى مَوْرِد ، لقَمِنٌ[3] أن يُورَدَه » . (الأغانى ١٨ : ١١٩ ، وسرح العيون ص ١٢٢)

---

(١) وفى رواية الأغانى : « فإذا أنا ابن ثلاث وخمسين سنة ، وأنا وأنت لدة عام ... » .

(٢) الحجة : السنة .

(٣) القمين كأمير ، والقمن ككتف وجمل : الخليق الجدير (والأخيرة لا تثنى ولا تجمع) قال أبو الفرج : فسمع هذا أبو محمد التيمى فقال :

إذا ذهب القرن الذى أنت فيهم   وخلفت فى قرن فأنت غريب

وإن امرأ قد سار خمسين حجة   إلى منهل ، من ورده لقريب

وقال صاحب زهر الآداب (ج ٣ : ص ١١٧) « والبيت لأبى محمد التيمى ، أنشده دعبل ، قال :

٢٧٧ – كتاب الحجاج إلى قتيبة

وكتب الحجاج إلى قتيبة :

« إنى قد طلقتُ بنت قَطَن الهلالية عن غير رِيبة ، فتزَوَّجْها » .

٢٧٨ – رد قتيبة على الحجاج

فكتب إليه قتيبة :

«ليس كلُّ مَطالِع الأمير أُحبُّ أن أُطلُعَ» :

فقال الحجاج : وَيلُ أُمِّهِ[1] قتيبة ! إعجابًا بقوله . (سرح العيون ص ١٢٨)

٢٧٩ – كتاب الحجاج إلى قتيبة

وكتب الحجاج إلى قتيبة أن :

« ابعَث إلىَّ بالآدَمِ[2] الجَعْدِيِّ الذى يُفهِمنى ويَفهَم عنى »

وتزعم الرواة أنه لأعرابى من بنى أسد ، قال خلاد الأرقط : كنا على باب أبى عمرو بن العلاء ومعنا التيمى فذكرنا كتاب الحجاج بن يوسف إلى قتيبة بن مسلم : « إنى وإياك لدتان ، وإن امرأ قد سار خمسين حجة ... » فانتشاه التيمى فانتحله فى شعره » .

(١) انظر هامش ص ١٣١ .

(٢) الآدم : وصف من الأدمة بالضم وهى السمرة ، والجعدى : نسبة إلى جعد ، ووجه جعد : مستدير قليل اللحم ، وهو نسبة إلى الوصف ، يؤيد هذا ماقبله وهو « الآدم » فهو يعنى أن يبين له صفاته الخلقية ، وليس بمنسوب إلى بنى جعدة ـ وهم حى من العرب منهم النابغة الجعدى ـ لأن الذى عناه الحجاج وهو عرام بن شتير ، من بنى ضبة بن طابخة بن إلياس بن مضر ، أما بنو جعدة فهم من قيس عيلان بن مضر .

فبعث إليه عُرَام[1] بن شُتَيْر ، فقال الحجاج : « لِلّهِ دَرُّه[2] ، ما كتبتُ إليه فى أمرٍ قطُّ إلا فهم عنى وعرَف ما أُريد » . (البيان والتبيين ١ : ٢٠٦)

٢٨٠ — كتاب الحجاج إلى قتيبة

وكتب الحجاج إلى قتيبة :

« أما بعد ، فإن وَكِيعَ بن حَسّان كان بالبصرة ، ثم صار لصّاباسِجِسْتان ، ثم صار إلى خُراسان ، فإذا أتاك كتابى هذا فاهْدِم بِناءَه ، واحْلُلْ فِناءه[3] » ، وكان على شُرْطة قتيبة فعزله . (العقد الفريد ١ : ١٧)

٢٨١ — كتاب قتيبة إلى الحجاج ورده عليه

وكتب قتيبة إلى الحجاج : يشكو قِلَّةَ مَرْزِئَته[4] من الطعام ، وقلةَ غِشْيانِه النساء ، وحَصَرَه على المِنْبر ، فكتب إليه :

« استكثِرْ من الألوان لتُصابَ من كل صَحْفةٍ شيئا ، واستكثرْ من

---

(١) فى البيان والتبيين « عدام » وهو محرف ، وإنما هو عرام ، قال صاحب القاموس : « وسموا عارما وكغراب وهمام » وقد ورد هذا الاسم فى تاريخ الطبرى « عرام بن شتير الضبى » ج ٨ : ص ٦٩ .

(٢) لله دره : كلمة يقال لمن يتعجب منه ، والدر : اللبن والمراد هنا اللبن الذى ارتضعه من ثدى أمه ، وأضيف إلى الله تعالى تشريفا ، أى أن اللبن الذى تغذى به يستحق أن ينسب إلى الله تعالى لشرفه وعظمه ، وقيل معناه : لله الثدى الذى أرضعه ، وهو قريب من سابقه ، والدر أيضا . العمل والنفس أى أن عمله عظيم جليل جدير به أن يضاف إلى الله تعالى ، أو أن نفسه شريفة كريمة كذلك

(٣) فناء الدار : ما اتسع من أمامها ، ويقال : حلّ المكان وحل به .

(٤) رزأه مرزئة : أصاب منه .

الطَّرُوقةِ[1] تجد بذلك قوةً على ما تُريد ؛ وأَنْزِلِ الناس بمنزلة رجلٍ واحد من أهل بيتك وخاصّتك ، وارْمِ ببصرك أمامَك تبلُغْ حاجتك » .

(عيون الأخبار ٥ : ١٧٤)

٢٨٢ — كتاب الحجاج إلى الوليد

وتُوُفِّىَ محمد بن يوسف أخو الحجاج (سنة ٩١ هـ) وهو والى اليمن ، فكتب الوليد إلى الحجاج يعزيه ، فكتب الحجاج جوابه :

« يا أمير المؤمنين ، ما التقيتُ أنا ومحمد منذُ كذا وكذا سَنةً إلا عاما واحداً ، وما غاب عنى غَيبةً أنا لِقُرْبِ اللّقاءِ فيها أَرْجَى من غَيْبته هذه فى دارٍ لا يتفرّق فيها مؤمنان » (وفيات الأعيان ١ : ٢٦)

٢٨٣ — كتاب الحجاج إلى الوليد

وكتب الحجاج إلى الوليد بعد وفاة أخيه محمد بن يوسف :

« أُخْبِرُ أمير المؤمنين — أكرمه الله — أنَّه أُصِيبَ لمحمد بن يوسف خمسون ومائةُ ألفِ دينار ، فإن يكن أصابَها من حِلِّها فرَحِمَه اللهُ ، وإن تكن من خيانة فلا رَحِمه الله » .

(١) الطروقة : الزوجة ، وأنثى الفحل ، يقال : ناقة طروقة الفحل ، للتى بلغت أن يضربها الفحل ، وكذلك المرأة ، ويقال للمزوج [illegible] حتى وجدت طروقة .

٢٨٤ — رد الوليد على الحجاج

فكتب إليه الوليد :

« أما بعدُ : فقد قرأ أمير المؤمنين كتابك فيما خلَّف محمدُ بن يوسف ، وإنما أصاب ذلك المالَ من تجارة أحْلَلْناها له ، فترَحَّمْ عليه ، رَحِمه الله » .

(الكامل للمبرد ١ : ٢٤٨)

٢٨٥ — كتاب مسلمة بن عبد الملك إلى الوليد

وكتب مَسْلَمة بن عبد الملك وهو غازٍ بقُسطنطينية إلى أخيه الوليد :

أرِقتُ وصحراءُ الطُّوانَةِ بيننا ... لِبَرْق تلألَا نحو غَمْرة يُلمِحُ[١]

أُزاوِلُ أمرًا لم يكن لِيُطيقَه ... من القوم إلا اللَّوْذَعِيُّ الصَّمَحْمَحُ[٢]

(معجم البلدان ٦ : ٦٦)

٢٨٦ — كتاب سليمان بن عبد الملك إلى الحجاج

وروى صاحب العقد الفريد قال :

كان سليمان بن عبد الملك يكتب إلى الحجاج فى أيام أخيه الوليد ابن عبد الملك كُتُبا فلا ينظر له فيها ، فكتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من سليمان بن عبد الملك إلى الحجاج ابن يوسف ، سلامٌ على أهل الطاعة من عباد الله ، أما بعدُ : فإنك امرؤٌ

---

(١) طوانة : بلد بثغور المصيصة (وهى من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم) .

(٢) اللوذعى : الخفيف الذكى الحديد الفؤاد ، والصمحمح : الرجل الشديد .

مَهْتوكٌ عنه حِجابُ الحقِّ ، مُولَعٌ بما عليك لا لك ، مُنصرِفٌ عن منافعك ، تاركٌ لِحظِّك ، مُستخِفٌّ بحق الله وحقِّ أوليائه ، لا ما سَلَفَ إليك من خيرٍ يَعْطِفك ، ولا ما عليك لا لك تَصْرِفه في مُهِمَّةٍ من أمرك ، مَعْمُوهٌ[1] مُعْصَوصِرٌ[2] عن الحق اعْصِيصارًا ، لاتسكُت عن قبيح ، ولا ترعوى عن إساءة ، ولا ترجُو لله وَقارًا ، حتى دُعِيتَ فاحِشا سبَّابا ، فقِسْ شِبرَك بِفِتْرِك ، واخرُزْ زمامَ نَعْلٍ بِحَذْو[3] مثلِه قائم ، وايمُ اللهِ لئن أمكنني اللهُ منك لأدوسَنَّك دَوْسةً تَلِينُ منها فرائصُك ، ولأجعلَنَّك شريدًا في الجبال ، تلوذُ بأطراف الشِّمال ، ولأعلِّقَنَّ الرُّوميَّة الحَمْراء[4] بثَدْيَيْها ، عَلِمَ اللهُ ذلك مني[5] وقَضَى لي به عليّ ، فقِدْتُما[6] غرَّتْك العافيةُ ، وانتحَيْتَ[7] أعراضَ الرجال ،

(١) عمه كفرح: تردّد في الضلالة وتحيّر لا يهتدي لطريقه ومذهبه ، وفي كتب اللغة أن الوصف منه عمه كفرح وعامه ، ولم يرد فيها معموه ، إلا أن يقال هو مفعول بمعنى فاعل ، كما في « حِجَابًا مَسْتُورًا » أي ساترا .

(٢) قال في اللسان : « كل شيء منعته وحبسته فقد عصرته واعتصرته » فمعنى معصوصر عن الحق : ممنوع محبوس عنه ، وهو اسم فاعل من اعصوصر ، وصيغة افعوعل من أبنية المبالغة كاعذودب من عذب ، واحلولى من حلا — ولم تورد كتب اللغة هذه الكلمة — .

(٣) يقال حذا النعل بالنعل : أي قطعها وقدرها على مثالها .

(٤) يعني بها زينب بنت يوسف أخت الحجاج كما يدل على ذلك رد الحجاج الآتي ، يريد أنها تشبه الروم في لونها ، قال في اللسان : « والحمراء : العجم لبياضهم ، ولأن الشقرة أغلب الألوان عليهم ، وكانت العرب تقول للعجم الذين يكون البياض غالبا على ألوانهم مثل الروم والفرس ومن صاقبهم (أي قاربهم) إنهم الحمراء ، والعرب إذا قالوا فلان أبيض وفلانة بيضاء فمعناه الكرم في الأخلاق لا لون الخلقة : أي طاهر نقيّ من العيوب ، وإذا قالوا فلان أحمر وفلانة حمراء عنت بياض اللون ، والعرب تسمي الموالي الحمراء » وقال أيضا : « والعرب تقول امرأة حمراء أي بيضاء » وفي الحديث « خذوا شطر دينكم من الحميراء » يعني عائشة ، كان يقول لها أحيانا ياحميراء تصغير الحمراء يريد البيضاء» .

(٥) هذه الجملة في قوة أقسم بعلم الله أو بالله العليم .

(٦) أي فقدتما . (٧) أي قصدتها بالتمزيق والانتهاك .

فإنك قَدَرْتَ فبَذِخْتَ[1] ، وظفِرْتَ فتعدَّيْت ، فُرَوَيْدَكَ حتى تنظر كيف يكون مَصيرُكَ إن كانت بى وبك مُدةٌ أتعلَّق بها ، وإن تكن الأخرى ، فأرجو أن تئُولَ إلى مَذَلَّة ذليلة ، وخِزْية[2] طويلة ، ويجعل مَصيرك فى الآخرة شرَّ مصير ، والسلام » . (العقد الفريد ٣ : ١٦)

٢٨٧ — رد الحجاج على سليمان

فكتب إليه الحجاج :

« بسم ٱللّٰه الرحمن الرحيم ، من الحجاج بن يوسف إلى سليمان بن عبد الملك ، سلامٌ على من اتبع الهُدى ، أما بعدُ ، فإنك كتبتَ إلىَّ تذكُرُ أنى امرؤ مهتوكٌ عنى حجابُ الحق ، مُولَعٌ بما علىَّ لالى ، منصرفٌ عن منافعى ، تاركٌ لحظى ، مستخِفٌ بحق ٱللّٰه وحقٍّ وَلِىِّ الحق ، وتذكر أنك ذو مُصَاوَلة[3] ، وَلَعَمْرِى إنك لَصَبِى حديثُ السِّن ، تُعْذَرُ بِقِلة عقلِك ، وحَدَاثةِ سنك ، ويرقُبُ فيك غيرُكَ .

فأمّا كتابُكَ إلىّ ، فلعَمرى لقد ضَعُفَ فيه عقلُك ، واستخفّ به حِلْمُكَ ، فلِلّهِ أبوكَ ! أفلاَ انتصرتَ بقضاء ٱللّٰه دون قضائك ، ورجاءِ ٱللّٰه دون رجائك ، وأمَتَّ غيظَك ، وأَمِنْتَ عدوَّكَ ، وسَتَرْتَ عنه تدبيركَ ، ولم تُنَبِّهْه فيلتمسَ مِنْ مُكايدتك ماتلتمسُ مِنْ مكايدته ! ولكنك لم تَشِفَّ[4] بالأمور علما ،

---

(١) بذخ كفرح بذخا بالتحريك : تكبر وعلا .

(٢) الخزية بفتح الخاء وكسرها : البلية يوقع فيها .

(٣) صاوله مصاولة وصيالا : واثبه . (٤) شفّ : زاد (ونقص أيضا) .

هذه الأمة ، وليسوا منك ، أو لست قاتِلَ الحَضْرَمِىّ[1] الذى كتب إليك فيه زياد أنه على دين علىّ كرم الله وجهه ، ودينُ علىّ هو دينُ ابن عمه صلى الله عليه وسلم الذى أجلسك مَجْلِسَك الذى أنت فيه ، ولولا ذلك كان أفضلَ شَرفِكَ وشرفِ آبائك تَجَشُّمُ الرِّحلتين : رِحْلَةِ الشتاء والصيف[2] ، فوَضَعَهَا

ذلك الكثير الواسع ، وحتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن ، وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم ، فلبثوا بذلك ماشاء الله .

ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان : « انظروا إلى من قامت عليه البينة أنه يحب عليا وأهل بيته فامحوه من الديوان وأسقطوا عطاءه ورزقه » وشفع ذلك بنسخة أخرى : من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به واهدموا داره » فلم تكن البلاء أشد ولا أكثر منه بالعراق ، ولاسيما بالكوفة حتى إن الرجل من شيعة علىّ عليه السلام ليأتيه من يثق به ، فيدخل بيته فيلقى إليه سره ويخاف من خادمه ومملوكه، ولايحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمنّ عليه ، فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر ، ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة ، وكان أعظم الناس فى ذلك بلية القراء المراءون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك ، فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ، ويقربوا مجالسهم ، ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل . حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدى الديانين الذين لايستحلون الكذب والبهتان ، فقبلوها ورووها وهم يظنون أنها حق ، ولو علموا أنها باطلة لما رووها ولا تدينوا بها .

فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن على عليه السلام (سنة ٥٠) فازداد البلاء والفتنة ، فلم يبق أحد من هذا القبيل إلا وهو خائف على دمه ، أو طريد فى الأرض ، ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين عليه السلام ، وولى عبد الملك بن مروان ، فاشتد على الشيعة وولى عليهم الحجاج بن يوسف ، فتقرّب إليه أهل النسك والصلاح والدين ببغض علىّ وموالاة أعدائه وموالاة من يدعى قوم من الناس أنهم أيضا أعداؤه ، فأكثروا فى الرواية فى فضائلهم وسوابقهم ومناقبهم ، وأكثروا من الغض من علىّ عليه السلام وعيبه والطعن فيه والشنآن له ، حتى إن إنسانا وقف للحجاج ، ويقال إنه جد الأصمعى عبد الملك بن قريب ، فصاح به أيها الأمير إن أهلى عقونى فسمونى عليا ، وإنى فقير بائس ، وأنا إلى صلة الأمير محتاج ، فتضاحك له الحجاج ، وقال : للطف ماتوسلت به ، قد وليتك موضع كذا » اه .

ولاننس أن الشيعة وضعوا أحاديث مختلفة فى صاحبهم ، حملهم على وضعها عداوة خصومهم — انظر ابن أبى الحديد م ٣ ص ١٧ .

(١) يعنى شريك بن شداد الحضرمى ، وكان من أصحاب حجر بن عدى الذين بعث بهم زياد إلى معاوية وقتل مع حجر .

(٢) كان للقرشيين فى الجاهلية رحلتان كل عام : رحلة فى الشتاء إلى اليمن ، ورحلة فى الصيف إلى

اُللهُ عنكم بنا، مِنّةً عليكم ، وقلتَ فيما قلت: لا تَرُدَّنَّ هذه الأمةَ فى فِتنة ، وإنى لا أعلم لها فتنةً أعظمَ من إمارتك عليها ، وقلتَ فيما قلت : انظر لنفسك ولدينك ولأمة محمد ، وإنى واُللهِ ما أعرِفُ أفضلَ من جهادك ، فإنْ أفعل فإنه قُرْبةٌ إلى ربى ، وإن لم أفعله فأستغفرُ اُلله لدينى ، وأسأله التوفيق لِمَا يحبُّ ويرضى ، وقلت فيما قلت : متى تَكِدْنى أَكِدْك[1]، فَكِدْنى يا معاوية ما بَدَالَكَ ، فلعمرى لَقَدِيمًا يُكاد الصالحون ، وإنى لأرجو أن لا تضرَّ إلا نفسَك ، ولا تَمْحَق إلا عملَك ، فكِدْنى ما بدا لك ، واتق الله يا معاوية : واعلم أن لله كتابًا لا يُغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها ، واعلم أن الله ليس بناسٍ لك قَتْلَك بالظِّنَّة ، وأخْذَك بالتُّهَمَة ، وإمارتَكَ صَبِيًّا يَشْرَب الشراب ، ويلعب بالكِلاب[2] ، ما أراك إلا

الشام ، فيمتارون ويتجرون ، وكانوا يخرجون بتجارتهم قوافل عظيمة وقد ذكر الطبرى أن إحدى هذه القوافل بلغت خمسمائة وألف بعير ، وكانوا فى رحلتهم آمنين لأنهم أهل حرم الله وولاة بيته ، ذلك إلى ما أخذه لهم بنو عبد مناف من الإيلاف أى العهد بتأمين التجارة ، وكان هاشم بن عبد مناف قد خرج إلى الشام وأخذ إيلافا منها لمن تجر إليها من قريش ، وخرج المطلب بن عبد مناف فأخذ إيلافا من اليمن ، وأخذ عبد شمس بن عبد مناف إيلافا من الحبشة ، وأخذ نوفل بن عبد مناف إيلافا من فارس (انظر ذيل الأمالى ص ٢٠٤) ، فكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأقطار آمنين فى أسفارهم وانتقالهم شتاء وصيفا لا يتعرض لهم ، على حين أن الناس كانوا يتخطفون من حولهم ويغار عليهم ، وكان أبو سفيان يرأس العير التى تتردد بين مكة والشام ، ولا يغيبن عنك ما روى فى كتب السيرة فى غزوة بدر من : «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع بأبى سفيان بن حرب مقبلا من الشام فى عير لقريش عظيمة فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم » .

(١) وهذه العبارة أيضا لم ترد فى كتاب معاوية إليه .

(٢) روى المسعودى فى مروج الذهب (ج ٢ : ص ٩٤) قال :

« وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب ، وجلس ذات يوم على شرابه ، وعن يمينه ابن زياد — بعد قتل الحسين — فأقبل على ساقيه فقال :

اسقنى شربة تروى مشاشى ثم مل فاسق مثلها ابن زياد

صاحب السر والأمانة عندى ولتسديد مغنمى وجهادى

قد أَوْبَقْتَ(١) نفسَك ، وأهلكتَ دينك ، وأضَعْتَ الرعيَّةَ ، والسلام » .

(الإمامة والسياسة ١ : ١٣١)

«والمشاش كغراب : النفس والطبيعة » ثم أمر المغنين فغنوا ، وعلب على أصحاب يزيد وعماله ما كان يفعله من الفسوق ، وفى أيامه ظهر الغناء بمكة والمدينة واستعملت الملاهى ، وأظهر الناس شرب الشراب وكان له قرد يكنى بأبى قيس ، يحضره مجلس منادمته ، ويطرح له متكأ ، وكان قردا خبيثا ، وكان يحمله على أتان وحشية ، قد ريضت وذللت لذلك بسرج ولجام ، ويسابق بها الخيل يوم الحلبة ، فجاء فى بعض الأيام سابقا ، فتناول القصبة ودخل الحجرة قبل الخيل ، وعلى أبى قيس قباء من الحرير الأحمر والأصفر مشمر (مخطط) وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات ألوان بشقائق (أى مصبغة بمثل الشقائق) وعلى الأتان سرج من الحرير الأحمر منقوش ملمع بأنواع من الألوان ، فقال فى ذلك بعض شعراء الشام فى ذلك اليوم .

تمسك أبا قيس بفضل عنانها فليس عليها إن سقطت ضمان

ألا من رأى القرد الذى سبقت به جياد أمير المؤمنين أتان

وروى ابن طباطبا فى الفخرى ص ٤٩ قال :

« كان يزيد بن معاوية أشد الناس كلفا بالصيد لا يزال لاهيا به ، وكان يلبس كلاب الصيد الأساور من الذهب ، والجلال المنسوجة منه « الجلال بالكسر جمع جل بالضم والفتح : ماتلبسه الدابة لتصان به » ويهب لكل كلب عبدا يخدمه ، قيل إن عبيد الله بن زياد أخذ من بعض أهل الكوفة أربعمائة ألف دينار جناية ، وجعلها فى خزائن بيت المال ، فرحل ذلك الرجل من الكوفة وقصد دمشق ليشكو حاله إلى يزيد — وكانت دمشق فى تلك الأيام بها سرير الملك — فلما وصل إلى ظاهر دمشق ، سأل عن يزيد فعرّفوه أنه فى الصيد ، فكره أن يدخل دمشق ، وليس يزيد حاضرا فيها ، فضرب خيمه ظاهر المدينة ، وأقام به ينتظر عود يزيد من الصيد ، فبينا هو فى بعض الأيام جالس فى خيمته ، لم يشعر إلا بكلبة قد دخلت عليه ، وفى قوائمها الأساور من الذهب ، وعليها جل يساوى مبلغا من المال كثيرا ، وقد بلغ منها العطش والتعب ، وكادت تموت ، فعلم أنها ليزيد وأنها قد شذّت منه ، فقام إليها وقدّم لها ماء ، وتعهدها بنفسه ، فما شعر إلا بشاب حسن الصورة على فرس جميل ، وعليه زى الملوك ، وقد علته غبرة ، فقام إليه وسلم عليه ، فقال له : أرأيت كلبة عابرة بهذا الموضع ؟ فقال : نعم يامولانا ، هاهى فى الخيمة ، قد شربت ماء واستراحت ، وقد كانت على غاية من العطش والتعب ، فلما سمع يزيد كلامه نزل ودخل الخيمة ونظر إلى الكلبة وقد استراحت ، فجذب مجلها ليخرج ، فشكا الرجل اليه حاله وعرفه ما أخذ منه ابن زياد ، فطلب دواة وكتب إليه برد ماله وخلعة سنية ، وأخذ الكلبة وخرج ، فرد الرجل من ساعته إلى الكوفة ولم يدخل دمشق » .

وقال الحسن البصرى : « أربع خصال كن فى معاوية ، لولم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة : انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة ، واستخلافه ابنه بعده سكيرا خميرا ، يلبس الحرير ، ويضرب بالطنابير ، وادعاؤه زيادا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الولد للفراش وللعاهر الحجر » ، وقتله حجرا ، ويلا له من حجر وأصحاب حجر مرتين » — انظر تاريخ الطبرى ٦ : ١٥٧ والمنية والأمل ص ١٥ .

(١) أوبقت : أهلكت .

٧١ — بين معاوية وسعيد بن العاص

فلما جاوب القومُ معاوية بما جاوبوه من الخلاف لأمره والكَرَاهِيَة لبيعته ليزيد، كتب إلى سعيد بن العاص يأمره أن يأخذ أهل المدينة بالبيعة ليزيد أخذا بغلظة وشدة، ولا يدع أحداً من المهاجرين والأنصار وأبنائهم حتى يبايعوا، وأمره أن لا يحرِّكَ هؤلاء النَّفرَ ولا يَهِيجهم، فلما قَدِم كتاب معاوية، أخَذَهم بالبيعة أعنفَ ما يكونُ من الأخذ وأغلَظَه، فلم يبايعه أحد منهم، فكتب إلى معاوية:

« إنه لم يبايعني أحد، وإنما الناس تَبَع لهؤلاء النفر، فلو بايعوك بايعك الناس جميعاً، ولم يتخلف عنك أحد ».

فكتب إليه معاوية يأمره أن لا يحرّكهم إلى أن يَقْدَم، ثم قَدِم معاوية المدينة حاجا، وكان من أمره معهم ما كان[1]   (الإمامة والسياسة ١ : ١٣٢)

---

(١) وذلك أنه لما دنا منها استقبله أهلها، فيهم: عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والحسين ابن علي، وعبد الرحمن بن أبي بكر، فأقبل على ابن أبي بكر، فسبه وقال: لا مرحبا بك ولا أهلا، فلما دخل الحسين عليه قال: لا مرحبا بك ولا أهلا، بدنة يترقرق دمها والله مهريقه « والبدنة بالتحريك من الإبل والبقر كالأضحية من الغنم تهدى إلى مكة، للذكر والأنثى » فلما دخل عليه ابن الزبير، قال: لا مرحبا بك ولا أهلا، ضب تلعة، مدخل رأسه تحت ذنبه « والتلعة كوردة: ما ارتفع من الأرض وما انهبط منها » فلما دخل عبد الله بن عمر، قال. لا مرحبا بك ولا أهلا، وسبه، فقال: إني لست بأهل لهذه المقالة، قال: بلى، ولما هو شر منها، فدخل معاوية المدينة وأقام بها، وخرج هؤلاء الرهط معتمرين، فلما كان وقت الحج خرج معاوية حاجا، فأقبل بعضهم على بعض، فقالوا: لعله قد ندم فأقبلوا يستقبلونه، فلما دخل ابن عمر، قال. مرحبا بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن الفاروق، هاتوا لأبي عبد الرحمن دابة، وقال لابن أبي بكر: مرحبا بشيخ قريش وسيدها وابن الصديق، هاتوا له دابة، وقال لابن الزبير: مرحبا بابن حواري رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن عمته، هاتوا له دابة، وقال للحسين. مرحبا بابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيد شباب المسلمين قربوا لأبي عبد الله دابة، وجعلت ألطافه « جمع لطف بالتحريك وهو الهدية » تدخل عليهم ظاهرة

٧٢ — كتاب معاوية إلى ابنه يزيد

وكتب معاوية إلى ابنه يزيد ـ وقد بلغه مُقارَفتُهُ اللّذاتِ ، وانهما كُه في الشهوات ـ :

يراها الناس ، ويحسن إذنهم وشاراتهم ، وحملهم على الدواب ، وخرج حتى أتى مكة فقضى حجه ، ولما أراد الشخوص أمر بأثقاله فقدمت ، وأمر بالمنبر فقرب من الكعبة ، ثم أرسل إليهم ، فاجتمعوا وقالوا : من نكلمه ؟ فأقبلوا على الحسين فأبى ، فقالوا لابن الزبير : هات فأنت صاحبنا ، فدخلوا عليه ، فرحب بهم وقال : قد علمتم نظرى لكم ، وتعطفى عليكم ، وصلتى أرحامكم . ويزيد أخوكم وابن عمكم ، وإنما أردت أن أقدمه باسم الخلافة ، وتكونوا أنتم تأمرون وتنهون ، فسكتوا ، فقال : أجيبونى ، فسكتوا ، فقال : أجيبونى ، فسكتوا ، فقال لابن الزبير : هات فأنت صاحبهم ، قال : « نخيرك بين إحدى ثلاث ، أيها أخذت فهى لك رغبة ، وفيها خيار : إن شئت فاصنع فينا ما صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبضه الله ولم يستخلف أحداً ، فرأى المسلمون أن يستخلفوا أبا بكر ، فدع هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم ، وإن شئت فما صنع أبو بكر ، عهد إلى رجل من قاصية قريش ، وترك من ولده ومن رهطه الأدنين من كان لها أهلا ، وإن شئت فما صنع عمر ، جعلها شورى فى ستة نفر من قريش يختارون رجلا منهم ، وترك ولده وأهل بيته ، وفيهم من لو وليها لكان لها أهلا » فقال معاوية : هل غير هذا ؟ قال : لا ، ثم قال للآخرين : ما عندكم ؟ قالوا : نحن على ما قال ابن الزبير ، فقال معاوية « إنى أتقدم إليكم وقد أعذر من أنذر ، إنى قائم فقائل مقالة ، فإياكم أن تعترضوا علىّ حتى أتمها ، فإن صدقت فعلىّ صدقى ، وإن كذبت فعلىّ كذبى ، وأقسم بالله لئن ردّ علىّ رجل منكم كلمة فى مقامى هذا لاترجع إليه كلمته حتى يضرب رأسه ، فلا ينظر امرؤ منكم إلا إلى نفسه ، ولا يبقى إلا عليها » وأمر أن يقوم على رأس كل رجل منهم رجلان بسيفهما ، فإن تكلم بكلمة يرد بها عليه قوله قتلاه ، وخرج وأخرجهم معه ، حتى رقى المنبر ، وحف به أهل الشأم ، واجتمع الناس ، فقام خطيباً . فقال بعد حمد الله والثناء عليه : « إنا وجدنا أحاديث الناس ذات عوار « العوار مثلثة : العيب » قالوا إنّ حسينا وابن أبى بكر وابن عمر وابن الزبير لم يبايعوا ليزيد ، وهؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لانبرم أمراً دونهم ، ولا نقضى أمراً إلا عن مشورتهم ، وإنى دعوتهم فوجدتهم سامعين مطيعين ، فبايعوا وسلموا وأطاعوا » .

فقال أهل الشأم : وما يعظم من أمر هؤلاء ؟ ائذن لنا فنضرب أعناقهم ، لانرضى حتى يبايعوا علانية ، فقال معاوية : سبحان الله ! ما أسرع الناس إلى قريش بالشر ، وأحلى دماءهم عندهم ، أنصتوا فلا أسمع هذه المقالة من أحد ، ودعا الناس إلى البيعة فبايعوا . ثم قربت رواحله فركب ومضى . فقال الناس للحسين وأصحابه : قلتم لانبايع ، فلما دعيتم وأرضيتم بايعتم . قالوا : لم نفعل ، قالوا : بلى قد فعلتم وبايعتم ، أفلا أنكرتم ؟ قالوا : خفنا القتل ، وكادكم بكم وكادنا بكم ـ انظر ذيل الأمالى ص ١٧٧ والعقد الفريد ٢ : ٢٤٨ والإمامة والسياسة ١ : ١٣٨

« من معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين إلى يزيد بن معاوية :

أما بعدُ : فقد أدَّتْ ألسِنةُ التَّصْرِيحِ إلى أُذُنِ العناية بك[١] ما فَجَعَ الأمرَ فيك ، وباعَدَ الرَّجاءَ منك ، إذ[٢] ملأتَ العيونَ بَهْجةً ، والقلوبَ هَيْبةً ، وترامتْ إليك آمالُ الراغبين ، وهِمَمُ المتنافسين ، وشَحَّتْ بك فِتْيانُ قريش وكُهول أهلك ، فما يَسُوغُ لهم ذِكْرُك إلا على الجِرَّةِ المُهَوَّعةِ[٣] ، والكَظِّ الجَشْءِ[٤] .

اقتحمتَ البوائِقَ[٥] ، وانقَدْتَ المعَايِرِ[٦] ، واعتَضْتَها من سُمُوِّ الفضل ، ورفيع القدر ، فليتك (يزيدُ) إذ كنتَ لم تكن ، سَرَرْتَ يافعا[٧] ناشئاً ، وأثكلتَ كَهْلاً ضَالِعا ، فَوَاحَزَناهُ[٨] عليك (يزيدُ) ! وياحَرَّ صَدْرِ

---

(١) أى إلى أذن ذى العناية بك — يريد به معاوية نفسه — والمعنى : لقد أفضت بأنبائك ألسنة الرقباء عليك إلى مسامع أبيك ذى العناية الشديدة بشأنك ، وصرحت له بما تقارفه من المنكرات والمثالب .

(٢) إذ هنا ظرفية . (٣) الجرة : ما يفيض به البعير فيأكله ثانية ، والمهوعة ما أكل فقيأه إياه ، والمراد أنهم يستثقلون ذكره . (٤) كظه الطعام كظا : ملأه حتى لا يطيق النفس ، والجشء كشمس : الكثير .

(٥) البوائق : الدواهى جمع بائقة ، والمعنى اقترفت الآثام والمعاصى . .

(٦) المعاير : المعايب ؛ قالت ليلى الأخيلية :

لعمرك ما بالموت عار على امرئ   إذا لم تصبه فى الحياة المعاير

(٧) أيفع الغلام ويفع كفتح يفوعا : شب ، فهو يافع ، ولم يستعمل اسم الفاعل من الرباعى ، وثكلت المرأة ولدها (كتعب) : فقدته ، وأثكلها الله ولدها : أفقدها إياه ، والمعنى : وأفقدتنا الأمل فيك وأحزنتنا ، والكهل : من جاوز الثلاثين ، أو أربعا وثلاثين إلى إحدى وخمسين ، والضالع : المائل ضلع عنه كفتح ضلعاً بالتسكين : مال ، أى مائلا إلى الهوى منحرفا عن طريق الرشاد .

(٨) جاء فى شرح التبيان للعكبرى على ديوان المتنبى ج ٢ : ص ٢٥٥ عند الكلام على قوله :

واحر قلباه ممن قلبه شبم   ومن بجسمى وحالى عنده سقم

« واستجلب هاء السكت (فى واحر قلباه) وأثبتها فى الوصل كما ثبتت فى الوقف ، والعرب تفعل ذلك كقراءة ابن ذكوان « فبهداهم اقتده » بكسر الهاء وإثبات الياء وصلا ، وكقراءة هشام بكسر الهاء . وحرك الهاء أبو الطيب لسكونها وسكون الألف قبلها ، وللعرب فى ذلك أمران : منهم من حرك بالضم تشبيها بهاء الضمير ، وأنشدوا : « يامرحباه بحمار عفرا » ومنهم من يحرك

المُشْكَل بك ، ما أَشْمَتَ فِتْيانَ بنى هاشم ! وأذَلَّ فِتيانَ بنى عبد شمس[١] عند تفاوُض المَفاخِر ودراسة المَناقِب ! فَمَنْ لِصلاحِ ما أفسدتَ ، ورَتْق ما فتَقْتَ؟ هيهاتَ ! خَمَشَتِ[٢] الدُّرْبَةُ وجهَ التصبُّر بك ، وأَبَتِ الجِنايةُ إلا تحدُّرًا على الألسن ، وحلاوةً على المناطِق ، ما أربح فائدةً نالوها ، وفُرْصَةً انتهزوها !

انتبِهْ (يزيدُ) لِلَّفظَة[٣] ، وشاوِرِ الفِكْرة ، ولا تكن إلى سَمْعِك أسرعَ من معناها إلى عقلك ، وَاعلم أن الذى وطَّأك[٤] وسْوسَةَ الشيطان ، وزَخرفةَ السُّلطان ، مما حَسُن عندك قُبحُه ، واحْلَوْلَى عندك مُرُّه ، أمرٌ شَرِكَك فيه السَّوادُ[٥] ، ونافَسَكَهُ الأَعْبُدُ ، لا لِأَثَرة تدَّعيها أوجَبَتْها لك الإِمْرَة ، وأضعتَ بها من قدرك ، فأمكنْتَ بها من نفسك ، فكأنك شانِئُ[٦] نفسك ، فَمَن لهذا كلِّه ؟

اعلم يا يزيد أنك طَريدُ الموتِ وأَسير الحياة ، بلغنى أنك اتخذتَ المَصانع[٧] والمجالس للملاهى والمزامير ، كما قال الله تعالى : « أَتَبْنُونَ بِكُلِّ

بالكسر على مايوجد كثيرا فى الكلام عند اللقاء البا كين ، وأنشدوا :

يارب ياربّاه إياك أسل عفراء ياربّاه من قبل الأجل

فى كلام كثير ارجع إليه هنالك ، وانظر أيضاً خزانة الأدب للبغدادى ج ٤ : ص ٥٩٢ ولسان العرب ج ٢٠ : ص ٣٧٠ ، ومما أورده صاحب اللسان فى ذلك قول قيس العامرى فى ليلى :

فناديت ياربّاه أوّل سألتى لنفسى ليلى ثم أنت حسيبها

قال وهو كثير فى الشعر ، وليس شىء منه بحجة عند أهل البصرة .

(١) يعنى قومه ، فهو معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس ، والتفاوض : الاشتراك فى كل شىء ، والمجاراة فى الأمر . والمناقب : المفاخر جمع منقبة بفتح الميم والقاف.

(٢) خمشت : خدشت ، والدربة : العادة والجرأة على الأمر ، والمعنى دربتك على اجتراح المعاصى والسيئات . (٣) هكذا فى الأصل ، وربما كانت « للعظة » .

(٤) أى لين لك وسهل عليك الانغماس فى الشهوات . (٥) السواد من الناس : عامتهم .

(٦) شانئ : مبغض . (٧) المصانع : المبانى من القصور والحصون .

ريعٍ[١] آيَةً تَعْبَثُونَ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ » وأجهرتَ[٢] الفاحِشةَ حتى اتخذتَ سَريرتَها عندكَ جَهْرا .

اعلم (يا يزيد) أن أول ما سَلَبَكه السُّكرُ معرفةُ مواطِنِ الشكر لله على نِعمه المتظاهرة[٣] ، وآلائِه المتواترة ، وهى الجَرْحَة العُظمى ، والفَجْعة الكبرى : تركُ الصلواتِ المفروضاتِ فى أوقاتها ، وهو من أعظم ما يَحْدُث من آفاتها ، ثم استحسانُ العيوبِ ، وركوبُ الذنوب ، وإظهارُ العورة ، وإباحة السر ، فلا تأمَنْ نفسك على سِرِّك ، ولا تَعْقِد على فعلك ، فما خَيرُ لَذَّة تُعْقِبُ الندمَ ، وتعفِّى[٤] الكرمَ :

وقد توقَّف أمير المؤمنين بين شَطْرين من أمرك ، لما يتوقّعه من غَلَبة الآفة ، واستهلاكِ الشهوة ، فكن الحاكمَ على نفسك ، واجعل المحكومَ عليه ذهنَك ، تَرْشُد إن شاء الله تعالى .

ولْيَبْلُغْ أميرِ المؤمنين ما يَرُدُّ شارِداً من نومه ، فقد أصبح نُصبَ الاعتزال من كل مُؤانِس ، ودَريئةَ[٥] الألسن الشامتة ، وفقّك الله فأحسن » . (صبح الأعشى ٦ : ص ٣٨٧)

---

(١) الريع : المرتفع من الأرض ، آية : أى أبنية وقصوراً يفخرون بها ، ويعبثون بالفقراء ويتطاولون عليهم من أجلها ، والمصانع فى الآية قيل : الأبنية ، وقيل : هى أحباس ، تتخذ للماء واحدها مصنعة ومصنع . وهذه الآية نزلت فى عاد قوم هود .

(٢) جهر بالكلام وأجهر به ، ويعديان بغير حرف فيقال جهر الكلام وأجهره : أعلنه وأظهره

(٣) المتظاهرة : المتوالية المترادفة ، وأصله من ظاهر بين الثوبين إذا لبس أحدهما على الآخر ، والآلاء : النعم ، جمع إلى كحمل وألو وألى كسمس وألى كعصا وإلى كرضا .

(٤) تمحو وتزيل ، وأصله من عفت الريح المنزل إذا درسته .

(٥) الدريئة : الحلقة يتعلم عليها الطعن والرمى ، وفى الأصل « ودرأه » وهو تحريف .

خلافة يزيد بن معاوية

٧٣ — كتاب يزيد إلى الوليد بن عتبة

وبويع ليزيد بن معاوية بالخلافة بعد وفاة أبيه فى رجب سنة ٦٠ هـ ، وأميرُ المدينة الوليدُ بن عُتْبة بن أبى سُفيان ، ولم يكن ليزيد همٌّ حين وَلِى إلا بيعة النفر الذين أبَوُا الإجابة إلى بَيعته حين دعاهم إليها أبوه ، فكتب إلى الوليد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من يزيد أمير المؤمنين إلى الوليد بن عُتْبة :

أما بعد : فإن معاوية كان عبداً من عباد الله ، أكْرَمه الله واستخلفه وخَوَّله[1] ومكّن له ، فعاش بقَدَر ، ومات بأجلٍ ، فرحِمه الله ، فقد عاش محموداً ، ومات برًّا تقيًّا والسلام » .

*

وكتب إليه فى صحيفة كأنها أذن فَأْرة :

« أما بعد : فخُذ حُسَيْنا ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير بالبَيعة أخذا شديداً ليست فيه رُخْصةٌ[2] حتى يبايعوا ، والسلام » .

وأبى الحسين عليه السلام أن يبايع ليزيد وخرج إلى مكة .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٨٨)

---

(١) خوّله الله تعالى المال : أعطاه إياه متفضلا . (٢) الرخصة : التسهيل .

صـــورة أخرى

وروى ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة ، قال:

مات معاوية وكَان يزيد غائباً ، فلما قدم دِمَشْقَ بعد موت أبيه كتب إلى عامل المدينة[1] :

« أما بعد : فإن معاوية بن أبي سفيان كان عبداً استخلفه الله على العباد، ومَكَّن له فى البـلاد ، وكَان من حادثِ قَضاءِ الله « جَلَّ ثَناؤه ، وتقدَّسَتْ أسماؤه » فيه ما سَبَق فى الأوّلين والآخرين ، لم يُدْفَع عنه مَلِكٌ مُقرَّب ، ولا نبي مُرْسَل ، فعاش حميـداً ، ومات سعيداً ، وقد قلَّدَنا اللهُ عزّ وجل ما كَان إليه ، فيالها مصيبةً ما أجلَّها ! و نعمةً ما أعظمَها! نَقْل الخِلافة ، وفَقْد الخليفة، فنَستَوْزِعه[2] الشكرَ ، ونَسْتَلْهِمُهُ الحمدَ ، ونسأله الخِيَرة[3] فى الدّارَيْن معا ، ومحمودَ العُقْبَى فى الآخرة والأولَى ، إنه ولِيُّ ذلك ، وكلُّ شيء بيـده لا شريك له .

وإن أهلَ المدينة قومنا ورجالنا ومَن لم نزل على حُسْنِ الرأى فيهم ،

---

(١) نص عبارته « كتب إلى خالد بن الحكم وهو عامل المدينة » وهو خطأ ، إذ لا يعرف من ولاة المدينة فى هذا العهد وال بذلك الاسم ، ولعل الأصل « إلى مروان بن الحكم » وهذا خطأ أيضاً ، أجل إن مروان ولى المدينة فى خلافة معاوية ، ولكنّ واليها حين وفاته هو الوليد بن عتبة ابن أبي سفيان كما تقدم لك فى الكتاب السابق ــ عن تاريخ الطبرى ــ وجاء أيضاً فى صبح الأعشى ج ٤ : ص ٢٩٥ « ولى معاوية على المدينة سنة ٤٢ هـ مروان بن الحكم ، ثم عزله سنة ٤٩ هـ وولى مكانه سعيد بن العاص ، ثم عزله سنة ٥٤ هـ ورد إليها مروان بن الحكم ، ثم عزله سنة ٥٩ هـ وولى مكانه الوليد بن عتبة بن أبي سفيان ثم عزله يزيد عن المدينة والحجاز ، وولى مكانه عمرو ابن سعيد الأشدق ، ثم عزله سنة ٦١ هـ وأعاد الوليد بن عتبة » .

(٢) استوزع الله تعالى شكره : استلهمه .

(٣) تخير الشيء : اختاره ، والاسم الخيرة بسكون الياء وفتحها والأخيرة أعرف ، وهى الاسم من قولك اختاره الله تعالى.

والاستعدادِ بهم ، واتباع أَثَرِ الخليفة فيهم ، والاحتذاء على مثاله لديهم ، من الإقبال عليهم ، والتقبُّل من مُحْسنهم ، والتجاوز عن مسيئهم ، فبايع لنا قَوْمَنا ومَن قِبَلَك من رجالنا بَيْعةً منشرحةً بها صدورُكم ، طيِّبةً عليها أنفسُكم ، وليكن أوّل مَن يبايعك من قومنا وأهلنا الحسين، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن عباس، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر ، ويَحلفون على ذلك بجميع الأَيْمان اللازمة ، ويحلفون بصَدَقَةِ أموالهم غيرِ عُشْرِها ، وحُرِّيَّة[1] رَقيقهم ، وطَلاق نسائهم ، بالثّبات على الوفاء بما يُعْطون من بَيْعتهم ، ولا قُوَّةَ إلا بالله والسلام » . (الإمامة والسياسة ١ : ١٤٩)

٧٤ — كتاب أهل الكوفة إلى الحسين بن على

واجتمعت الشِّيعة بالكوفة فى منزل سليمان بن صُرَد ، فذكروا هلاك معاوية ، فحمدوا الله عليه ، فقال سليمان : إن معاوية قد هلك ، وإن حسينا قد تَقَبَّضَ على القوم ببيعته ، وقد خرج إلى مكة ، وأنتم شيعته وشيعة أبيه ، فإن كنتم تعلمون أنكم ناصروه ومجاهِدُو عدوه فاكتبوا إليه، وإن خفتم الوَهَل[2] والفشَل فلا تغُرّوا الرجل من نفسه » قالوا : لا بل نقاتل عدوه ، ونقتل أنفسنا دونه ، قال : فاكتبوا إليه ، فكتبوا إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لحسين بن علىّ من سليمان بن صُرَد، والمسَيَّب ابن نَجَبَة، ورِفاعة بن شَدّاد، وحَبِيب بن مُظاهِر، وشيعته من المؤمنين والمسلمين من أهل الكوفة .

---

(١) فى الأصل « وجرية » وهو تصحيف . (٢) الوهل : الضعف والفزع والفشل .

سلام عليك . فإنا نَحمَد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فالحمد لله الذى قَصَم عدوَّك الجبَّارَ العَنِيدَ الذى انْتَزَى[1] على هذه الأمة ، فابتزَّها أمرَها ، وغَصَبَها فَيْئَها ، وتأمَّر عليها بغير رِضًى منها ، ثم قتل خِيارها ، واستبقى شِرارها ، وجعل مال الله دُولةً[2] بين جَبَابِرتها وأغنيائها ، فبُعْداً له كما بَعِدَتْ[3] ثمود .

إنه ليس علينا إمام فاقْدَم علينا لعلَّ اللهَ أن يَجْمَعَنا بك على الهدى ، والنعمانُ بن بَشِير فى قصر الإمارة ، لسنا نجتمع معه فى جُمُعة ، ولا نخرج معه إلى عيد ، ولو قد بلغَنا أنك قد أقبلتَ إلينا أخرجناه من الكوفة حتى نُلحقه بالشأم ، والسلام ورحمة الله عليك » .

ثم سرَّحوا بالكتاب مع عبد الله بن سبع الهَمْدانى ، وعبد الله بن وَال ، وأمروهما بالنَّجاء[4] ، فخرج الرجلان مسرِعَيْن حتى قَدِما على حسين لعشرٍ مَضَيْن من رمضان بمكة ، ثم سَرَّحُوا إليه قيس بن مُسْهِرٍ الصَّيداوى ، وعبد الرحمن ابن عبد الله الأَرْحَبِىّ ، وعُمَارة بن عُبَيد السَّلُولِىّ ، فحملوا معهم نحوا من ثلاث وخمسين صحيفة ، من الرجل والاثنين والأربعة .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٩٧ ، والإمامة والسياسة ٢ : ٣ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٤ : ٨)

---

(١) انتزى : وثب ، وابتزها : سلبها .

(٢) الدولة بالضم فى المال ، يقال : صار الفىء دولة بينهم : يتداولونه يكون مرة لهذا ومرة لهذا . والدولة بالفتح فى الحرب : أن تدال إحدى الفئتين على الأخرى ، يقال : كانت لنا عليهم الدولة ، وقيل هما سواء فيهما يضمان ويفتحان ، قال الفراء فى قوله تعالى « كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ » قرأها الناس برفع الدال إلا السلمى ، والله أعلم ، فإنه قرأها بنصب الدال .

(٣) البعد بالضم والبعد محركة : النأى والهلاك ، وفعلهما ككرم وكفرح .

(٤) النجاء : الإسراع .

٧٥ — كتاب ثان

ثم سرَّحوا إليه هانئ بن هانئ السُّبَيعى ، وسعيد بن عبد الله الْحَنفى ، وكتبوا معهما :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لحسين بن علىّ من شيعته من المؤمنين والمسلمين :

أما بعد : فَحَىَّ هَلاَ[1] ، فإن الناس ينتظرونك ، ولا رأىَ لهم فى غيرك ، فالعجلَ العجلَ ، والسلام عليك » . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٩٧)

٧٦ — كتاب ثالث

وكتب شَبَث بن رِبْعِىّ ، وحَجّار بن أَبْجَر ، ويزيد بن الحارث ، ويزيد بن رُوَيْم ، وعَزْرَة بن قيس ، وعمرو بن الحجّاج الزُّبَيْدِىّ ، ومحمد ابن عُمَيْر التميمىّ :

« أما بعد : فقد اخضرّ الجنابُ ، وأينعت الثمار ، وطَمَت الجِمامُ[2] ، فإذا شئتَ فاقْدَمْ على جُندٍ لك مُجَنَّد ، والسلام عليك » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٩٧)

---

(١) حى هلا (بدون تنوين وبه) على كذا وإلى كذا : أى أقبل وأسرع .

(٢) الجمام : جمع جم بالفتح ، وهو معظم الماء . وطمى الماء : علا . وطمّ : غمر .

٧٧ — رد الحسين على أهل الكوفة

وتلاقت الرُّسُل كلها عنده، فقرأ الكتب ، وسأل الرسل عن أمر الناس، ثم كتب مع هانئ بن هانئ السَّبِيْعِي ، وسعيد بن عبد الله الحنفى ـ وكانا آخر الرسل ـ :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من حسين بن على إلى المَلَأ من المؤمنين والمسلمين ، أما بعدُ : فإن هانئًا وسَعِيداً قَدِما علىّ بكتبكم ، وكانا آخرَ مَن قَدِم علىّ من رُسُلكم ، وقد فهِمتُ كل الذى اقتصَصْتم وذكرتمُ ومقالةَ جُلِّكم : « إنه ليس علينا إمامٌ فأَقْبِلْ لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى والحق » وقد بعثت إليكم أخى وابنَ عمى[1] ، وثِقَتى من أهل بيتى ، وأمرته أن يكتب إلىّ بحالكم وأمْرِكم ورَأْيكم ، فإن كتب إلىّ أنه قد أجمع رأىُ مَلَئِكم ، وذوى الفضل والحِجَا منكم على مثلِ ما قَدِمَتْ علىّ به رُسُلكم ، وقرأتُ فى كتبكم ، أَقْدَمْ عليكم وَشِيكا[2] إن شاء ٱللهُ ، فلعَمرِى ما الإمامُ إلا العامِلُ بالكتاب ، والآخذ بالقِسط ، والدائن بالحق ، والحابسُ نفسَه على ذاتِ ٱللهِ ، والسلام» . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٩٧ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٤ : ٨)

٧٨ — كتاب مسلم بن عقيل إلى الحسين

وبعث الحسين عليه السلام إلى ابن عمه مُسْلِم بن عَقيل بن أبى طالب ، فقال له : سر إلى الكوفة فانظر ما كتبوا به إلىّ ، فإن كان حقًّا خرجنا

---

(١) بعث إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل . (٢) سريعاً .

إليهم ، فخرج مسلم حتى أتى المدينةَ ، واستأجر دَليلين من قيس ، فأقبلا به فضَلاَّ الطريقَ وجارا ، وأصابهم عطش شديد ، فكتب مسلم مع قيس بن مُسْهِر الصَّيداوى إلى الحسين :

« أما بعد : فإنى أقبلتُ من المدينة ، معى دَليلان لى ، فجارا عن الطريق وضَلاّ ، واشتد علينا العطشُ ، فلم يلبثا أن ماتا ، وأقبلْنا حتى انتهيا إلى الماء ، فلم نَنْجُ إلا بحُشَاشة[1] أنفسنا ، وذلك الماء بمكان يُدْعَى المَضِيقَ من بطن الخُبَيْتِ ، وقد تطيّرتُ من وجهى هذا ، فإن رأيتَ أعفَيتنى منه وبعثتَ غيرى ، والسلام » . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٩٨)

٧٩ — رد الحسين على مسلم

فكتب إليه الحسين :

«أما بعد : فقد خشِيتُ ألا يكون حَمَلَك على الكتاب إلىَّ فى الاستعفاء من الوجه الذى وجَّهْتُك له إلا الجبنُ ، فامضِ لوجهك الذى وجهتُك له ، والسلام عليك » . (تاريخ الطبرى ٦ : ١٩٨)

٨٠ — كتاب عبد الله بن مسلم الحضرمى إلى يزيد

ثم أقبل مسلم حتى دخل الكوفة ، فنزل دار المختار بن أبى عُبَيْدٍ ، وأقبلت الشيعة تختلف إليه ، فبلغ ذلك النعمان بن بشير والى الكوفة فخطب

---

(١) الحشاشة : بقية الروح فى المريض والجريح .

الناس وحثّهم ألا يسارعوا إلى الفتنة والفرقة ، فقام إليه عبد الله بن مُسْلِم الحَضْرمى حليف بنى أمية وضعّفه[١] ، وخرج عبد الله وكتب إلى يزيد ابن معاوية :

«أما بعد : فإن مسلم بن عقيل قد قَدِمَ الكوفة ، فبايعته الشيعة للحسين ابن على ، فإن كان لك بالكوفة حاجة فابعث إليها رجلاً قويًّا ، ينفِّذ أمرك ، ويعمل مثل عملك فى عدوك ، فإن النعمان بن بشير رجل ضعيف ، أو هو يتضعّف » :

فكان أولَ من كتب إليه ، ثم كتب إليه عُمارة بن عُقْبة بنحوٍ من كتابه ، ثم كتب إليه عمر بن سعد بن أبى وقّاص بمثل ذلك » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ١٩٩)

٨١ — كتاب يزيد إلى عبيد الله بن زياد

فلما اجتمعت الكتب عند يزيد ، بعث إلى عُبَيد الله بن زياد بعهده على الكوفة ، وكان عاملا له على البصرة ، فضم إليه المِصْرين ، وكتب إليه :

« أما بعد : فإنه كتب إلىّ شيعَتى من أهل الكوفة ، يخبروننى أن ابن عَقِيل بالكوفة يجمع الجموع لشَقِّ عَصَا[٢] المسلمين ، فسِرْ حين تقرأ

(١) نسبه إلى الضعف .

(٢) شق فلان العصا : مثل ضرب لمفارقة الجماعة ومخالفتهم ، والأصل فى العصا الاجتماع والائتلاف وذلك أنها لا تدعى عصا حتى تكون جميعاً ، فإن انشقت لم تدع عصا ، قالوا وأصل هذا أن الحاديين يكونان فى رفقة ، فإذا فرقهم الطريق شقت العصا التى معهما فأخذ هذا نصفها وهذا نصفها .

كتابى هذا ، حتى تأتى أهل الكوفة ، فتطلبَ ابن عقيل كطلب الخَرَزَة حتى تثقَفَه[1] فتُوثِقَه ، أو تقتله ، أو تَنفيَه ، والسلام » .

فاستخلف عبيد الله أخاه عثمان بن زياد على البصرة وأقبل إلى الكوفة .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٠٠)

٨٢ — كتاب الحسين إلى أهل البصرة

وقد كان الحسين كتب مع مَوْلًى لهم يقال له سليمان كتابًا إلى أهل البصرة : إلى رءوس الأخماس، وإلى الأشراف ، فكتب إلى مالك بن مِسْمَع البكرى ، وإلى الأحنف بن قيس ، وإلى المُنْذِر بن الجارُود ، وإلى مسعود ابن عمرو ، وإلى قيس بن الهَيْثم ، وإلى عُمَر بن عُبَيد الله بن مَعْمَرٍ ، فجاءت منه نسخة واحدة إلى جميع أشرافها ، وهى :

«أما بعد ، فإن الله اصطفى محمداً صلى الله عليه وسلم على خَلْقه ، وأكرمه بنُبُوَّته ، واختاره لرسالته ، ثم قبَضه الله إليه ، وقد نَصَح لعباده ، وبلَّغ ما أُرْسِل به صلى الله عليه وسلم ، وكنا أهلَه وأولياءه وأوصياءه وورَثَته ، وأحقَّ الناس بمَقَامه فى الناس ، فاستأثَر علينا قومُنا بذلك ، فرضِينا ، وكَرِهْنا الفُرْقةَ ، وأحبَبْنا العافية ونحن نعلم أنّا أحق بذلك الحق المستحَق علينا مِمَّن تولاه ، وقد أحسنوا وأصلحوا وتحرَّوا الحقَّ فرحِمَهم الله ، وغفر لنا ولهم .

وقد بعثتُ رسولى إليكم بهذا الكتاب ، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله ،

(١) ثقفه كسمعه : صادفه أو أخذه أو ظفر به أو أدركه .

وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فإنّ السُّنَّةَ قد أُمِيتَت ، وإنّ البِدعة قد أُحْيِيت ، وإن تسمعوا قولى وتطيعوا أمرى أَهْدِكم سبيلَ الرشاد ، والسلام عليكم ورحمة الله » :

فكل من قرأ ذلك الكتاب من أشراف الناس كتَمه غير المنذر ابن الجارود ، فإنه خشِيَ بِزَعْمه أن يكون دَسِيساً من قِبَل عبيد الله ، فجاءه بالرسول من العَشِيَّة التى يريد صبيحتَها أن يسبق إلى الكوفة ، وأقرأه كتابه ، فقدم الرسول فضرب عنقه . (تاريخ الطبرى ٦ : ٢٠٠)

٨٣ — كتاب مسلم بن عقيل إلى الحسين

ودخل عُبَيد الله بن زياد الكوفة ، فتهدّد الناس وتوعدهم ، وأخذهم أخذاً شديداً ، وبلغ ذلك مسلم بن عقيل فخرج من دارالمختار، ولاذ بدار هانِئ ابن عُرْوة المُرادىّ ، وقد كتب مسلم حيث تحول إلى دار هانئ كتابا إلى الحسين مع عابس بن أبى شَبِيب الشاكرىّ :

« أما بعد : فإن الرَّائد[1] لا يَكْذِبُ أهلَه ، وقد بايعنى من أهل الكوفة ثمانيةَ عشَرَ ألفاً ، فعجِّل الإقبالَ حين يأتيك كتابى ، فإن الناس كلَّهم معك ، ليس لهم فى آل معاوية رأىٌ ولا هوًى والسلام » :

وجدَّ ابنُ زياد فى طلب مسلم بن عقيل حتى ظفِر به فضرب عنقه ، وعنق هانئ . (تارخ الطبرى ٦ : ٢١١)

---

(١) الرائد : المرسل فى طلب الكلأ .

٨٤ — كتاب عبيد الله بن زياد إلى يزيد

ولما قتل ابن زياد مُسْلِمًا وهانئًا بعث برءوسهما مع هانئ بن أبى حَيَّة الوادعىّ، والزُّبير بن الأَرْوَح التميمىّ إلى يزيد بن معاوية، وأمر كاتبه عمرو ابن نافع أن يكتب إلى يزيد بما كان من مسلم وهانئ، فكتب إليه كتابا أطال فيه — وكان أول من أطال فى الكتب — فلما نظر فيه عبيد الله بن زياد كرهه وقال: ما هذا التطويل، وهذه الفُضُول[1]؟ اكتب:

« أما بعد: فالحمد لله الذى أخذ لأمير المؤمنين بحقّه، وكفاه مُؤْنَةَ عدوه، أُخبِرُ أمير المؤمنين — أكرمه الله — أن مسلم بن عقيل لجأ إلى دار هانئ بن عُرْوة المُرادىّ، وأنى جعلت عليهما العيون، ودَسَسْتُ إليهما الرجال[2]، وكِدْتهما حتى استخرجتهما، وأمكن اللهُ منهما، فقدّمتهما

---

(١) جمع فضل، وهو الزيادة.

(٢) دعا ابن زياد مولى له يقال له معقل، فقال: خذ ثلاثة آلاف درهم، ثم اطلب ابن عقيل وأصحابه وأعطهم إياها فقل لهم: استعينوا بها على حرب عدوكم، وأعلمهم أنك منهم، فإنك لو قد أعطيتها إياهم اطمأنوا إليك ووثقوا بك، ولم يكتموك شيئاً من أخبارهم، ثم اغد عليهم ورح، ففعل معقل ما أمره به، وتلطف حتى دخل على ابن عقيل، فبايعه وأعطاه المال، وجعل يختلف إليهم، فهو أول داخل وآخر خارج، يسمع أخبارهم، ويعلم أسرارهم، ثم ينطلق بها حتى يقرها فى أذن ابن زياد

وكان هانئ يغدو ويروح إلى عبيد الله، فلما نزل به مسلم انقطع من الاختلاف وتمارض فجعل لا يخرج، فقال عبيد الله لجلسائه: مالى لا أرى هانئاً؟ فقالوا: هو شاك، فقال: لو علمت بمرضه لعدته، وجاءه بعض أصحابه فقالوا: ما يمنعك من إتيان الأمير، فإنه قد ذكرك؟ وأقسموا عليه لما ركب معهم، فأجابهم، فلما دخل على ابن زياد قال له: إيه ياهانئ ما هذه الأمور التى تربص فى دارك لأمير المؤمنين وعامة المسلمين؟ جئت بمسلم بن عقيل فأدخلته دارك، وجمعت له السلاح والرجال فى الدور حولك، وظننت أن ذلك يخفى علىّ لك! قال: ما فعلت وما مسلم عندى، قال: بلى قد فعلت، قال: ما فعلت، قال بلى، فلما كثر ذلك بينهما، وأبى هانئ إلا مجاحدته ومناكرته، دعا ابن زياد معقلا، فجاء حتى وقف بين يديه، فقال: أتعرف هذا؟ قال: نعم، وعلم هانئ عند ذلك أنه كان عينا عليهم وأنه قد أتاه بأخبارهم.

فضربتُ أعناقهما ، وقد بعثتُ إليك برءوسهما مع هانئ بن أبي حية الهَمْداني والزبير بن الأروح التميمي ، وهما من أهل السمع والطاعة والنصيحة ، فلْيَسْألْهما أمير المؤمنين عما أحبَّ من أمر ، فإنَّ عندهما علماً وصدقا ، وفهماً ووَرَعاً ، والسلام » .　　(تاريخ الطبري ٦ : ٢١٤)

٨٥ — رد يزيد على ابن زياد

فكتب إلى ابن زياد :

« أما بعد : فإنك لم تَعْدُ أن كنتَ كما أحبُّ ، عمِلْتَ عملَ الحازم ، وصُلْتَ صَوْلةَ الشجاع الرَّابِطِ الْجَأْشِ[1] ، فقد أغنيتَ وكَفَيتَ ، وصَدَّقت ظني بك ، ورأيي فيك ، وقد دعوتُ رسوليك فسألتهما وناجيتهما فوجدتهما في رأيهما وفضلهما كما ذكرتَ ، فاستوْصِ بهما خيراً .

وإنه قد بلغني أن الحسين بن عليّ قد توجَّه نحو العراق ، فضَعِ المَنَاظِرَ[2] والمَسَالِحَ ، واحترِسْ على الظن ، وخذ على التُّهَمَةِ ، غير أنْ لا تقتل إلا من قاتَلَك ، واكتبْ إليّ في كل ما يحدُثُ من الخَبَر ، والسلام عليك ورحمة الله »

(تاريخ الطبري ٦ : ٢١٣)

---

(١) الجأش : النفس أو القلب ، وربط جأشه رباطة (ككتابة) : اشتد قلبه ، وهو رابط الجأش وربيطه : شجاع ، يربط نفسه عن الفرار يكفها لجرأته وشجاعته ، وقيل يربط نفسه عن الفرار لشجاعته

(٢) المناظر جمع منظرة وهي المرقبة : موضع في رأس جبل فيه رقيب ينظر العدو ، والمسالح جمع مسلحة وهي الربيئة أيضاً والقوم ذوو سلاح .

٨٦ — كتاب عبد الله بن جعفر إلى الحسين

ولما جاء الحسينَ عليه السلام كتابُ مسلم بن عَقِيل ، يدعوه فيه إلى تعجيل الإقبال ، خرج من مكة قاصِداً إلى الكوفة :

وقد كتب إليه حين خرج من مكة عبد الله بن جعفر بن أبى طالب مع ابنيه عَوْن ومحمد :

« أما بعدُ : فإنى أسألك بالله لَمَا انصرفتَ حين تنظرُ فى كتابى ، فإنى مُشْفِق عليك من الوجه الذى تَوَجَّهُ له أن يكون فيه هلاكُكَ واستئصالُ أهل بيتك ، إنْ هلكتَ اليوم طَفِئَ[1] نورُ الأرض ، فإنك عَلَم المهتدين ، ورجاء المؤمنين ، فلا تعجَلْ بالسير فإنى فى إثْرِ الكتاب والسلام » . (تاريخ الطبرى ٦ : ٢١٩ ، وتاريخ الكامل لابن الأثير ٤ : ١٧)

٨٧ — كتاب من عمرو بن سعيد بن العاص إلى الحسين

وقام عبد الله بن جعفر إلى عمرو بن سعيد بن العاص ـ وكان عامل يزيد على مكة ـ فقال له : اكتب إلى الحسين كتابًا : تجعل له فيه الأمانَ ، وتمنِّيه فيه البرَّ والصلةَ ، وتوثِّق له فى كتابك ، وتسأله الرجوع ، لعله يطمئن إلى ذلك فيرجع ، فقال له عمرو : اكتب ما شئت وأْتنى به حتى أختِمَه ، فكتب عبد الله بن جعفر الكتاب ، ثم أتى به عمرو بن سعيد ، فقال له : اُختِمه

---

(١) طفئ النار كسمع : انطفأت .

وابعث به مع أخيك يحيى بن سعيد ، فإنه أحْرَى أن تطمئنّ نفسه إليه ، ويعلم أنه الجِدُّ منك ففعل ، وكان كتابه إليه .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عمرو بن سعيد إلى الحسين بن علىّ .

أما بعدُ : فإنى أسألُ اللهَ أن يَصْرِفك عما يُوبِقُك[1] ، وأن يَهْدِيَك لما يُرْشِدك ، بلغنى أنك قد توجّهْت إلى العراق ، وإنى أُعيذك بالله من الشِّقاق ، فإنى أخاف عليك فيه الهلاكَ ، وقد بعثت إليك عبد الله بن جعفر ، ويحيى ابن سعيد ، فأَقبِلْ إلىّ معهما ، فإن لك عندى الأمانَ والصلةَ والبر ، وحُسْنَ الجِوار ، لك الله علىّ بذلك شهيد وكفيل ، ومُراعٍ ووكيل ، والسلام عليك »

ولحقه يحيى بن سعيد ، وعبد الله بن جعفر ، ودفعا إليه الكتاب ، وجَهَدا به أن يرجع ، فأبى عليهما . (تاريخ الطبرى ٦ : ٢١٩)

٨٨ — رد الحسين بن علىّ على عمرو بن سعيد

وكتب إلى عمرو بن سعيد :

« أما بعدُ : فإنه لم يشاقِقِ اللهَ ورسولَه من دعا إلى الله عزّ وجل : وعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ، وقد دعوتَ إلى الأمان والبر والصلة ، فخيرُ الأمان أمانُ اللهِ ولن يُؤْمِنَ اللهُ يومَ القيامة مَن لم يَخَفْه فى الدنيا ، فنسأل اللهَ مَخافةً فى الدنيا تُوجِبُ لنا أمانهُ يوم القيامة ، فإن كنتَ نويتَ بالكتاب صِلَتى وبرى فجُزِيتَ خيراً فى الدنيا والآخرة والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢١٩)

---

(١) أوبقه : أهلكه .

٨٩ — كتاب الحسين إلى أهل الكوفة

وأقبل الحسين عليه السلام حتى إذا بلغ « الحاجِرَ » بعث قيس ابن مُسْهِر الصَّيْداوى إلى أهل الكوفة ، وكتب معه إليهم :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحسين بن علىّ إلى إخوانه من المؤمنين والمسلمين ، سلام عليكم ، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد : فإن كتاب مسلم بن عقيل جاءنى يُخبرنى فيه بحُسْن رأيكم ، واجتماع مَلَئِكم على نصرنا ، والطلب بحقنا ، فسألتُ الله أن يُحسِن لنا الصُّنْعَ ، وأن يُثيبكم على ذلك أعظمَ الأجر ، وقد شَخَصْتُ إليكم من مكةَ يوم الثلاثاء لِثمانٍ مَضَيْن من ذى الحِجَّة يوم التَّرْوية[1] ، فإذا قَدِم عليكم رسولى فاكْمُشُوا[2] فى أمركم وجِدُّوا ، فإنى قادمٌ عليكم فى أيامى هذه إن شاء الله ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[3] » . (تاريخ الطبرى ٦ : ٢٢٣)

٩٠ — كتاب ابن زياد إلى الحر بن يزيد

ولما بلغ ابنَ زياد إقبالُ الحسين ، بعث الحُصَيْن بن نُمَيْر التميمى ، فأمره أن ينزل القادِسِيَّة ، وأن يضع المَسالِحَ ، وقدَّم الحُرَّ بن يزيد التميمى بين يديه

---

(١) هو ثامن ذى الحجة ، سمى بذلك لأن الماء كان قليلا بمنى فكانوا يرتوون فيه من الماء لما بعد

(٢) كمش فى أمره كفرح وكرم : جدّ .

(٣) وأقبل قيس بن مسهر إلى الكوفة بكتاب الحسين ، حتى إذا انتهى إلى القادسية ، أخذه الحصين بن نمير ، فبعث به إلى ابن زياد ، فقال له : اصعد القصر فسب الكذاب ابن الكذاب ، فصعد ثم قال : أيها الناس : إن هذا الحسين بن على خير خلق الله ، ابن فاطمة بنت رسول الله ، وأنا رسوله إليكم ، وقد فارقته بالحاجر فأجيبوه ، ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه ، واستغفر لعلى بن أبى طالب ، فأمر به ابن زياد أن يرمى به من فوق القصر فرمى به فتقطع فمات .

فى ألف فارس من القادسية ، فيستقبل حسيناً ، وكان الحسين قد سبقه إلى ذى حُسُم ونزل به ، فسار إليه الحُرُّ حتى وقف مقابِلَه ، وكثر بينهما الكلام ، ثم سار الحسين فى أصحابه ، والحُرُّ يسايره ، فلم يزالوا يتسايرون حتى انتهوا إلى نِينَوى ، فإذا رسولٌ مُقْبل من الكوفة ، فلما انتهى إليهم دفع إلى الحُرُّ كتابا من عبيد الله بن زياد ، فإذا فيه :

« أما بعدُ : فجَعْجِع[1] بالحسين حين يَبْلُغك كتابى ، ويَقْدَمُ عليك رسولى ، فلا تُنْزِلْه إلا بالعَرَاء[2] فى غير حِصْن ، وعلى غير ماء ، وقد أمرتُ رسولى أن يَلْزَمك ولا يفارقَك حتى يأتيَنى بإنفاذك أمْرِى ، والسلام » .

ونزل الحسين قرية تسمّى العَقْر ، وذلك فى الثانى من المحرم سنة ٦١ هـ

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٣٢)

٩١ — كتاب عمر بن سعد إلى ابن زياد

فلما كان من الغَدِ قدِم عليهم عمر بن سعد بن أبى وَقَّاص من الكوفة فى أربعة آلاف ، فبعث إلى الحسين عليه السلام رسولا ، فقال : ائته فسَلْه ما الذى جاء به ، وماذا يريد ؟ فأبلغه الرسول رسالة عمر إليه ، فقال له الحسين: كتب إلىّ أهل مِصْركم هذا أن أقْدَم ، فأمَّا إذ كَرِهونى فأنا أنصرف عنهم ، فكتب عمر إلى ابن زياد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإنى حيث نزلت بالحسين بعثتُ

---

(١) أى احبسه وضيق عليه ، والجعجعة : الحبس والتضييق ، وقيل معناه : أزعجه وأخرجه ، وجعجع به أيضاً : أناخ به وألزمه الجعجاع « مكان جعجع وجعجاع : ضيق خشن غليظ » .

(٢) العراء : الفضاء لا يستتر فيه شيء .

إليه رسولى ، فسألته عما أقدمه وماذا يطلب ويسأل ، فقال : كتب إلىّ أهلُ هذه البلاد ، وأتتنى رسلهم فسألونى القدوم ، ففعلت ، فأمّا إذ كرهونى ، فبَدَا لهم غيرُ ما أتتنى به رسلهم ، فأنا منصرف عنهم » .

فلما قرئ الكتاب على ابن زياد قال :

الآنَ إذ عَلِقَتْ مخالِبُنا به ... يَرْجُو النجاة ولاتَ حِينَ مَنَاصِ[1]

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٣٤)

٩٢ — رد ابن زياد على عمر بن سعد

وكتب إلى عمر بن سعد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعدُ : فقد بلغنى كتابُك ، وفهمت ما ذكرت ، فاعْرِض على الحسين أن يبايع ليزيد بن معاوية هو وجميع أصحابه ، فإذا فعل ذلك رَأَيْنا رَأْيَنَا والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٣٤)

٩٣ — كتاب آخر من ابن زياد إلى عمر

وجاء من عبيد الله بن زياد كتاب إلى عمر بن سعد :

« أما بعدُ : فَحُلْ بين الحسين وأصحابه وبين الماء ، ولا يذوقوا منه قَطرة ، كما صُنِع بالتَّقىّ الزَّكِىّ[2] المظلوم أمير المؤمنين عثمان بن عفان » .

فبعث عمر بن سعد عمرو بن الحجاج على خمسمائة فارس ، فنزلوا

---

(١) أى فرار ، ناص نوصا ومناصا . (٢) أى الصالح من زكا يزكو زكاء إذا صلح .

على الشريعة[١] ، وحالوا بين حسين وأصحابه ، وبين الماء أن يُسْقَوا منه قطرةً ، وذلك قبل قتل الحسين بثلاث. (تاريخ الطبرى ٦ : ٢٣٤)

٩٤ — كتاب عمر بن سعد إلى ابن زياد

والتقى الحسين عليه السلام ، وعمر بن سعد مرارا ثلاثا أو أربعاً ، ثم كتب عمر إلى ابن زياد :

« أما بعدُ : فإن الله قد أطفأ النائرة[٢] ، وجَمَع الكلمة ، وأصلح أمر الأمة ، هذا حُسَيْنٌ قد أعطانى أن يرجع إلى المكان الذى منه أتى ، أو أن نُسَيِّرَه إلى أى ثغرٍ من ثغور المسلمين شِئْنا ، فيكونَ رجلا من المسلمين له مالهم وعليه ماعليهم ، أو أن يأتَى يزيدَ أمير المؤمنين ، فيضعَ يده فى يده ، فيرى فيما بينه وبينه رأيَه ، وفى هذا لكم رِضاً ، وللأمة صلاحٌ » .

فلما قرأ عبيد الله الكتابَ قال : هذا كتاب رجل ناصحٍ لأميره ، مُشفقٍ على قومه ، نعم قد قبلْتُ ، فقام إليه شَمِر بن ذى الجَوْشَن فثناه عن القبول[٣] ، فدعاه عبيد الله ، فقال له : اخرج بهذا الكتاب إلى عمر بن سعد فلْيعرِض على الحسين وأصحابه النزولَ على حكمى ، فإن فعلوا فليبعث بهم إلىّ

(١) الشريعة والشرعة (بالكسر) والمشرعة : مورد الشاربة .

(٢) النائرة : العداوة والشحناء .

(٣) إذ قال له : أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك إلى جنبك ؟ والله لئن رحل من بلدك ولم يضع يده فى يدك ، ليكونن أولى بالقوة والعز ، ولتكونن أولى بالضعف والعجز ، فلا تعطه هذه المنزلة فإنها من الوهن ، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه ، فإن عاقبت فأنت ولى العقوبة ، وإن غفرت كان ذلك لك ، فقال له ابن زياد : نعم مارأيت . الرأى رأيك .

سِلْما ، وإن هم أبَوا فليقاتلهم ، فإن فعل فاسمع له وأطع ، وإن هو أبى فقاتلهم فأنت أمير الناس ، وثِب عليه فاضرب عنقه ، وابعث إلىّ برأسه .

(تاريخ الطبرى ٦ : ٢٣٥)

٩٥ — كتاب ابن زياد إلى عمر بن سعد

وكان كتاب عبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد :

« أما بعدُ : فإنى لم أبْعثْك إلى حسين لتَكُفَّ عنه ، ولا لِتُطاوله ، ولا لِتُمنِّيَه السلامةَ والبقاء ، ولا لِتقعُدَ له عندى شافعاً ، انظر فإن نزل حسين وأصحابه على الحُكم وَاستسلموا ، فابعث بهم إلىّ سِلما ، وإن أبَوْا فازْحَف إليهم حتى تقتلَهم وتُمثِّلَ بهم ، فإنهم لذلك مستحقون ، فإن قُتِل حسين فأَوْطِئ الخيلَ صدرَه وظهرَه ، فإنه عاقٌّ مُشاقٌّ قاطع ظَلوم ، وليس دَهْرِى[1] فى هذا أَنْ يُضَرَّ بعد الموت شيئاً ، ولكنْ علىَّ قولٌ[2] لو قد قتلتُه فعلتُ هذا به ، إن أنت مضيتَ لأمرنا فيه جَزَيناك جزاءَ السامع المطيع ، وإن أبيتَ فاعتزِلْ عملَنا وجُنْدنا ، وخَلِّ بين شَمِر بن ذى الجَوْشن وبين العسكر ، فإنا قد أمرناه بأمرنا ، والسلام » .

---

(١) يقال : مادهرى بكذا ومادهرى كذا : أى ماهمى وعايتى.

(٢) معناه : ولكن لى رأى واعتقاد ، قال فى اللسان « ويتجوزون فى تسميتهم الاعتقادات والآراء قولا ، لأن الاعتقاد يخفى فلا يعرف إلا بالقول ، أو بما يقوم مقام القول من شاهد الحال ، فلما كانت لا تظهر إلا بالقول سميت قولا إذ كانت سببا له ، وكان القول دليلا عليها كما يسمى الشىء باسم غيره إذا كان ملابسا له » وقال فى اللسان أيضا : قال ابن الأثير : « العرب تجعل القول عبارة عن جميع الأفعال ، وتطلقه على غير الكلام واللسان ، فتقول : قال بيده أى أخذ ، وقال برجله أى مشى ، وقال الشاعر :
* وقالت له العينان سمعا وطاعة * أى أومأت ، وقال بالماء على يده : أى قلب ، وقال بثوب : أى رفعه ، وكل ذلك على المجاز والاتساع» .

فأقبل شِمر بن ذى الجوشن بكتاب ابن زياد إلى عمر بن سعد فقرأه عليه وقال له : أخبِرنى ما أنت صانع ؟ أتمضى لأمر أميرك وتقتل عدوه ؟ وإلاّ فخلِّ بينى و بين الجند قال : لا ، ولا كرامةَ لك وأنا أتولى ذلك ، قال فدونك فنهض إليه عشِية الخميس لتسع مَضَين من المحرم وزحف عليه ، وعبَّأ الحسين أصحابه ، ونَشِب القتال بين الفريقين ، واستمات أصحاب الحسين فى القتال حتى فَنُوا ، وقتل الحسين عليه السلام قتله سنان بن أنس لعنه الله ـ وكان قتله بالطَّفِّ[1] يوم عاشوراء سنة ٦١ هـ ، وأمر ابن سعد أصحابه أن يُوطِئوا خيلهم الحسينَ ، فوَطِئوه بخيلهم ، ثم حُمِل النساء ، ورأسُه إلى يزيد ابن معاوية بدمشق . (تاريخ الطبرى ٦ : ٢٣٦)

٩٦ — كتاب عبد الله بن عمر إلى يزيد

وكان عُبَيد الله بن زياد قد أمر بالمختار بن أبى عُبَيد الثَّقفى أن يُسْجَن ، لما كان من مناصرته لمُسْلِم بن عَقيل ، فلم يزل فى السجن حتى قتل الحسين رضى الله عنه ، ثم إن المختار بعث إلى عبد الله بن عمر بن الخطاب بالمدينة ، يسأله أن يكتب له إلى يزيد بن معاوية ، فيكتب إلى ابن زياد بتخْلِية سبيله ، وعامت صَفِيَّة أخت المختار بمحبس أخيها ، وهى تحت عبد الله بن عمر ، فبكت وجزِعت ، فلما رأى ذلك ابن عمر كتب إلى يزيد :

« أما بعد : فإن عُبَيد الله بن زياد حبس المختار وهو صِهْرى ، وأنا

(١) أرض من ضاحية الكوفة فى طريق البرّية .

أُحِبُّ أن يُعافَى ويُصْلَحَ من حاله، فإن رأيتَ «رَحِمَنا الله وإياك» أن تكتب إلى ابن زياد فتأمره بتخليته فعلتَ، والسلام عليك».

(تاريخ الطبرى ٧ : ٥٩)

٩٧ — كتاب يزيد إلى ابن زياد

فلما قرأ يزيد كتاب ابن عمر ضحك ثم قال: يشفَّع أبو عبد الرحمن، وأهلُ ذلك هو، وكتب إلى ابن زياد:

أما بعدُ: فَخَلِّ سبيل المختار بن أبى عبيد حين تنظر فى كتابى والسلام عليك».

فدعا ابن زياد بالمختار فأخرجه، ثم قال له قد أجَّلتك ثلاثاً، فإن أدركتك بالكوفة بعدها، فقد بَرِئت منك الذِّمة، فخرج إلى الحجاز.

(تاريخ الطبرى ٧ : ٥٩)

٩٨ — كتاب عبد الله بن الزبير إلى يزيد

وعزل يزيد بن معاوية عمرو بن سعيد بن العاص عن الحِجاز[1]، وولَّى الوليدَ بن عُتْبة (سنة ٦١ هـ) فكتب عبد الله بن الزبير إلى يزيد:

---

(١) وذلك أنه لما قتل الحسين عليه السلام، قام عبد الله بن الزبير فى أهل مكة وعظم مقتله، فثار إليه أصحابه، فقالوا له: أظهر بيعتك، فإنه لم يبق أحد إذ هلك حسين ينازعك هذا الأمر — وقد كان يبايع الناس سرا، ويظهر أنه عائذ بالبيت — فقال لهم: لا تعجلوا، وعمرو بن سعيد بن العاص يومئذ عامل مكة، وقد كان أشد شىء عليه وعلى أصحابه، وكان مع شدته عليهم يدارى ويرفق، ثم إن الوليد بن عقبة وناسا معه من بنى أمية قالوا ليزيد: لو شاء عمرو بن سعيد لأخذ ابن الزبير وبعث به إليك، فسرّح الوليد بن عتبة على الحجاز أميرا وعزل عمرو بن سعيد.

« إنك بعثتَ إلينا رجلا أخْرَقَ لا يتَّجِه لِأَمْرِ رُشْد ، ولا يَرْعَوِى لِعِظَة الحكيم ، ولو بعثت إلينا رجلا سَهْلَ الخلق ، لَيِّن الكَنَف[1] ، رجوتُ أن يسهُل من الأمور ما اُستوعَر[2] منها ، وأن يجتمع ما تفرَّق ، فانظر فى ذلك فإن فيه صَلاحَ خواصِّنا وعوامِّنا ، إن شاء اُللّٰه ، والسلام » .

فعزل يزيدُ الوليدَ بن عُتبة ، وبعث عثمان بن محمد بن أبى سفيان .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٣)

٩٩ — كتاب يزيد إلى أهل المدينة

وكَرِه أهل المدينة خلافةَ يزيد ، وأجمعوا على الخلاف عليه[3] ، فكتب إليه عثمان بن محمد بن أبى سفيان بذلك ، فكتب يزيد إليهم :

« أما بعدُ : « فَإِنَّ اُللّٰهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اُللّٰهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ » وإنى واللّٰهِ قد

---

(١) الكنف : الجانب . (٢) ما صعب .

(٣) وذلك أن عثمان بن محمد أمير المدينة بعث إلى يزيد وفدا من أهل المدينة فيهم عبد الله بن حنظلة الأنصارى ، فقدموا على يزيد ، فأكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم ، فلما قدم الوفد المدينة ، قاموا فيهم فأظهروا شتم يزيد وعيبه ، وقالوا . قد قدمنا من عند رجل ليس له دين ، يشرب الخمر ، ويعزف بالطنابير ، ويضرب عنده بالقيان ، ويلعب بالكلاب ، ويسامر الحرّاب (أى ذوى الحرب بالتحريك وبالضم وهو الفساد فى الدين) والفتيان ، وإنا نشهدكم أنا قد خلعناه ، فتابعهم الناس فخلعوه وأتوا عبد الله بن حنظلة فبايعوه وولوه عليهم .

وذكروا أن عبد الله بن حنظلة لما وفد على يزيد كان معه ثمانية بنين له ، فأعطاه يزيد مائة ألف درهم ، وأعطى بنيه كل واحد منهم عشرة آلاف سوى كسوتهم وحملانهم ، فلما قدم المدينة أتاه الناس فقالوا : ما وراءك ؟ قال : جئتكم من عند رجل والله لو لم أجد إلا بنىّ هؤلاء لجاهدته بهم ، قالوا . قد بلغنا أنه أجداك وأعطاك وأكرمك ، قال : قد فعل ، وما قبلت ذلك منه إلا لأتقوّى به عليه ، وحضض الناس فبايعوه .

لَبِسْتكم فأَخْلَقْتكم[1] ، ورفعتكم على رأسى ، ثم على عينى ، ثم على فمى ، ثم على بَطْنى ، وأَيْمُ اللهِ لَئِن وضعتكم تحت قَدَمى لأَطَأَنَّكُمْ وَطْأَةً أُقِلّ بها عَدَدَكم ، وأتركُكم بها أحاديثَ ، تُنْتَسخُ أخبارُكم مع أخبار عَاد وثمود » .

(صبح الأعشى ٦ : ٣٩٠ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٥٦)

١٠٠ — كتاب بنى أمية بالمدينة إلى يزيد

وخلع أهل المدينة يزيد ، وبايعوا عبد الله بن حَنْظَلة الأنصارى ، ووثبوا على من كان بالمدينة من بنى أمية وحصروهم وأخافوهم ، فكتب هؤلاء إلى يزيد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعدُ : فإنا قد حُصِرنا فى دار مَرْوان ابن الحَكَم ، ومُنِعْنا الْعِذَابَ[2] ، ورُمينا بالجَبُوب[3] ، فياغَوْثاه ، ياغَوْثاه » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٥)

١٠١ — كتاب مسلم بن عقبة إلى يزيد

فوَجَّه يزيد مُسْلِمَ بن عُقْبةَ المُرِّيَّ إلى المدينة ، فقمع فتنتها ، وأخمد ثورتها ، ثم كتب إلى يزيد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله يزيدَ بنِ معاوية أمير المؤمنين من

---

(١) أى أبليتكم ، خلق الثوب كنصر وكرم وسمع : بلى ، فهو خلق كسبب ، وأخلق بالألف لغة وأخلفه أبلاه ، والمراد زهدت فيكم .

(٢) العذب من الشراب والطعام : كل مستساغ والجمع عذاب وعدوب .

(٣) الجبوب : الأرض والتراب ، وفى الأصل « بالحبوب » بالحاء وهو تصحيف .

مُسْلِم بن عُقْبة ، سلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله ، فإنى أحمد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ : تولّى اللهُ حِفظَ أمير المؤمنين والكِفايةَ له ، فإنى أُخْبِر أمير المؤمنين ـ أبقاه الله ـ أنّى خرجت من دمَشق ، ونحن على التَّعبئة التى رأى أميرُ المؤمنين يومَ فِراقنا بِوادى القُرَى[1] ، فرجع معنا مَرْوانُ ابن الحكم[2] ، وكان لنا عَوْنا على عدونا ، وأنَّا انتهينا إلى المدينة ، فإذا أهلُها قد خَنْدَقُوا عليها بالخنادق ، وأقاموا على أنْقابها[3] الرجالَ بالسلاح ، وأُدخَلوا ما شيتهم ، وما يحتاجون لِحصارهم سَنَةً فيما يقولون ، وأنَّا أعْذَرْنا إليهم وأخبرناهم بعهد أمير المؤمنين ، وما بَذَل لهم فأَبَوْا ، ففرّقتُ أصحابى على أفواه الخنادق ، فولّيت الحُصَيْنَ بن نُمَيْر ناحيةَ ذِناب ، وما والاها عليها الوالى ، ووجَّهت حُبَيْش بن دَلَجَة إلى ناحية بنى سَلَمة ، ووجهتُ عبد الله ابن مَسْعَدة إلى ناحية بَقِيع الغَرْقَد ، وكنتُ ومن معى من قوّاد أمير المؤمنين ورجاله فى وجوه بنى حارثةَ ، فأدخلنا الخيلَ عليهم حين ارتفع النهار من ناحية عبد الأشهل ، بطريق فتَحه لنا رجلٌ منهم[4] ، مما دعاه إليه

---

(١) وادى القرى : واد بين الشأم والمدينة ، كثير القرى .

(٢) وذلك أن أهل المدينة حين خلعهم يزيد وبلغهم إقبال مسلم بن عقبة بالجيش ، قالوا لمن معهم من بنى أمية ـ وكانوا قد حصروهم فى دار مروان ـ : والله لا نكف عنكم حتى نستنزلكم ونضرب أعناقكم ، أو تعطونا عهد الله وميثاقه لا تبغونا غائلة ، ولا تدلوا لنا على عورة ، ولا تظاهروا علينا عدوا ، فنكف عنكم ونخرجكم عنا ، فأعطوهم عهد الله وميثاقه لا نبغيكم غائلة ، ولا ندل لكم على عورة ، فأخرجوهم من المدينة ، فخرجت بنو أمية بأثقالهم حتى لقوا مسلم بن عقبة بوادى القرى فرجع مروان معه

(٣) جمع نقب ، وهو الثقب والثغر .

(٤) وذلك أن مروان جاء بنى حارثة فكلم رجلا منهم ورغبه فى الصنيعة ، وقال افتح لنا طريقا فأنا أكتب بذلك إلى أمير المؤمنين وأختصك عنده بخير ما كان بذل لأهل المدينة من العطاء والتضعيف ، ففتح له طريقا ورغب فيما بذل له فاقتحمت الخيل .

مَرْوانُ بن الحكم إلى صَنيع أمير المؤمنين، وقد تضَمَّن[1] له عنه من قُرْبِ المكانِ، وجَزِيل العطاء، وإيجاب الحقّ، وقضاء الذِّمامِ[2]، وقد بعث به أميرُ المؤمنين، وأرجو من الله عزّ وجل أن يُلْهِمَ خليفته وعبدَه عِرْفانَ ما أولَى من الصُّنْع، وأسْدَى من الفضل، وكان ـ أكرم الله أمير المؤمنين ـ من محمود مَقَامِ مَرْوان بن الحكم، وجميل مَشْهَدِه، وشديد بأسه، وعظيم نِكايتِهِ لعدو أمير المؤمنين، مالا إخَالُ ذلك ضائعاً عند إمام المسلمين، وخليفة رب العالمين، إن شاء الله.

وسلَّم اللهُ رجال أمير المؤمنين، فلم يُصَبْ أحد منهم بمكروه، ولم يُقِم لهم عدوهم ساعةً من ساعات نهارهم، فما صلَّيتُ الظهر ـ أصلح الله أمير المؤمنين ـ إلا فى مسجدهم بعد القتل الذريع[3]، والانتهاب العظيم، وأوقعْنا بهم السيوفَ، وقتَلْنا من أشْرَف لنا منهم، وأتْبَعْنا مُدْبِرَهم، وأجْهَزْنا على جريحهم، وانتهبناها ثلاثاً كما قال أمير المؤمنين[4] ـ أعز الله نصره ـ وجعلتُ دُورَ بنى الشهيد المظلوم عثمان بن عفان فى حِرْز وأمان، فالحمد لله الذى شَفَى صدرى من قتل أهل الخلاف القديم، والنِّفاق العظيم، فطالما عَتَوا، وقديماً

---

(١) أى التزمه وضمنه. (٢) العهد. (٣) السريع.

(٤) وكان يزيد حين ودعه قال له: ادع القوم ثلاثا، فإن هم أجابوك وإلا فقاتلهم، فإذا ظهرت عليهم فأبحها ثلاثا فما فيها من مال أو رقة أو سلاح أو طعام فهو للجند، فإذا مضت الثلاث فاكفف عن الناس، ولما دخل مسلم المدينة دعا أهلها إلى البيعة على أنهم خول ليزيد يحكم فى دمائهم وأموالهم وأهليهم ماشاء، وكانت هذه الوقعة تسمى وقعة الحرّة بالفتح لأن مسلما حاصر المدينة من جهة الحرة « موضع بظاهر المدينة » ووقعت فى ذى الحجة من سنة ٦٣ هـ، قيل وكان الرجل من أهل المدينة بعد ذلك إذا زوج ابنته لا يضمن بكارتها ويقول لعلها افتضت فى وقعة الحرة.

مَاطغَوا ، وكتبتُ إلى أمير المؤمنين ، وأنا فى منزل سعيد بن العاص مُدْنَفا مريضاً ، ما أُرانى إلا لما بى ، فما كنت أُبالى متى مُتُّ بعد يومى هذا » .

وكتب لهلال المحرم سنة أربع وستين[1] هـ . (الإمام والسياسة ١ : ١٥٩)

بعد موت يزيد

الخوارج وابن الزبير

١٠٢ — كتاب نجدة بن عامر إلى نافع بن الأزرق

وسار الخوارج بعد أن نصروا ابن الزبير بمكة إلى الأَهْواز[2] ، وقَدْ أمَّروا عليهم نافع بن الأزرق الحَنَفى ، ثم شَجَرَ بينهم الخلافُ ، فنفر عنه جماعة منهم بزَعامة نجْدة بن عامر[3] ،

---

(١) فى الأصل سنة ثلاث وستين وهو خطأ ، لأن وقعة الحرة كانت فى ذى الحجة من سنة ٦٣ هـ لليلتين بقيتا منه .

(٢) كور بين البصرة وفارس .

(٣) لما فرغ مسلم بن عقبة من قتال أهل المدينة ، شخص إلى مكة لحرب عبد الله بن الزبير — وكان قد امتنع على يزيد ، ودعا إلى نفسه ، وبايعه أهل مكة والحجاز — وعاجلت المنية مسلما فى الطريق ، وكان قد استخلف على الجيش قبل موته حصين بن نمير السكونى ، وقدم حصين مكة فحاصرها وقذف البيت بالمجانيق « جمع منجنيق بفتح الميم وبكسر : آلة نرمى بها الحجارة » وحرقه بالنار ، وبينا هو يقاتل ابن الزبير إذ أتى نعى يزيد ، فقفل بالجند إلى الشام .

وكان الخوارج حين علموا بمسير جيش الشام إلى مكة ، خرجوا إليها ليمنعوا الحرم منهم ، فسر ابن الزبير بمقدمهم وسأهم أنه على رأيهم ، فقاتلوا معه أهل الشأم حتى انصرفوا عن مكة ، ثم ناظروه فلم يرقهم قوله ، فتفرقوا عنه وصاروا إلى البصرة ، ونظروا فى أمورهم فأمروا عليهم نافع بن الأزرق الحنفى ، وأجمع القوم على الخروج فمضى بهم نافع إلى الأهواز سنة ٦٤ هـ وطردوا عمال السلطان عنها وجبوا الفىء .

ولم يزالوا على رأى واحد ، حتى جاء مولى لبنى هاشم إلى نافع ، فقال له : إن أطفال المشركين فى النار ، وإن من خالفنا مشرك ، فدماء هؤلاء الأطفال لنا حلال ، فقال له نافع : كفرت ، قال له : إن لم آتك

ومضوا إلى اليمامة[1] ، وكتب نجدة وهو باليمامة إلى نافع :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإنّ عَهْدِى بك وأنت لليتيم كالأب الرّحيم ، وللضعيف كالأَخِ البرّ ، لا تأخُذُكَ فى الله لَوْمَةُ لائمٍ ، ولا تَرَى مَعُونَةَ ظالم ، كذلك كنت أنت وأصحابُك ، أَمَا تَذْكُرُ قولك : « لولا أنّى أعْلم أنّ للامام العادلِ مِثْلَ أجْرِ جميع رَعِيَّتِه ، ماتولَّيْتُ أمرَ رجلين من المسلمين » ، فلما شَرَيْتَ[2] نفسَك فى طاعة ربك ابتغاءَ رِضْوانه ، وأصَبْتَ

بهذا من كتاب الله فاقتلى ، قال نوح : « رَبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلاَ يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً » فهذا أمر الكافرين وأمر أطفالهم ، فشهد نافع أنهم جميعا فى النار ورأى قتلهم ، وقال : الدار دار كفر إلا من أظهر إيمانه ، ولا يحل أكل ذبائحهم ولاتناكحهم ولا توارثهم ، ومتى جاء منهم جاء فعلينا أن نمتحنه ، وهم كـكفار العرب لا نقبل منهم إلا الإسلام أو السيف ، والقعد بمنزلتهم ، والتقية لا تحل « والتقية : هى المحافظة على النفس أو العرض أو المال من شر الأعداء ، إذا كانت العداوة بسبب الدين » فإن الله تعالى يقول : « إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً » وقال عزّ وجلّ فيمن كان على خلافهم « يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ » فنفر جماعة من الخوارج عنه ، منهم نجدة بن عامر واحتج عليه بقوله الله عزّ وجلّ : « إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً » وبقوله عزّ وجلّ : «وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ» فالقعد منا ، والجهاد إذا أمكن أفضل ، لقوله عزّ وجلّ : « وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيمًا » ثم مضى نجدة بأصحابه إلى اليمامة .

(١) من بلاد نجد .

(٢) أى بعت ، وسمى الخوارج أنفسهم « الشراة » جمع شار كقاض وقضاة من شرى يشرى كرمى : بمعنى باع ، لقولهم شرينا أنفسنا فى طاعة الله : أى بعناها ووهبناها ، أخذا من قوله تعالى : « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ » أو من شرى بمعنى اشترى لقولهم : شرينا الآخرة بالدنيا أى اشتريناها ، قال عمران بن حطان :

إنى أدين بما دان الشراة به يوم النخيلة عند الجوسق الخرب

« والجوسق كجعفر : القصر — يشير إلى قيام المستورد الخارجى بالنخيلة بعد وقعة النهروان » وقال الطرماح بن حكيم :

من الحق فَصَّه[١] ، وركِبتَ مُرَّه ، تجرّد لك الشيطانُ ، ولم يكن أحدٌ أثقلَ عليه وَطْأَةً منك ومن أصحابك ، فاستمالك واستهوك ، واستغواك وأغواك ، فغَوَيْتَ[٢] فأكفرتَ الذين عَذَرهم اللهُ في كتابه من قَعَدِ[٣] المسلمين وضَعَفتِهم ، فقال جل ثناؤه ، وقَوْلُه الحق ، ووَعْدُه الصِّدق : « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَيَجِدُونَ مَايُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلهِ وَرَسُولِهِ» ثم سَمّاهم أحسنَ الأسماء ، فقال : «مَاعَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ[٤]» .

ثم استحلَلْتَ قتلَ الأطفال ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قَتْلِهم ، وقال الله عزّ ذِكْرُه : « وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى »[٥] وقال سبحانه في الْقَعَدِ خيراً ، وفضَّل الله من جاهد عليهم ، ولا تَدْفَع منزِلةُ أكثر الناس عملاً منزلةَ مَن هو دونه[٦] ، أوَما سَمِعْتَ قوله عز وجل : « لاَيَسْتَوِى

لله در الشراة إنهم إذا الكرى مال بالطلا أرقوا

« والطلا : الأعناق أو أصولها جمع طلية أو طلاة ، وكلها بالضم » وقال أيضا :

والنار لم ينج من روعاتها أحد إلا المنيب بقلب المخلص الشارى

وقال معاذ بن جوين :

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ شرى نفسه لله أن يترحلا

(١) فص الأمر : مفصله . (٢) غوى بالفتح غيا وغوى بالكسر غواية .

(٣) القعد : اسم جمع قاعد كخدم وخادم ، ويروى القعدة وهو جمع قاعد ككتبة وكاتب ، ورجل ضعيف وضعوف وضعفان والجمع ضعاف وضعفاء وضعفة (بالتحريك) وضعفى (كقتلى) وضعافى بالفتح

(٤) أى ليس عليهم جناح ولا إلى معاتبتهم سبيل ، وإنما وضع المحسنين موضع الضمير للدلالة على أنهم منخرطون فى سلك المحسنين غير معاتبين لذلك .

(٥) وزر يزر كوعد : أثم ، والوزر : الاثم ، أى ولا تحمل نفس آثمة إثم نفس أخرى ،

(٦) وفى رواية ابن أبى الحديد : « وتفضيله المجاهدين على القاعدين لايرفع منزلة من هو دون المجاهدين» والعقد الفريد: «ولا يرفع أكثرالناس عملا منزلة عمن هو دونه إلا إذا اشتركا فى أصل» .

الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ[1]» فجعلهم الله من المؤمنين ، وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم .

ورأيتَ ألاّ تؤَدِّىَ الأمانة إلى من خالفك ، والله يأمر أن تُؤَدَّى الأماناتُ إلى أهلها[2] ، فاتّق الله وانظر لنفسك ، واتّقِ «يَوْمًا لاَ يَجْزِى وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا» فإن الله عز ذكره بالمِرْصاد ، وَحُكْمه العَدل ، وقَوْلُه الفَصْلُ ، والسلام » .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٧٧ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٨٢ ، والعقد الفريد ١ : ٢١٤)

١٠٣ — رد نافع على نجدة

فكتب إليه نافع :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعدُ : فقد أتانى كتابُك تَعِظُنى فيه وتُذَكِّرنى ، وَتَنْصَح لى وَتَزْجُرنى ، وتَصِف ما كنتُ عليه من الحق ، وما كنتُ أُوثِرُه من الصواب ، وأنا أسألُ الله جلّ وعزّ أن يجعلنى من « الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ» وَعِبْتَ علىَّ ما دِنْتُ به من إكْفار الْقَعَدِ وَقَتْلِ الأطفالِ واستحلالِ الأمانة ، فسأفسِّر لك لِمَ ذلك إن شاء الله :

---

(١) أى من عمى أو زمانة أو غيرها ، وتمام الآية : « وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ (أى لضرر) دَرَجَةً ، وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ، وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ (أى لغير ضرر) أَجْرًا عَظِيمًا » .

(٢) قال تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا » .

أما هؤلاء القَعَد : فليسوا كما ذكرتَ مِمَّن كان بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم كانوا بمكة مَقْهورين محصورين ، لايجدون إلى الهرَب سبيلا ، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقاً ، وهؤلاء قد فَقِهُوا فى الدين، وَقرءوا القرآن ، والطريق لهم نَهْجٌ واضح ، وقد عَرَفت ما قال الله عز وجل فيمن كان مِثْلَهُم ، إذْ «قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى الْأَرْضِ » فقيل لهم « أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فيها » وقال : « فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ[1] » وقال : « وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ[2] » فخبَّر بتعذيرهم وأنهم كَذَبُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، وقال : «سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » فانظر إلى أسمائهم وسِمَاتهم[3] .

وأمّا أمْرُ الأطفال : فإن نبي الله نُوحًا عليه السلام كان أَعْلَمَ بِاللَّهِ با نجدةُ منى ومنك فقال : « رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً[4] ، إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً » فسماهم بالكفر

---

(١) أى فرحوا بقعودهم عن الغزو بعد رسول الله — وذلك فى غزوة تبوك وتمام الآية الكريمة « وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ ، وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِى الْحَرِّ ، قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ » .

(٢) يعنى أسدا وغطفان ، استأذنوا فى التخلف معتذرين بالجهد وكثرة العيال ، وقيل هم رهط عامر بن الطفيل ، قالوا : إن غزونا معك أغارت طيئ على أهالينا ومواشينا . والمعذّر : إما من عذّر فى الأمر إذا قصر فيه موهما أن له عذرا ولا عذر له ، فالمعنى : المقصرون الذين لا عذر لهم — وهذا ما عليه نافع فى كتابه — وإما من اعتذر فأصلها المعتذرون ، ألقيت فتحة التاء على العين وأبدل منها دال وأدغمت فى الدال التى بعدها ، ومعناه : الذين يعتذرون ، كان لهم عذر أو لم يكن ، وقرأ ابن عباس المعذرون بسكون العين — وهم الذين لهم العذر — وكان يقول : والله لكذا أنزلت ، وقال . لعن الله المعذرين (بالتشديد) .

(٣) جمع سمة ، وهى العلامة .

(٤) أحدا .

وهم أطفال وقبل أن يُولدوا ، فكيف كان ذلك فى قوم نوح ، ولا نكون نَقُولهُ فى قومنا ؟ والله يقول : « أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولٰئِكُمْ ، أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ[1] » وهؤلاء كمشركى العرب لا تُقْبَل منهم جِزية ، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام :

وأما استحلال أمانات من خالفنا ، فإن الله عز وجل أَحَلَّ لنا أموالهم كما أحل لنا دماءهم ، فدماؤهم حَلاَلٌ طِلْق[2] ، وأموالهم فَىْءٌ للمسلمين ، فاتق الله وراجع نفسك ، فإنه لا عُذْرَ لك إلا بالتوبة ، ولن يَسَعَك خِذلانُنا ، والقعودُ عنا ، وتَرْكُ ما نَهَجناه لك من طريقتنا ومقالتنا ، والسلام على من أقرَّ بالحق وعَمِل به » .

(الكامل ٢ : ١٧٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٨٢ ، والعقد الفريد ١ : ٢١٤)

١٠٤ — كتاب ابن عباس إلى نجدة بن عامر

وكتب نجدة بن عامر إلى ابن عباس يسأله عن سَهْم ذوى القربى : لمن هو ؟ فكتب إليه ابن عباس :

« كتبت إلىّ تسألنى عن سهم ذوى القربى لمن هو ، وهو لنا ، وإن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دعانا إلى أن نُنكح منه أيِّمنا[3] ، ونَقْضِىَ منه عن مَغْرَمنا ، ونُخدم منه عائلتنا ، فأبينا إلا أن يسلّمه لنا: وأبى ذلك علينا»

(كتاب الخراج لأبى يوسف ص ٢٤)

---

(١) الزبر جمع زبور كصبور : وهو الكتاب — فعول بمعنى مفعول : أى أم أنزل لكم فى الكتب السماوية أن من كفر منكم فهو فى أمان من عذاب الله ؟

(٢) طلق : حلال ، فهو تأكيد على حد قولهم : قفل راجعا .

(٣) الأيم : العزب رجلا كان أو امرأة سواء تزوج من قبل أو لم يتزوج .

١٠٥ — كتاب نافع إلى خوارج البصرة

وكتب نافع إلى مَن بالبصرة من المُحَكِّمة[١] .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : « فَإِنَّ ٱللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ، والله إنكم لتعلمون أنَّ الشريعة واحدة ، والدين واحد ، فَفِيمَ المُقَامُ بين أظهُرِ الكفار ، تَرَوْنَ الظُّلم ليلاً ونهاراً ؟ وقد نَدَبكم الله إلى الجهاد ، فقال : « وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً » ولم يجعل لكم فى التخلُّف عذراً فى حال من الأحوال فقال : « انْفِرُوا[٢] خِفَافاً وَثِقَالاً » وإنما عَذَر الضُّعفاءَ والمَرْضى والذين لا يَجِدُونَ ما ينفقون[٣] ، ومن كانت إقامته

(١) يسمى الخوارج « المحكمة » لأنهم أنكروا أمر الحكمين ، وقالوا : لاحكم إلا الله ، ولا حكم إلا لله ، وكأن هذه التسمية على السلب ، لأنهم ينفون الحكم وينكرون التحكيم ، ونظير ذلك تسمية جماعة القدرية (بالتحريك) بهذا الاسم ، مع أن الأساس الذى قام عليه مذهبهم هو « لاقدر » فهم ينكرون قدر الله ، ويغالون فى إثبات القدرة للإنسان ، وأنه حر الإرادة فى أعماله . وكان الأولى أن نسمى جماعة المجبرة بالقدرية لإسنادهم جميع أفعال العبد إلى القدر .

وذكروا أن أول من حكم ولفظ بالحكومة رجل يقال له الحجاج بن عبد الله ويعرف بالبرك — وهو أحد الخوارج الثلاثة الذين انتدبوا على قتل على ومعاوية وعمرو بن العاص — فإنه لما سمع بذكر الحكمين قال : أيحكم فى دين الله ؟ لاحكم إلا لله ، فسمعه سامع فقال : طعن والله فأنفذ ، وقيل إن أول من حكم عروة بن أدية ، وأول سيف سل من سيوف الخوارج سيفه . وذلك أنه لما كتبت صحيفة التحكيم بين على ومعاوية خرج الأشعث بن قيس الكندى بها يقرؤها على الناس ، حتى مر على طائفة من بنى تميم فيهم عروة ، فقرأها عليهم ، فقال عروة : تحكمون فى أمر الله عز وجل الرجال ؟ لاحكم إلا لله ، ماهذه الدنية يا أشعث وما هذا التحكيم ؟ ثم شهر عليه السيف والأشعث مولّ فضرب به عجز البغلة فشبت البغلة ، فنفرت اليمانية وكانوا جل أصحاب على ، فلما رأى ذلك الأحنف بن قيس قصد هو وأصحابه إلى الأشعث فسألوه الصفح فقبل وصفح .

(٢) انفروا : اخرجوا ، وتمام الآية الكريمة : « وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ »

(٣) يشير إلى قوله تعالى . « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ ، وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى ٱلَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ».

لِعلَّة ، ثم فضَّل عليهم مع ذلك المُجَاهِدِينَ فقال : « لاَ يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فى سَبِيلِ اللّهِ » فلا تغترُّوا ، ولا تطمئنوا إلى الدنيا ، فإنها غرَّارة مَكّارَة ، لَذَّتُها نافِدَة[1] ، ونِعْمَتها بائِدة ، حُفَّت بالشهوات اغترارا ، وأظهرت حَبْرة[2] ، وأضمرت عِبْرَةً ، فليس آكل منها أُكْلَة[3] تسرّه ، ولا شاربٌ شُرْبة تُؤْنِقه[4] ، إلاّ دنا بها درجةً إلى أجله ، وتباعَدَ بها مسافةً من أمَله ، وإنما جعلها الله داراً لمن تَزَوَّد منها إلى النعيمِ المقيم ، والعيش السليم ، فلن يرضى بها حازمٌ داراً ، ولا حَلِيم[5] بها قَرَاراً ، فاتقوا الله « وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى » والسلام على من اتبع الهدى » .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٧٩ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٣٨٢)

١٠٦ — كتاب نافع إلى عبد الله بن الزبير

وكتب نافع إلى عبد الله بن الزبير يدعوه إلى أمره :

« أما بعدُ : فإنى أُحذِّرك من الله « يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا، وَمَاعَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا، وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ » فاتَّقِ اللّهَ ربَّك وَلاَ تَتَوَلَّ الظالمين ، فإن اللّه يقول : « وَمَنْ

---

(١) ذاهبة فانية .

(٢) الحبرة : السرور كالحبور ، وفى الأصل «حيرة» وهو تصحيف .

(٣) الأكلة بالفتح : المرة ، وبالضم : اللقمة والطعمة . والشربة بالفتح : المرة ، وبالضم : مقدار الرىّ من الماء كالحسوة .

(٤) آنقه الشئ إيناقا : أعجبه ، وفى رواية « توافقه »

(٥) حليم : عاقل ، من الحلم بالكسر وهو العقل ، وفى رواية « حكيم » .

يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ » وقال « لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِى شَىْءٍ » وقد حضرتَ عثمانَ يوم قُتِلَ ، فلعمرى لئن كان قُتِلَ مظلومًا لقد كفر قاتِلُوه وخاذِلوه ولئن كان قاتِلُوه مُهتدين — وإنهم لَمُهْتَدون — لقد كفرَ من يتولاه وينْصُره ويَعْضُده ، ولقد علِمْتَ أن أباكَ وطَلْحةَ وعلِيًّا كانوا أشد الناس عليه ، وكانوا فى أمره من بين قاتِلٍ وخاذِلٍ ، وأنت تتولَّى أباكَ وطلحة وعثمان ، وكيفَ ولايةُ قاتِلٍ مُتَعَمِّدٍ ومقتولٍ فى دين واحد ؟ ولقد مَلَكَ علِيٌّ بَعْدَه ، فنَفى الشُّبُهَاتِ ، وأقام الحدودَ ، وأجرى الأحكامَ مَجارِيَهَا ، وأعطى الأمور حقائِقَها فيما عليه وله ، فبايعه أبوكَ وطلحةُ ، ثم خَلَعاه ظَالِمَيْنِ له ، وإن القول فيك وفيهما لَكَما قال ابن عباس : « إن يكن علِيٌّ فى وقت معصيتكم ومُحاربتكم له كان مؤمنًا ، أَمَا لقد كَفَرتم بقتال المؤمنين وأئمة العَدْل ، ولئن كان كافراً كما زعمتم ، وفى الحكم جائراً ، لقد بُؤْتُم بغضب من الله لِفراركم من الزَّحْف» ولقد كنتَ له عَدُوًّا ، ولسيرته عائبًا ، فكيف تولَّيْتَه بعد موته ؟ » .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٧٩ ، والعقد الفريد ١ : ٢١٤)

١٠٧ — كتاب من عبد الله بن الزبير إلى المهلب بن أبى صفرة

واشتدت شوكة الخوارج الأزارقة بالأهواز ، وخشِى أهل البصرة أن يجتاحوا مِصْرَهم ، فهبُّوا لمدافعتهم ، ونَشِبت بين الفريقين عِدّةُ وَقَعات[1] ،

---

(١) لما غلب نافع على بلاد الأهواز أقام بها يعترض الناس ويقتل الأطفال ، فإذا أجيب إلى المقالة جبى الخراج ، وفشا عماله فى السواد ، فارتاع لذلك أهل البصرة ، فاجتمعوا إلى الأحنف بن قيس فشكوا ذلك إليه ، وقالوا : ليس بيننا وبين العدو إلا ليلتان ، وسيرتهم ماترى ، قال الأحنف : إن فعلهم فى

ثم أجمع رأى القوم على أنه ليس لهذا الأمر إلا المُهَلَّبُ بن أبى صُفْرة فكلموه أن يتولى قتال الخوارج — وكان ابن الزبير قد كتب له عهداً على خُراسان — فقال لهم : لا أفعل ، هذا عهد أمير المؤمنين معى على خراسان ، فلم أكن لِأَدَعَ عهده وأمره ، فدعاه أمير البصرة الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة المعروف بالقُبَاع ، فكلمه فى ذلك ، فقال له مثل ذلك ، فاتفق رأى الأمير ورأى أهل البصرة على أن كتبوا على لسان ابن الزبير :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله بن الزبير إلى المهلب بن أبى صفرة ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن الحارث بن عبد الله كتب إلىّ أن الأزارقة المارقة أصابوا جُنداً للمسلمين كان

مصركم إن طفروا به كفعلهم فى سوادكم ، فجدوا فى جهاد عدوكم ، فاجتمع إليه عشرة آلاف فأتى عبد الله بن الحرث بن نوفل بن الحرث بن عبد المطلب (وهو ببة) أمير البصرة من قبل ابن الزبير فسأله أن يؤمر عليهم ، فاختار لهم مسلم بن عبيس فأمره عليهم ، والتقى بنافع فى « دولاب » فاقتتلوا قتالا شديدا ، وقتل فى المعركة ابن عبيس ونافع . ثم عزل ابن الزبير عبد الله بن الحرث عن البصرة وولاها عمر ابن عبيد الله بن معمر ، وولىّ عمر أخاه عثمان بن عبيد الله محاربة الأزارقة . فلما عبروا إليهم دجيلا نهض إليهم الخوارج — وذلك قبيل الظهر — فقال عثمان لحارثة بن بدر : أما الخوارج إلا ما أرى ؟ فقال له حارثة : حسبك بهؤلاء ، فقال : لا جرم ، والله لا أتغدى حتى أناجزهم ، فقال له حارثة : إن هؤلاء لا يقاتلون بالتعسف فأبق على نفسك وجندك ، فقال : أبيتم أهل العراق إلا جبنا ، وحاربهم عثمان يومه إلى أن غابت الشمس ، فأجلت الحرب عنه قتيلا ، وانهزم الناس .

وعزل ابن الزبير عمر بن عبيد الله وولى الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة — وهو أخو عمر بن عبد الله ابن أبى ربيعة المخزومىّ الشاعر — وأقام حارثة بن بدر يدافع الخوارج فهزموه ، فهرب يركض حتى أتى دجيلا ، فجلس فى سفينة واتبعه جماعة من أصحابه ، وأتاه رجل من بنى تميم ، وعليه سلاحه ، والخوارج وراءه ، فصاح به : ياحارث ليس مثلى ضيع ، فقال للملاح : قرب ، فقرب إلى جرف ، فطفر بسلاحه فى السفينة ، فساخت بالقوم جميعا ، وماتوا غرقا ، وتوجه الخوارج نحو البصرة ، فضج الناس إلى الأحنف ، فأتى الحارث بن عبد الله فقال : أصلح الله الأمير ، إن هذا العدو قد غلبنا على سوادنا وفيئنا ، فلم يبق إلا أن يحصرنا فى بلدنا حتى نموت هزلا ، قال فسموا رجلا ، فقال الأحنف : ما أرى لها إلا المهلب بن أبى صفرة ، فولاه قتالهم .

عددهم كثيراً ، وأشرافهم كثيراً ، وذكر أنهم قد أقبلوا نحو البصرة ، وقد كنت وجَّهْتُك إلى خراسان ، وكتبت لك عليها عَهْداً ، وقد رأيت حيثُ ذُكِر أمرُ هذه الخوارج أن تكون أنت تَلِي قِتالَهم ، فقد رجوت أن يكون ميموناً طائرُك ، مُبارَكا على أهل مصرك ، والأجر فى ذلك أفضلُ من المسير إلى خُراسان ، فسرْ إليهم راشِداً ، فقاتل عدو الله وعدوك ، ودافع عن حقك وحقوق أهل مصرك ، فإنه لن يفوتك من سلطاننا خراسان ولا غير خراسان إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٨٦)

١٠٨ — كتاب المهلب إلى الحارث بن عبد الله

ونهض المهلب لقتال الخوارج ، ومضى يَؤُمُّ سُوق الأهواز[1] فدخلها ، وكتب بذلك إلى الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة أمير البصرة كتابا يقول فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعد : فإنا منذ خرجنا نؤُمُّ هذا العدو ، فى نِعَم من الله متصلةٍ علينا ، ونعمةٍ من الله متتابعةٍ عليهم ، نُقْدم ويُحْجِمون ، ونَحُلّ ويرتحلون ، إلى أن حَلَلْنا سُوق الأهواز ، والحمد لله رب العالمين ، الذى من عنده النصر وهو العزيز الحكيم » .

---

(١) مدينة بالأهواز .

١٠٩ — رد الحارث بن عبد الله عليه

فكتب إليه الحارث :

« هنيئاً لك « أخا الأَزْدِ[١] » الشَّرفُ فى الدنيا ، والذُّخْرُ فى الآخرة إن شاء الله » . (الكامل للمبرد ٢ : ١٨٩)

١١٠ — كتاب المهلب إلى الحارث بن عبد الله

وكانت وقعة سِلَّى وسِلَّبْرَى[٢] من أشد الوَقَعات بين المهلب والخوارج ، دارت عليهم فيها الدائرة ، وقُتل أميرهم عُبَيد الله بن بشير بن الماحوز وكتب المُهَلَّب بن أبى صُفرة إلى الحارث بن عبد الله بعد الوقعة .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعدُ : فإنا لَقِينا الأزارقَةَ المارِقة بحَدٍّ وجِدٍّ ، فكانت فى الناس جَوْلَةٌ ، ثم ثابَ[٣] أهلُ الحِفاظ والصَّبْر بنِيَّاتٍ صادقة ، وأبْدان شِدادٍ ، وسُيوف حِدَادٍ[٤] ، فأعقَبَ اللهُ خيرَ عاقِبَةٍ ، وجاوَزَ بالنِّعمة مِقدارَ الأَمَل ، فصاروا دَرِيئةً[٥] رماحنا ، وضَرائِبَ[٦] سيوفنا ، وقتل الله أميرَهم ابنَ الماحوز ، وأرجو أن يكون آخِرُ هذه النعمة كأوّلها ، والسلام » . (الكامل للمبرد ٢ : ١٩٥)

---

(١) وقد استجفاه المهلب لمخاطبته إياه بقوله : « أخا الأزد » فقال لأصحابه : ما أجفى أهل الحجاز ! أما ترونه يعرف اسمى واسم أبى وكنيتى ؟

(٢) مجموع اللفظين موضع واحد بالأهواز قرب جند يسابور . (٣) رجع .

(٤) وكان الخوارج قد نادى مناديهم فى أثناء المعركة ألا إن المهلب قد قتل ، فأقبل المهلب يركض بين الصفين وهو يصيح : أنا المهلب ، فسكن الناس بعد أن كانوا قد ارتاعوا وظنوا أن أميرهم قد قتل

(٥) الدريئة : الحلقة يتعلم الطعن والرمى عليها .

(٦) ضرائب : جمع ضريبة ، وهى ما يضرب بالسيف .

١١١ — رد الحارث بن عبد الله على المهلب

فكتب إليه الحارث :

« قد قرأت كتابك يا أخا الأَزْد ، فرأيتُك قد وهب الله لك شَرَفَ الدنيا وعِزَّها ، وذَخَر لك ثوابَ الآخرة إن شاء الله وأَجْرَها ، ورأيتُك أوثقَ حُصُونِ المسلمين ، وهادَّ أركانِ المشركين ، وأَخَا السِّياسة ، وذَا الرِّياسة ، فاستدِمِ الله بِشُكْره ، يُتْمِمْ عليك نِعَمَه والسلام[1] » .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٩٦)

صورة أخرى لكتاب المهلب إلى الحارث

وروى الطبرى كتاب المهلب السابق إلى الحارث بن عبد الله بصورة أخرى قال :

ولما ظهر المهلَّبُ على الأزارقة « فى وقعة سِلَّى وَسِلَّبْرَى » كتب إلى الحارث بن عبد الله :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، للأمير الحارث بن عبد الله من المهَلَّب بن أبى صُفرة ، سلام عليك : فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فالحمد لله الذى نَصر أمير المؤمنين ، وهَزَم الفاسقين ، وأنزل بهم نِقْمته ، وقتَلهم كُلَّ قِتْلةٍ ، وشرَّدهم كل مُشرَّد .

---

(١) وكتب إليه أهل البصرة يهنئونه ولم يكتب إليه الأحنف ولكن قال : اقرءوا عليه السلام وقولوا له : أنا لك على ما فارقتك عليه ، فلم يزل يقرأ الكتب ويلتمس فى أضعافها كتاب الأحنف ، فلما لم يره قال لأصحابه : أما كتب إلينا ؟ فقال له الرسول : حملنى إليك رسالة وأبلغه ، فقال : هذه أحب إلينا من هذه الكتب .

أُخبِرُ الأميرَ «أصلحه الله» أنَّا لقِينا الأَزَارقةَ بأرض من أرض الأهواز يقال لها «سِلَّى وسِلَّبْرَى» فزحَفْنا إليهم، ثم ناهضناهم، فاقتتلْنا كأشدّ القتال مَلِيًّا[١] من النهار، ثم إن كتائبَ الأزارقة اجتمع بعضُها إلى بعض، ثم حَمَلوا على طائفةٍ من المسلمين فهزموهم، وكانت فى المسلمين جَوْلَةٌ قد كنتُ أشفقتُ أن تكون هى إلاَّ صِرِّى[٢] منهم، فلما رأيت ذلك عَمَدْتُ إلى مكانٍ يَفَاعٍ[٣] فعلوتُه، ثم دعوتُ إلىّ عَشِيرتى خاصَّةً والمسلمين عامة، فثاب إلىَّ أقوام شَرَوا أنفسَهم ابتغاءَ مَرْضاةِ الله، من أهل الدين والصبر والصدق والوفاء، فقصَدْتُ بهم إلى عَسْكر القوم، وفيه جماعتُهم وحَدُّهم، وأميرُهم قد أطاف به أُولُو فَضْلِهم فِيهِمْ وذوو النِّيات[٤] منهم، فاقتتلْنا ساعةً، رمياً بالنَّبل وطَعْناً بالرماح، ثم خلَص الفريقان إلى السيوف، فكان الجِلادُ بها ساعةً من النهار مُبَالطةً[٥] ومُبالدةً، ثم إن الله عز وجل أنزل نصره على المؤمنين، وضَرَب وجوهَ الكافرين، ونزل طاغِيَتُهم فى رجال كثير من حُمَاتِهم وذوى نِيَّاتهم، فقتلهم الله فى المعركه، ثم أتبعتُ الخيلَ شُرَّادهم، فقُتِلُوا فى الطريق والإِخَاذِ[٦] والقَرِىِّ، والحمد لله رب العالمين، والسلام عليك ورحمة الله».

فلما أتى هذا الكتاب الحارث بن عبد الله بعث به إلى ابن الزبير فقرئ على الناس بمكة. (تاريخ الطبرى ٧ : ٨٩)

---

(١) طويلا. (٢) أصرّ على الأمر: عزم، وهو منى صرى، أى عزيمة قاطعة وجدّ.
(٣) اليفاع واليفع بالتحريك: التل.
(٤) أى وذوو النيات الصادقة منهم، وربما كان الأصل «وذوو الثبات منهم».
(٥) المبالطة والبلاط: التجالد بالسيوف، وكذا المبالدة: المجالدة بالسيوف والعصى.
(٦) الإخاذ: الغدران جمع إخاذة، والقرىّ: مسيل الماء من التلاع.

صورة أخرى لرد الحارث على المهلب

وروى الطبرى أيضاً رد الحارث بن عبد الله على كتاب المهلب بصورة أخرى ، وهى :

وكتب الحارث بن أبى ربيعة إلى المهلب :

«أما بعد : فقد بلغنى كتابُك تذكر فيه نَصْرَ الله إياك وظَفَرَ المسلمين، فهنيئاً لك يا أخا الأزد بشرف الدنيا وعِزّها ، وثواب الآخرة ، وفضلها ، والسلام عليك ورحمة الله » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٨٩)

١١٢ — كتاب مصعب بن الزبير إلى المغيرة بن المهلب

ولم يزل المهلب يقاتل الخوارج فى ولاية الحارث بن عبد الله ، حتى عزل الحارث ووَلِىَ مُصْعَب بن الزبير ، فكتب إليه : أَنِ اقْدَم علىّ واستخلِفْ ابنك المُغيرة ، ففعل ثم مضى إلى مُصْعَب فولّاه المَوْصِلَ .

وكتب مصعب إلى المغيرة بن المهلب بولايته : كتب إليه :

« إنك إن لم تكن كأبيك فإنك كافٍ لما وَلَّيْتُك ، فشمِّر واتَّزِرْ[1] ، وجِدّ واجتهد » .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٩٨)

---

(١) يقال : ائتزر بالإزار وتأزّر به : أى لبسه، وازرر أيضا وأصله ائتزر. أُدغمت الهمزة فى التاء والمعنى استعدّ .

١١٣ — كتاب عمر بن عبيد الله إلى مصعب بن الزبير

وولّى مُصْعَبُ بن الزبير عُمَرَ بن عُبَيد الله بن مَعْمرٍ قتال الخوارج بعد المهلب ، فزحف إليهم فقاتلهم قتالا شديداً قُتِل فيه ابنه عُبَيد الله ، فحمل عليهم حَمْلة هزمهم فيها وانتهبهم ، ثم كتب إلى مصعب :

« أما بعد : فإنى قد لَقِيت الأزارقة ، فرزَقَ اللهُ عُبَيدالله بن عمر الشهادة، ووهب له السعادةَ ، ورزقَنا عليهم الظَّفَر ، فتفرّقوا شَذَرَ مَذَرَ[1] ، وبلغتنى عنهم عودةٌ ، فيَمَّمْتُهم[2] ، وبالله أستعين ، وعليه أتوكل » .

(الكامل للمبرد ٢ : ١٩٩)

طلب التوابين بدم الحسين

رضى الله عنه

وفى سنة ٦٥ هـ تحركت الشِّيعة بالكوفة ، واتّعدوا الاجتماعَ بالنُّخيلة للمسير إلى أهل الشأم ، للطلب بدم الحسين بن على رضى الله عنهما ، وذلك أنهم بعد مَقْتله تلافوا بالتلاوُم والتندُّم ، ورأوا أنهم قد أخطئوا خطأً كبيراً بدعائهم إياه إلى النُّصرة وتركهم إجابته، ومقتلِه إلى جانبهم لم ينصروه ، ورأَوا أنه لا يُغْسَل عارهم والإثم عنهم فى مقتله إلا بقتل من قتله أو القتل فيه ،

(١) تفرقوا شذر مذر بفتح الشين والميم وكسرهما : ذهبوا فى كل وجه .
(٢) أى قصدت إليهم .

وتابوا مما فَرَط منهم فى ذلك ـ فسُمُّوا التَّوَّابين ، وولَّوا أمرهم سليمانَ ابن صُرَد الخُزَاعِيّ .

١١٤ — كتاب سليمان بن صرد
إلى سعد بن حذيفة بن اليمان

وكتب سليمان إلى سعد بن حُذَيْفَة بن اليمَان بالمدائن كتابا يقول فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من سليمان بن صُرَد إلى سعد بن حُذَيفة ومَن قِبَله من المؤمنين ، سلام عليكم ، أما بعدُ : فإن الدنيا دارٌ قد أدْبَرَ منها ما كان معروفا ، وأقبلَ منها ما كان مُنْكَرا ، وأصبحَتْ قد تَشَنَّأَتْ[1] إلى ذوى الألْباب ، وأزْمَعَ[2] التَّرْحالَ منها عبادُ الله الأخيار ، وباعوا قليلاً من الدنيا لا يَبْقَى ، بجَزيلِ مَثُوبةٍ عند الله لا يَفْنَى ، إن أولياءَ الله من إخوانكم وشيعة آل نبيكم ، نظروا لأنفسهم فيما ابتُلُوا به من أمر ابن بنت نبيِّهم الذى دُعِيَ فأجاب ، ودعا فلم يُجَب ، وأراد الرَّجْعَةَ فحُبِس ، وسألَ الأمانَ فمُنِع ، وترك الناس فلم يتركوه ، وعَدَوا عليه فقتلوه ، ثم سلبوه وجرّدوه ظلما وعُدوانا ، وغِرَّةً بالله وجَهْلا ، وبعَيْن الله ما يعملون ، وإلى الله ما يَرْجعون ، « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » فلما نظر إخوانكم ، وتدبَّرُوا عواقبَ مااستقبلوا ، رأَوا أَنْ قد خَطِئوا بخِذْلان الزَّكِيِّ الطيِّب ، وإسلامِه[3] ، وترك مواساته ، والنصر له خَطَأً كبيراً ، ليس لهم منه مَخْرج ولا تَوبةٌ دون

---

(١) يريد أنها قد صارت مشنوءة : أى مكروهة مبغضة ، من شنئه كسمع ومنع إذا كرهه .
(٢) أزمع الأمر وعليه : أجمعت أو ثبتّ عليه . (٣) أسلمه : خذله .

قَتْلِ قاتليه أو قتلهم ، حتى تفنى على ذلك أرواحُهم ، فقد جد إخوانكم ، فجِدوا وأعِدُّوا واستعدوا ، وقد ضرَبنا لإخواننا أجَلاً يوافوننا إليه ، ومَوْطِناً يلقَوْننا فيه ، فأما الأَجَل فغُرَّة[1] شهر ربيع الآخر سنة ٦٥ ، وأما الموطن الذى يلقوننا فيه فالنُّخَيْلة ، أنتم الذين لم تزالوا لنا شِيعةً وإخواناً وإلاًّ[2] ، وقد رأينا أن نَدْعُوَكم إلى هذا الأمر الذى أراد اللهُ به إخوانُكم فيما يزعمون ويُظهرون لنا أنهم يتوبون، وإنكم جُدَراء[3] بتَطْلاب الفضل والتماس الأجر، والتوبة إلى ربكم من الذنب ، ولو كان فى ذلك حَزُّ الرقاب ، وقتل الأولاد ، واستيفاء الأموال ، وهلاكُ العشائر ، ما ضَرَّ أهلَ عَذْراء[4] الذين قُتِلوا ألاَّ يكونوا اليومَ أحياء وهم عند ربهم يُرْزقون ، شُهداء قد لقُوا الله صابرين محتسِبين ، فأثابهم ثواب الصابرين ـ يعنى حُجْراً وأصحابه ـ وما ضرّ إخوانكم المقتَّلين صبرا[5] ، والمصَلَّبين ظلما، والممْثُول بهم ، المعتَدَى عليهم ، ألاَّ يكونوا أحياءً مُبْتَلَيْن بخطاياكم ، قد خِير[6] لهم فلقُوا ربَّهم ووفَّاهم اللهُ «إن شاءالله» أجرَهم، فاصبِروا «رَحِمَكم الله» على البأْساء والضَّرَّاء وحين البَأْسِ ، وتوبوا إلى الله عن قريب ، فوالله إنكم لأحْرِياء[7] أن لا يكونَ أحدٌ من إخوانكم ، صَبَرَ على شىء من البلاء إرادةَ ثوابه ، إلا صَبَرتم التماسَ الأجر فيه على مِثْله ، ولا يَطلبَ رضاءَ الله طالبٌ بشىء من الأشياء ـ ولو أنه القتلُ ـ إلاطَلَبتم رضاء

---

(١) الغرة من الشهر وغيره : أوله .

(٢) الإلّ : القرابة . (٣) جمع جدير : أى حقيق .

(٤) عذراء : قرية بغوطة دمشق قتل بها معاوية حجر بن عدى وأصحابه .

(٥) قتل صبرا : هو أن يحبس ويرمى حتى يموت .

(٦) خار الله له فى الأمر : جعل له فيه الخير . (٧) جمع حرىّ : أى جدير وحقيق .

الله به ، إن التقوى أفضلُ الزاد فى الدنيا ، وما سوى ذلك يَبُور[١] ويَفْنَى ، فلْتَعْزِفْ[٢] عنها أنفسكم ، ولتكن رغبتُكم فى دار عافيتكم ، وجهادِ عدوِّ الله وعدوِّكم ، وعدوِّ أهل بيت نبيكم ، حتى تَقْدَموا على الله تائبين راغبين ، أحيانا الله وإياكم حياةً طيِّبة ، وأجارنا وإياكم من النار ، وجعل مَنَايانا قَتْلاً فى سبيله على يَدَىْ أبغض خَلْقه إليه ، وأشدِّهم عداوةً له ، إنه القدير على ما يشاء ، والصانع لأوليائه فى الأشياء ، والسلام عليكم » .

فقرأ سعد بن حُذَيفةَ كتب سليمان بن صُرَد على الشِّيعة بالمدائن ، وقال لهم : إن إخوانكم قد بعثوا إليكم يستنجدونكم ويستمدونكم ، فماذا تَرَون؟ وماذا تقولون ؟ فقال القوم بأجمعهم : نجيبهم ونقاتل معهم ، ورأْيُنا فى ذلك مثل رأيهم . (تاريخ الطبرى ٧ : ٤٩)

١١٥ — رد سعد بن حذيفة على ابن صرد

فكتب سعد بن حذيفة إلى سليمان بن صرد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، إلى سليمان بن صرد من سعد بن حذيفة ومن قبله من المؤمنين ، سلام عليكم ، أما بعد : فقد قرأنا كتابك ، وفهمنا الذى دعوْتَنا إليه ، من الأمر الذى عليه رأى المَلاٍ من إخوانك ، فقد هُدِيتَ لحظِّك ، ويُسِّرْتَ لرُشْدك ، ونحن جَادُّونَ مُجِدُّون[٣] ، مُعِدُّون مُسْرِجون

---

(١) يهلك . (٢) عزفت نفسه عنه كضرب عزوفا : زهدت فيه وانصرفت عنه .

(٣) يقال جد فى الأمر يجد بكسر الجيم وضمها ، وأجد : أى اجتهد ، وأسرج الدابة : شد عليها السرج ، وألجمها : ألبسها اللجام .

مُلْجِمُون ، ننتظر الأمر ونستمِع للداعى ، فإذا جاء الصَّرِيخُ[1] أقبلْنا ولم نُعَرِّج إن شاء الله والسلام » .

فلما قرأ كتابه سليمان بن صرد قرأه على أصحابه فسُرُّوا بذلك .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٥١)

١١٦ — كتاب المثنى بن مخرِّبة إلى ابن صرد

وكتب ابن صرد إلى المُثَنَّى بن مخرِّبة العَبْدى نسخة الكتاب الذى كتب به إلى سعد بن حذيفة ، فكتب إليه المثنى :

« أما بعد : فقد قرأت كتابك ، وأقرأتُه إخوانك ، فحمِدوا رأيك ، واستجابوا لك ، فنحن مُوافُوك « إن شاء الله » للأجل الذى ضربْتَ ، وفى الموطِنِ الذى ذكرتَ ، والسلام عليك » .

وكتب فى أسفل كتابه .

تَبصَّرْ كأنّى قد أتيْتُك مُعْلمًا ... على أتْلَعِ الهادِى أجَشَّ هَزِيمِ[2]

طَوِيلِ القَرَا نَهْدِ السَّوَاءِ مُقَلِّصٍ ... مُلِحٍّ على فأْسِ اللِّجامِ أزُومِ[3]

---

(١) الصريخ : المستغيث (والمغيث أيضا : ضد) .

(٢) أعلم نفسه فهو معلم : وسمها بسيمى الحرب ، وأعلم فرسه : علق عليه صوفا ملونا فى الحرب ، على أتلع الهادى : أى على فرس أتلع الهادى ، والهادى : العنق ، وأتلع وتلع : طويل العنق ، وصف من التلع بالتحريك وهو طول العنق ، وفعله كفرح وكرم ، والأجش : الغليظ الصوت من الخيل (ومن الإنسان ومن الرعد وغيره) والهزيم : الفرس الشديد الصوت (أى القوى الصوت) .

(٣) القرا : الظهر والنهد : الفرس الحسن الجميل الجسيم اللحم المشرف . وسواء الجبل : ذروته ، فمعنى نهد السواء : مشرف الذروة ، وفى الأصل « السواء » بالسين وهو تصحيف ، وإنما الوارد فى كتب اللغة « الشوى » مقصورا ، وشوى الفرس قوائمه ، وفرس مقلص : مشرف طويل القوائم منضم البطن ، الفأس من اللجام : الحديدة القائمة فى الحنك ، وأزم الفرس على فأس اللجام كضرب أزما وأزوما فهو آزم وأزوم : عض عليه وقبض .

بكل فَتًى لا يَمْلأُ الرَّوْعُ نَحْرَهُ   مُحِسٍّ لعَضِّ الحرب غيرِ سَئُومِ(١)
أخِي ثِقةٍ ينوِى الإله بسَعْيه   ضَروبٍ بنَصْلِ السيفِ غيرِ أَثِيمِ
(تاريخ الطبرى ٧ : ٥١)

١١٧ — كتاب عبد الله بن يزيد إلى ابن صرد

فلما استهلّ هلال ربيع الآخِر سنة ٦٥ هـ خرج سليمان بن صرد فى أصحابه إلى النُّخَيلة، وبلغ ذلك عبدَ الله بن يزيد الأنصارى أميرَ الكوفة من قبل ابن الزبير — وكان ابن الزبير ولّاه أميراً عليها على حربها وثغرها، وولّى إبراهيم ابن محمد بن طلحة بن عبيد الله أميراً على خراجها — فخرجا إليه، وحاولا أن يَثْنِيَاه عن رأيه فأبى، وأجمع القوم على الشُّخوص واستقبال عبيد الله بن زياد.

ثم أَدْلَجَ(٢) ابن صُرَد عَشِيَّةَ الجمعة لخمس مضين من ربيع الآخر، وقد كتب إليه عبد الله بن يزيد:

« بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله بن يزيد إلى سليمان بن صرد ومن معه من المسلمين، سلام عليكم، أما بعدُ: فإن كتابى هذا إليكم كتابُ ناصِحٍ ذى إرْعَاء(٣)، وكم من ناصح مُسْتَغَشّ، وكم من غاشّ مستنصَحٍ مُحَبّ، إنه بلغنى أنكم تريدون المسير بالعَدَدِ اليَسير إلى الجَمْعِ الكثير، وإنه مَن يُرِد أن ينقُل الجبالَ عن مَرَاتِبِها(٤) تَكِلّ مَعَاوِله، ويُنزَع وهو مذموم

---

(١) الروع: الفزع، محس لعض الحرب: معناه أنه مدرب عليها قد اعتاد أن يخوض غمارها، وأن يعضه نابها، والسئوم: الكثير السآمة.

(٢) أدلج: سار من أول الليل، فإن سار من آخره فادّلج بالتشديد.

(٣) أرعى على أخيه: أبقى عليه.

(٤) المراتب: جمع مرتبة، وهى المنزلة، من رتب رتوبا إذا ثبت واستقر ولم يتحرك: أى عن أماكنها التى رتبت بها، وربما كان الأصل «عن مراسيها».

العقل والفعل ، يا قومَنا لا تُطْمِعوا عدوَّكم فى أهل بلادكم ، فإنكم خِيارٌ كلكم ، ومتى ما يُصِبْكم عدوُّكم يعلموا أنكم أعلامُ[1] مِصْركم فيُطْمعهم ذلك فيمن وراءكم ، « ياقومنا إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا[2] عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَنْ أَبَدًا » يا قومنا إن أيدينا وأيديَكم اليومَ واحدة ، وإن عدوَّنا وعدوكم واحد ، ومتى تجتمعْ كلمتُنا نَظْهَرْ على عدونا ، ومتى تختلف تَهُنْ[3] شوكتنا على من خالفنا ، يا قومنا لا تَستغِشُّوا نُصحى ، ولا تخالفوا أمرى ، وأقبلوا حين يُقرأ عليكم كتابى ، أقبل الله بكم إلى طاعته ، وأدْبَر بكم عن معصيته ، والسلام » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٧١)

١١٨ — رد ابن صرد عليه

فكتب إليه ابن صرد :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، للأمير عبد الله بن يزيد من سليمان بن صُرَد ومن معه من المؤمنين ، سلام عليك ، أما بعدُ : فقد قرأنا كتابك ، وفهمنا ما نويْتَ ، فنِعْمَ واللهِ الوالى ، ونعم الأمير ، ونعم أخو العَشيرة ، أنت واللهِ من نأْمَنه بالغَيْب ، ونستَنْصِحه فى المَشُورة ، ونحمده على كل حال ، إنا سمعنا الله عزّ وجل يقول فى كتابه : « إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا

---

(١) جمع علم بالتحريك ، وهو سيد القوم . (٢) ظهر عليه : علاه .

(٣) تهن : تضعف ، والشوكة : شدة البأس .

بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ، التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ[١] الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ » .

إن القوم قد استَبْشروا ببَيْعَتهم التى بايعوا ، إنهم قد تابوا من عظيم جُرْمهم ، وقد توجَّهوا إلى الله ، وتوكَّلوا عليه ، ورَضُوا بما قضى اللهُ ، « رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ » والسلام عليك » .

وسار ابن صرد بأصحابه حتى انتهى إلى عَيْن الوَردة[٢] فنزل فى غربيّها ، وأقبل عبيد الله بن زياد بجيشه ، ودارت رحى الحرب بين الفريقين ، واستُشْهِد[٣] فى المعركة سليمان بن صرد بعد أن قتل من القوم مقتلة عظيمة ، وقتل أيضاً كثير من رءوس أصحابه ، فلما رأى من بقِى من التَّوابين أنْ لا طاقةَ لهم بمن بإزائهم من أهل الشأم انحازوا عنهم وارتحلوا وعليهم رِفاعة ابن شَدَّاد البَجَلىّ ، وكان ذلك فى ربيع الآخر سنة ٦٥ هـ » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٧٢)

(١) السائح : الصائم الملازم للمساجد .

(٢) هى رأس العين : بلد فى وسط الجزيرة . (٣) استشهد : قتل فى سبيل الله .

طلب المختار بن أبى عبيد الثقفى

بدم الحسين رضى الله عنه

١١٩ — كتاب المختار إلى عبدالله بن عمر

وقَدِم المختار بن أبى عُبَيد الثَّقَفى[١] الكوفةَ فى رمضان سنة ٦٤ ﻫ ، فأتاه بعض الشيعة ليلا ، فسألهم عن أمر الناس ، وعن حال الشيعة ، فقالوا له : إن الشيعة قد اجتمعت لسليمان بن صُرَد الخُزاعىّ ، وإنه لن يلبث يسيراً حتى يخرج ، فجعل يزعم لهم أن محمد بن الحنفِيَّة قد بعثه إليهم أميناً ووزيراً ،

(١) هو المختار بن أبى عبيد بن مسعود الثقفى ، وقد كان لأبيه أبى عبيد شأن عظم فى فتح فارس ، فإن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين ولى الخلافة ، كان أول ما عمل به أن ندب الناس مع المثنى بن حارثة الشيبانى لقتال أهل فارس ، وجعل يندبهم ثلاثة أيام فلا ينتدب أحد إلى فارس — وكان وجه فارس من أكره الوجوه إليهم وأثقلها عليهم — فلما كان اليوم الرابع عاد فندب الناس ، فكان أول منتدب أبوعبيد والد المختار ، وقد أبلى أبو عبيد فى فتح فارس بلاء حسنا حتى مات فى وقعة الجسر وولد ابنه المختار فى السنة الأولى من الهجرة ، ولم يكن المختار فى تشيعه لآل علىّ بالمخلص ، وكانت الشيعة تنقم عليه ما كان منه فى أمر الحسن بن على رضى الله عنه يوم طعن فى مظلم ساباط وحمل إلى المدائن — وكان عم المختار وهو سعد بن مسعود عاملا له على المدائن — فقال المختار لعمه : هل لك فى الغنى والشرف ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : توثق الحسن وتستأمن به إلى معاوية ، فقال له سعد : عليك لعنة الله ، أثب على ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوثقه ! بئس الرجل أنت ! ولما قدم مسلم بن عقيل الكوفة من قبل الحسين رضى الله عنه ، نزل دار المختار ، فبايعه المختار فيمن بايعه من أهل الكوفة وناصحه ودعا إليه ، ثم ظفر ابن زياد بمسلم وقتله ، وأمر بالمختار فسجن ، فبعث المختار إلى عبد الله بن عمر بالمدينة ، يسأله أن يشفع له عند يزيد بن معاوية : — وكانت صفية أخت المختار تحت عبد الله بن عمر — . فكتب ابن عمر إلى يزيد يشفع فيه فشفعه ، وخلى ابن زياد سبيله ، وأخرجه من الكوفة ، فقدم الحجاز وبايع عبد الله بن الزبير ، وقاتل معه حين حاصر مكة جيش يزيد تحت إمرة الحصين بن نمير ، وأقام مع ابن الزبير بعد مهلك يزيد ، حتى قدم الكوفة فى منتصف رمضان سنة ٦٤ ﻫ .

وأنه أمره بقتال المُلْحِدين والطلب بدماء أهل بيته ، وما زال حتى استمال طائفة من الشيعة ، وعُظْمهم يومئذ مع ابن صُرَد :

فلما خرج ابن صرد نحو الجزيرة ـ خاف عبد الله بن يزيد الأنصارى وإبراهيم بن محمد بن طَلْحة أميرا الكوفة أن يَثِب عليهما المختار، فزَجّاه[1] فى السجن ، فكتب المختار إلى صِهْره عبد الله بن عمر بن الخطاب :

« أما بعد : فإنى قد حُبستُ مظلومًا ، وظن بى الوُلاة ظنونًا كاذبة ، فاكتب فىّ « يرحمك الله » إلى هذين الظالِمَين كتابا لطيفاً ، عسى اللهُ أن يخلّصنى من أيديهما ، بلطفك وبركتك ويُمْنك ، والسلام عليك » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٩٣)

١٢٠ — كتاب ابن عمر إلى عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن طلحة

فكتب عبد الله بن عمر إلى عبد الله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة :

« أما بعد : فقد علِمْتما الذى بينى وبين المختار بن أبى عبيد من الصِّهْر ، والذى بينى وبينكما من الودِّ ، فأقسمْتُ عليكما بحقِّ ما بينى وبينكما لَمَا خلّيتما سبيلَه حين تنظران فى كتابى هذا ، والسلام عليكما ورحمة الله » .

فلما أتاهما كتابُ ابن عمر ، دَعَوا للمختار بكُفَلاء يَضْمَنونه بنفسه ، فأتاه أناس من أصحابه كثير فضَمِنوه ، فدعَوَا به فحَلَّفاه بالله الذى لا إله إلا هو عالم الغَيْب والشَّهادة الرحمن الرحيم : لا يَبْغيهما غائلةً ، ولا يخرج عليهما

---

(١) زجه : رماه .

نما كان لهما سلطان ، فإن هو فعل فعليه ألف بَدَنة يَنْحَرها لدى رِتاج[١] الكعبة ، ومماليكُه كلُّهم ذَكَرُهم وأنثاهم أحرار ، فخلف لهما بذلك[٢] ، فأطلقاه من السجن » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٩٣)

١٢١ — كتاب المختار إلى أصحاب ابن صرد

وكتب المختار وهو فى سجنه إلى أصحاب سليمان بن صُرَد حين قَدِموا من قتال عبيد الله بن زياد :

« أما بعدُ ، فإنَّ اللهَ أعظمَ لكم الأجْرَ ، وحطَّ عنكم الوِزْرَ ، بمُفَارقة القاسطين ، وجِهادِ المُحِلِّين ، إنكم لم تُنْفقوا نفقةً ، ولم تَقْطعوا عَقَبَة[٣] ، ولم تَخْطُوا خُطوة ، إلا رفع الله لكم بها درجةً ، وكتبَ لكم بها حسنةً ، إلى مالا يُحْصيه إلا اللهُ من التضعيف ، فأَبشِروا ، فإنى لو قد خرجتُ إليكم قد جَرَّدْتُ فيما بين المشرق والمغرب فى عدوكم السيف بإذن الله ، فجعلتهم بإذن الله رُكَامًا[٤] ، وقتلتُهم فَذًّا وتَوْءما[٥] ، فرحَّب الله بمن قاربَ منكم واهتدى ، ولا يُبْعِدِ اللهُ إلا من عصى وأبَى ، والسلام يأهل الهدى »

---

(١) الرتاج : الباب العظيم .

(٢) وكان المختار بعد ذلك يقول : « قاتلهم الله ما أحمقهم حين يرون أنى أفى لهم بأيمانهم هذه ؟ أما حلفى لهم بالله فإنه ينبغى لى إذا حلفت على يمين فرأيت ما هو خير منها أن أدع ما حلفت عليه وآتى الذى هو خير وأكفّر يمينى ، وخروجى عليهم خير من كفى عنهم وأكفر يمينى ، وأما هدى ألف بدنة ، فهو أهون علىّ من بصقة ، وما ثمن ألف بدنة فيهولنى ؟ وأما عتق مماليكى فوالله لوددت أنه قد استتب لى أمرى ، ثم لم أملك مملوكا أبداً » .

(٣) العقبة : المرقى الصعب فى الجبل .

(٤) متراكمين بعضهم ملقى فوق بعض . (٥) أى فردا وزوجا .

فبعثوا إليه رسولاً منهم فقالوا : قل له قد قرأنا الكتاب ، ونحن بحيثُ يَسُرُّك ، فإن شئتَ أن نأتيك حتى نُخرجك فعلنا ، فأتاه فدخل عليه السجن فأخبره بما أرسل به إليه ، فسرّ باجتماع الشيعة له ، وقال لهم : لا تريدوا هذا ، فإني أخرج في أيامي هذه . (تاريخ الطبرى ٧ : ٩٣)

١٢٢ — كتاب إلى إبراهيم بن مالك الأشتر افتعله المختار على محمد بن الحنفية

واختلفت الشيعة إلى المختار بعد خروجه من السجن ، واجتمعت عليه ، واتفق رأيها على الرضا به ، ولم يزل أصحابه يكثرون ، وأمره يَقْوَى ويشتد حتى عزل ابن الزبير عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن طلحة عن الكوفة ، وبعث على عملهما عبد الله بن مُطيع العَدَوى ، لخمس بقين من رمضان سنة ٦٥ ه

وساورت الشيعةَ ريبةٌ فيما ادعاه المختار من أن ابن الحنفية بعث به إليهم ، فأوفدوا وفداً منهم إلى ابن الحنفية يستثبِت منه ، فقالوا له : إن المختار قد قَدِم علينا وهو يزعم أنه جاءنا من تلقائكم ، وقد دعانا إلى الطلب بدماء أهل البيت ، فبايعناه على ذلك ، فإن أمرتنا باتباعه اتبعناه ، وإن نهيتنا عنه اجتنبناه ، فقال لهم : أما ما ذكرتم من دعاء مَن دعاكم إلى الطلب بدمائنا ، فوالله لَوَدِدْتُ أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه ، فخرجوا من عنده وهم يقولون ، قد أذن لنا ، قد قال : لوددت أن الله انتصر

لنا ... ... ولو كَرِه لقال : لا تفعلوا ، وجاءوا المختار فقالوا : قد أمرنا بنصرتك ، فكبَّر واستبشر ، واستجمعت له الشيعة وحَدِبَتْ[1] عليه :

ودعا أصحاب المختار إبراهيم بن الأشتر أن يَنضم إلى زُمْرتهم ، فقال لهم : إنى قد أجبتكم إلى ما دعوتمونى إليه من الطلب بدم الحسين ، وأهل بيته ، على أن تولونى الأمر ، فقالوا : هذا المختار قد جاءنا من قبل المهدىّ ، وهو الرسول ، والمأمور بالقتال ، وقد أمرنا بطاعته فلم يجبهم ابن الأشتر ، فانصرفوا إلى المختار ، فأخبروه بما ردّ عليهم ، فسار المختار إلى ابن الأشتر فقال له : هذا كتاب إليك من المهدى محمد ابن أمير المؤمنين الوصىّ يسألك أن تنصرنا وتوازرنا ، فإن فعلت أُغتبطت ، وإن لم تفعل فهذا الكتاب حجة عليك ، ودفع إليه الكتاب ، ففض خاتمه وقرأه فإذا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد المهدىّ إلى إبراهيم بن مالك الأشتر ، سلام عليك ، فإنى أحمَد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإنى قد بعثتُ إليكم بوَزِيرى ، وأمِينى ونَجيبى[2] الذى ارتضيتُه لنفسى ، وقد أمرتُه بقتال عدوى ، والطَّلبِ بدماءِ أهل بيتى ، فانهَضْ معه بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك ، فإنك لو نصرتَنى ، وأجبتَ دعوتى ، وساعدتَ وزيرى ، كانت لك عندى بذلك فضِيلَةٌ ، ولك بذلك أعِنَّةُ الخيل[3] وكل جيش غازٍ ، وكل مِصْرٍ ، ومِنْبَر ، ونَغْرٍ ظَهَرْتَ عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلاد أهل الشأم ، علىّ الوفاءِ بذلك ، علىّ عهدُ الله ، فإن فعلتَ ذلك نِلتَ به

---

(١) عطف . (٢) النجيب : المنتجب أى المختار ، انتجب فلان فلانا إذا استخلصه واصطفاه اختيارا على غيره . (٣) أى وليت القيادة .

عند الله أفضل الكرامة ، وإن أبيت هلكت هلاكاً لا تَسْتَقِيله أبداً ، والسلام عليك » .

فلما قضى إبراهيم قراءة الكتاب قال : قد كتب إلىّ ابن الحنفية ، وقد كتبت اليه قبل اليوم ، فما كان يكتب إلىّ إلا باسمه واسم أبيه ، قال له المختار : إن ذلك زمان وهذا زمان ، قال إبراهيم : فمن يعلم أن هذا كتاب ابن الحنفية إلىّ ؟ فقال أصحاب المختار : نشهد أن هذا كتاب محمد بن علىّ إليك ، فقال إبراهيم للمختار : ابسط يدك أبايعك ، فبسط المختار يده ، فبايعه إبراهيم .

وجعل المختار وأصحابه يدبِّرون أمورهم حتى اجتمع رأيهم على أن يخرجوا ليلة الخميس لأربع عشرة من ربيع الأول سنة ٦٦ هـ ، فاروا بالكوفة وقاتلوا جند ابن مطيع فهزموهم ، وحصروا ابن مطيع حتى اشتد عليه الحصار فهرب إلى البصرة ، وخَلَص الأمر للمختار فبايعه الناس ، وغلب على الكوفة[1] .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٩٩ . وتاريخ الكامل لابن الأثير ٤ : ٨٤)

(١) قال المسعودى فى مروج الذهب (ج ٢ : ص ٩٨) « وأخرج المختار بن مطيع وغلب على الكوفة ، وابتنى لنفسه داراً ، واتخذ بستاناً أنفق عليه أموالا عظيمة أخرجها من بيت المال ، وفرق الأموال على الناس بها تفرقة واسعة ، وكتب إلى ابن الزبير يعلمه أنه إنما أخرج ابن مطيع عن الكوفة لعجزه عن القيام بها ، ويسوم ابن الزبير أن يحتسب له بما أنفقه من بيت المال ، فأبى ابن الزبير ذلك عليه ، فخلع المختار طاعته وجحد بيعته » .

١٢٣ — كتاب عبد الرحمن بن سعيد بن قيس إلى المختار

وكان مروان بن الحكم قد بويع بالخلافة بالشام « لثلاث خَلَونَ من ذى القَعدة سنة ٦٤ هـ) فلما استوثقت له الشام بالطاعة ، بعث جيشاً إلى العراق عليه عبيد الله بن زياد ، وجعل له إذ وجَّهه إلى العراق ما غلب عليه ، وأمره أن يُنْهِبَ[1] الكوفة إذا هو ظفِر بأهلها ثلاثاً ، وكان من أمره وأمر التوابين بعَين الوَردة ما قدمنا ، ثم إنه أقبل إلى المَوْصِل ، فكتب عبد الرحمن ابن سعيد بن قيس عامل المختار على الموصل إلى المختار :

« أما بعدُ : فإنى أُخبرك أيها الأمير أن عبيد الله بن زياد قد دخل أرض الموصِل ، وقد وجَّه قِبلى خيلَه ورجالَه ، وإنى انْحَزْتُ إلى « تَكْرِيت » حتى يأتيَنى رأيك وأمرك ، والسلام عليك » . (تاريخ الطبرى ٧ : ١١٣)

١٢٤ — رد المختار على عبد الرحمن بن سعيد

فكتب إليه المختار :

« أما بعدُ : فقد بلغنى كتابك ، وفهِمتُ كل ما ذكرت فيه ، فقد أصبتَ بانحيازك إلى « تَكريت » فلا تبرحَنَّ مكانك الذى أنت به حتى يأتيك أمرى إن شاء الله ، والسلام عليك » . (تاريخ الطبرى ٧ : ١١٣)

---

(١) أى يجعلها نهباً يغار عليه .

١٢٥ — كتاب المختار إلى عبد الرحمن بن سعيد

ودعا المختار يزيد بن أنس ، فوجَّهه إلى الموصل ، وكتب إلى عبد الرحمن ابن قيس بن سعيد :

« أما بعدُ : نَخَلِّ بين يزيد و بين البلاد إن شاء الله ، والسلام عليك »

وفَصَلَ يزيدُ بن أنس من الكوفة على رأس جيش انتخبه ، وسار إلى الموصل ، فقاتل جيش ابن زياد وهزمه .

تم سيّر المختار إلى ابن زياد جيشاً عليه إبراهيم بن الأشتر ، فالتقى به على شاطئ نهر خازِر من أرض الموصل ، ودارت الدائرة على ابن زياد ، وقتله ابن الأشتر ، وكان ذلك سنة ٦٧ هـ .

١٢٦ — كتاب المختار بالأمان لعمر بن سعد بن أبى وقاص

ووثب المختار سنة ٦٦ هـ بمن كان بالكوفة من قَتَلة الحسين رضى الله عنه والمشايعين على قتله ، فقتل مَن قَدَر عليه منهم ، وهَرَب من الكوفة بعضهم فلم يقدر عليه .

وكان عبد الله بن جَعْدة بن هُبَيْرة أكرمَ خلق الله على المختار لقرابته بعلى[1] ، فكلم عمرُ بن سعد بن أبى وقّاص عبدَ الله بن جَعْدة ، وقال له : إنى لا آمَن هذا الرجلَ ـ يعنى المختار ـ فخذ لى منه أمانا ففعل ، وكتب له :

---

(١) كانت أم جعده أم هانئ بنت أبى طالب أخت على بن أبى طالب عليه السلام : (تاريخ الطبرى ج ٧ : ص ١٤١) .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا أمانٌ من المختار بن أبى عبيد لعُمَر ابن سعد بن أبى وقّاص ، إنك آمِنٌ بأمان الله على نفسِك ومَالِك ، وأهلك وأهل بيتك وولدك ، لا تؤاخَذُ بحَدَثٍ كان منك قديمًا ، ما سَمِعْتَ وأطعت ، ولزِمْتَ رَحْلَك ، وأهلَك ومِصْرَك ، فمن لقِيَ عمر بن سعد من شُرْطة[1] الله وشيعةِ آل محمد ، ومن غيرهم من الناس ، فلا يَعْرِض له إلا بخير » .

شَهِدَ السَّائِبُ بن مالك ، وأحمر بن شُمَيْط ، وعبد الله بن شَدّاد ، وعبد الله بن كامل ، وجعل المختار على نفسه عَهْدَ الله وميثاقَه لَيفِيَنَّ لعمر ابن سعد بما أعطاه من الأمان ، إلاَّ أَنْ يُحْدِثَ حَدَثًا[2] ، وأشهدَ اللهَ على نفسه ، وكفى بالله شهيداً » . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٢٦)

١٢٧ — كتاب المختار إلى محمد بن الحنفية

ولم يَرْعَ المختار هذا العهد ، فقتل عمر بن سعد وابنه حَفْص بن عمر ، وبعث برأسيهما إلى محمد بن الحنفية وكتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، للمهدىِّ محمد بن على من المختار بن أبى عبيد ، سلام عليك يٰأَيُّهَا المهدى ، فإنى أَحْمَد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعد : فإن الله بعثنى نِقمةً على أعدائكم ، فهم بين قتيل وأَسِير وطَرِيد

(١) شرط السلطان : نخبة أصحابه الذين يقدمهم على غيرهم من جنده ، والمعنى هنا : من أولياء الله وأنصار دينه الذين يقدمهم على غيرهم من عباده .

(٢) وكان أبو جعفر محمد بن على يقول : « أما أمان المختار لعمر بن سعد إلا أن يحدث حدثا ، فإنه كان يريد به إذا دخل الخلاء فأحدث » .

وشريد ، فالحمد لله الذي قتل قاتِلِيكم ، ونَصَر مُؤازِرِيكم[١] ، وقد بعثت إليك برأس عمر بن سعد وابنه ، وقد قتلنا من شَرِكَ في دم الحسين وأهل بيته « رحمة الله عليهم » كلَّ من قَدَرْنا عليه ، ولن يُعْجِزَ اللهَ من بقى ، ولست بمُنْجِمٍ[٢] عنهم حتى لا يبلغَنى أنَّ على أَدِيم الأرض منهم إرَمِيًّا[٣] ، فاكتب إلىّ أيها المهدى برأيك أَتَّبِعْه وأكون عليه ، والسلام عليك أيها المهدى ورحمة الله وبركاته » . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٢٧)

١٢٨ — كتاب المختار إلى مالك بن مسمع وزياد بن عمرو

وكان المُثَنَّى بن مُخَرِّبة العَبْدِيّ ممن بايع المختار ، فقال له المختار : الْحَق ببلدك بالبصرة ، فادْعُ الناس ، وأَسِرَّ أمرك ، فقَدِم البصرة فدعا ، فأجابه رجال من قومه وغيرهم ، فوجَّه إليهم أميرُ البصرة الحارثُ بن عبد الله عبَّادَ ابن حُصَين ، فهزمهم وحوى ما كان في مُعَسْكرهم ، ولاذ المثنّى وأصحابه بعبد القيس فمنعوهم وأبَوا أن يسلِّموهم ، فأرسل الأميرُ الأحنفَ بنَ قيس ليُصْلح أمر الناس ، فأتى عَبْدَ القيس فقال لهم : ألستم على بيعة ابن الزبير ؟ قالوا : بَلَى ، ولكنا لا نسلِّم إخواننا ، قال : فَمُروهم فليَخْرجوا إلى أى بلاد أحبُّوا ، ولا يُفْسِدوا هذا المِصْر على أهله ، وهم آمِنون فليخرجوا حيث شاءوا ، فمشى مالك بن مِسْمَع ، وزياد بن عمرو ، ووجوه أصحابهم إلى المثنى ، فأشاروا

---

(١) المؤازر : المساعد والمعين . (٢) أحجم : أقلع .
(٣) أى أحداً ، يقال ما بالدار أرم بالتحريك ، وأريم : كأمير . وإرمىّ : كعبىّ ، وتحرك ، أويرمى ، وبكسر أوله : أى أحد .

عليه أن يَلْحَق بصاحبه المختار ، فقبِل قولهما ، وشخَص إلى المختار بالكوفة ، وأخبره حين قَدِم عليه بما كَان من أمر مالك بن مِسْمَع ، وزياد بن عمرو ، وَمَسيرهما إليه وذبِّهما عنه حين شَخَص عن البصرة ، فطمِع المختار فيهما ، فكتب إليهما :

« أما بعدُ: فاسْمَعا وأطِيعاَ أُوتِـكُما من الدنيا مَا شِئْتُما ، وأضْمَن لـكما الجنّة »

فقال مالك لزياد : يا أبا المُغيرة ، قد أكثر لنا أبو إسحاق[1] إعطاءنا الدنيا والآخرة ، فقال زياد مازحا لمالك : يا أبا غسّان ، أمّا أنا فلا أقاتِلُ نَسِيئةً[2] ، مَن أعطانا الدراهم قاتلنا معه . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٢١)

١٢٩ — كتاب المختار إلى الأحنف بن قيس

وكتب المختار إلى الأحنف بن قيس :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من المختار بن أبي عبيد إلى الأحنف ابْن قيس ، ومَن قِبَله ، فسِلْم أنتم ، أما بعد : فَوَيْلُ أمِّ[3] ربيعة من مُضَر ،

---

(١) كنية المختار .

(٢) النسيئة : التأخير ، يقال : نسأته نسيئة : أي أخرته ، ونسأه الله وأنسأه : أخره .

(٣) يقال فى الاستجاد : « ويلمه » . تعجبا منه ، وأصله ويل لأمه حذفت اللام لكثرتها فى الكلام ، وحذفت الهمزة من أمه تخفيفا وألقيت حركتها على اللام ، ثم ركبوه وجعلوه كالشىء الواحد وهو مدح خرج بلفظ الذم ، كما يقولون : أخزاه الله ما أشعره ، ولعنه الله ما أشجعه ، وفى الحديث قوله لأبى بصير : « ويلمه مسعر حرب » . تعجباً من شجاعته وجرأته وإقدامه — ومسعر حرب كمنبر أى موقد نارها ، من سعر النار والحرب كمنع : أوقدها — وقول المختار : « ويل أم ربيعة » . يقصد به مدح عبد القيس ، وهم من ربيعة — فهم بنو عبد القيس بن جديلة بن أسد ابن ربيعة — لما كان منهم من إيواء داعيه المثنى بن مخرّبة العبدى والذب عنه ، وقوله « من مضر » يعنى أنه يمدح ربيعة ، ويفضلها على مضر ، ويقصد الأحنف بن قيس ، وهو من تميم وتميم من مضر : — فهم بنو تميم بن طابخة بن إلياس بن مضر — لما كان من الأحنف فى أمر المثنى .

فإن الأحنف مُورِدٌ قومَه سَقَرَ[١] ، حيث لا يستطيع لهم الصَّدَر[٢] ، وإنى لا أملك ما خُطَّ فى القَدَر ، وقد بلغنى أنكم تسموننى كذّابا ، وإن كُذِّبتُ فقد كُذِّبتْ رُسُل من قبلى ، ولست بخيرٍ من كثير منهم[٣] » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٣١ — ١٣٢ ، والعقد الفريد ٢ : ٢٦٥)

---

(١) سقر : جهنم . (٢) الصدر : الرجوع .

(٣) قال ابن عبد ربه فى العقد الفريد ج ٢ : ص ٢٦٥ : « وجعل المختار يتتبع قتلة الحسين ابن على ومن خذله ، فقتلهم أجمعين ، فلما أفناهم دانت له العراق ، ولم يكن صادق النية ولا صحيح المذهب ، وإنما أراد أن يستأصل الناس ، فلما أدرك بغيته أظهر للناس قبح نيته ، فادعى أن جبريل ينزل عليه ، ويأتيه بالوحى من الله ، وكتب إلى أهل البصرة : « بلغنى أنكم تكذبوننى وتكذبون رسلى ، وقد كذبت الأنبياء من قبلى ، ولست بخير من كثير منهم » . وقال : « ج ٢ : ص ٢٧٠ » . لما قتل الحجاج ابن الزبير ومنع أمه أسماء أن تدفنه . قالت : أما إنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « يخرج من ثقيف رجلان : الكذاب والمبير » . (أى المهلك) فأما الكذاب فالمختار ، وأما المبير فأنت ، فقال الحجاج : اللهم مبير لا كذاب . وقال المبرد فى الكامل : « ج ٢ : ص ١٦٧ » . وكان المختار لا يوقف له على مذهب ، كان خارجيا ، ثم صار زبيريا ، ثم صار رافضيا فى ظاهره ، وكان يدعى أنه يلهم ضربا من السجاعة لأمور تكون ، ثم يحتال فيوقعها ، فيقول للناس : هذا من عند الله عز وجل ، فمن ذلك قوله ذات يوم : « لتنزلن من السماء ، نار دهماء ، فلتحرقن دار أسماء » . فذكر ذلك لأسماء بن خارجة ، فقال : أو قد سجع بى أبو إسحاق ! هو والله محرق دارى ، فتركه والدار وهرب من الكوفة ، وقال فى بعض سجعه : « أما والذى شرع الأديان ، وجنب الأوثان ، وكره العصيان ، لأقتلن أزد عمان ، وجل قيس عيلان ، وتميما أولياء الشيطان ، حاشا النجيب ظبيان » . فكان ظبيان النجيب يقول : لم أزل فى عمر المختار أتقلب آمنا .

وخرج يشيع إبراهيم بن الأشتر حين شخص لقتال عبيد الله بن زياد ، فقال للناس : « إن استقمتم فبنصر الله ، وإن حصتم حيصة ، فإنى أجد فى محكم الكتاب ، وفى اليقين والصواب ، أن الله مؤيدكم بملائكة غضاب ، تأتى فى صور الحمام دوين السحاب » . أى قريبا منه ، وكان قد دفع إلى قوم من خاصته حماما بيضا ضخاما ، وقال لهم : إن رأيتم الأمر لنا فدعوها ، وإن رأيتم الأمر علينا فأرسلوها » . فلما التقوا كانت على أصحاب إبراهيم الدائرة فى أول النهار ، فأرسل أصحاب المختار الطير ، فتصايح الناس : الملائكة ! فتراجعوا واقتتل الناس حتى اختلط الظلام ، وأسرع القتل فى أصحاب ابن زياد ثم انكشفوا ، ووضع السيف فيهم حتى أفنوا : « الكامل للمبرد ج ٢ : ص ١٦٩ » .

وقال الشهرستانى فى الملل والنحل : « ١ : ١٥٣ » . ومن مذهب المختار أنه يجوّز البداء على الله تعالى ، والبداء له معان : البداء فى العلم ، وهو أن يظهر له خلاف ما علم ، والبداء فى الإرادة ، وهو أن يظهر له صواب على خلاف ما أراد وحكم ، والبداء فى الأمر ، وهو أن يأمر بشىء ، ثم يأمر بعده بخلاف ذلك ، وإنما صار المختار إلى اختيار القول بالبداء ، لأنه كان يدعى علم ما يحدث

١٣٠ — كتاب المختار إلى ابن الزبير

ولما اسْتَجْمَعَ الأمرُ للمختار بالكوفة ـ وهو عند الشِّيعة إنما يدعو إلى ابن الحنفية ، والطلبِ بدماء أهل البيت ـ أخذ يخادع ابن الزبير ، فكتب إليه :

« أمّا بعدُ : فقد عرفتَ مُناصَحتى إياك ، وجَهْدِى على أهل عداوتك ، وما كنتَ أعطيتنى ـ إذا أنا فعلت ذلك ـ مِن نفسك ، فلما وَفَيْتُ لك وقضيتُ الذى كان لك علىّ ، خِسْتَ[1] بى ولم تَفِ بما عاهدتَنى عليه[2] ،

من الأحوال ، إما بوحى يوحى إليه ، وإما برسالة من قبل الامام (ابن الحنفية) وكان إذا وعد أصحابه بكون شىء وحدوث حادثة ، فإن وافق كونه قوله جعله دليلا على صدق دعواه ، وإن لم يوافق قال قد بدا لربكم ، وقد تبرأ ابن الحنفية منه حين وصل إليه أنه قد لبس على الناس بأنه من دعاته ورجاله ، وتبرأ من الضلالات التى ابتدعها من التأويلات الفاسدة ، والمخاريق المموّهة ، فمن مخاريقه أنه كان عنده كرسى قديم قد غشّاه بالديباج وزينه بأنواع الزينة ، وقال : هذا من ذخائر أمير المؤمنين على عليه السلام ، وهو عندنا بمنزلة التابوت لبنى إسرائيل ، فكان إذا حارب خصومه يضعه فى براح الصف ، ويقول : « قاتلوا ولكم الظفر والنصرة ، وهذا الكرسى محله فيكم محل التابوت فى بنى إسرائيل ، وفيه السكينة والبقية ، والملائكة من فوقكم ينزلون مددا لكم » . — أخذا من قوله تعالى : « وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هٰرُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » . ويقال إنه اشتراه من نجار بدرهمين — انظر قصته فى تاريخ الطبرى : (٧ : ١٤٠) . والكامل للمبرد : (٢ : ١٧٠) .

(١) خاس بالعهد يخيس : غدر ونكث .

(٢) وذلك أن المختار لما أطلقه ابن زياد من سجنه خرج إلى الحجاز ، فلقى ابن الزبير ، فقال له : إنى قد جئتك لأبايعك ، على أن لا تقضى الأمور دونى ، وعلى أن أكون فى أول من تأذن له ، وإذا ظهرت استعنت بى على أفضل عملك ، فقال له ابن الزبير : أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، فقال : وشر غلمانى أنت مبايعه على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ! لا والله لا أبايعك أبداً إلا على هذه الخصال ، قال عباس بن سهل : فالتقمت أذن ابن الزبير ، فقلت له :

ورأيتَ مني ما قد رأيت ، فإن تُرِدْ مُرَاجَعتى أُرَاجِعْك ، وإن تُرِدْ مناصحتى أَنْصَحْ لك » :

وهو يريد بذلك كفَّه عنه حتى يستجمع له الأمر ، وهو لا يُطْلع الشيعة على شىء من هذا الأمر ، وإذا بلغهم شىء منه أراهم أنه أبعد الناس عن ذلك » . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٣٣)

١٣١ — كتاب المختار إلى ابن الزبير

وقال أبو العباس المبرِّد فى الكامل :

« ويروى أن المختار بن أبى عبيد حيثُ كان والياً لابن الزبير على الكوفة[1] ، اتَّهمه ابن الزبير ، فولَّى رجلاً من قريشٍ الكوفةَ ، فلما أطَلَّ قال لجماعة من أهلها : اخرجوا إلى هذا المغرور فردوه ، فخرجوا إليه فقالوا : أين تريد ؟ والله لئن دخلت الكوفة ليقتلنَّك المختار ، فرجع ، وكتب المختار إلى ابن الزبير :

اشترط منه دونه حتى ترى من رأيك ، فقال له ابن الزبير : فإن لك ما سألته ، فبسط يده فبايعه وقاتل معه جند حصين بن نمير حين حاصر مكة ، فكان من أحسن الناس بلاء ، وأعظمهم عناء . تاريخ الطبرى ج ٧ : ص ٦١ .

وأقام المختار مع ابن الزبير حتى هلك يزيد وانقضى الحصار ، ورجع جند حصين إلى الشأم ، واصطلح أهل الكوفة على عامر بن مسعود بعد ما هلك يزيد يصلى بهم حتى يجتمع الناس على إمام يرضونه ، فلم يلبث عامر إلا شهراً حتى بعث ببيعته وبيعة أهل الكوفة إلى ابن الزبير ، فبعث عبد الله ابن يزيد الأنصارى وإبراهيم بن محمد بن طلحة أميرين على الكوفة ، ثم عبد الله بن مطيع ، وكذلك ولى على البصرة ولاة كما قدمنا ، ولم يول المختار كما كان ينتظر .

(١) هكذا يروى أبو العباس ، ولكن المختار لم يكن واليا لابن الزبير على الكوفة ، وإنما غلب عليها وأخرج منها عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير كما قدمنا .

« إن صاحبك جاءنا ، فلما قَارَبْنا رجع ، فما أدرِى ما الذى ردَّه ؟ » .

فغضِب ابن الزبير على القرشى وعجَّزه وردَّه إلى الكوفة ، فلما شارَفها قال المختار : اخرجوا إلى هذا المغرور فردوه ، فخرجوا إليه ، فقالوا : إنه والله قاتِلُك ، فرجع ، وكتب المختار إلى ابن الزبير بمثل كتابه الأول ، فلام القرشىَّ ، فلما كان فى الثالثة فَطِن[1] ابن الزبير ، وعلم بذلك المختار[2] .

فلما رأى المختار أن ابن الزبير قد فطن لما أراد ، كتب إليه :

من المختار بن أبى عبيد الثَّقفى خليفة الوصىِّ محمد بن على أمير المؤمنين ، إلى عبد الله بن أسماء .

ثم ملأ الكتاب بسبه وسب أبيه . (الكامل للمبرد ٢ : ١٦٧)

---

(١) فطن به وإليه وله كفرح ونصر وكرم .

(٢) وروى الطبرى فى هذا الصدد قال :

وأراد ابن الزبير أن يعلم أسلم هو أم حرب ؟ (أى المختار) : فدعا عمر بن عبد الرحمن بن الحارث ابن هشام المخزومى ، فقال له : تجهز إلى الكوفة فقد وليناكها ، فقال : كيف وبها المختار ؟ قال : إنه يزعم أنه سامع مطيع ، فتجهز بما بين الثلاثين ألف درهم إلى الأربعين ألفا ، ثم خرج مقبلا إلى الكوفة ، وجاء عين المختار من مكة فأخبره الخبر ، فقال له : بكم تجهز ؟ قال بما بين الثلاثين ألفا إلى الأربعين ألفا ، فدعا المختار زائدة بن قدامة ، وقال له : احمل معك سبعين ألف درهم ، ضعف ما أنفق هذا فى مسيره إلينا ، وتلقّه فى المفاوز ، وأخرج معك مسافر بن سعيد الناعطى فى خمسمائة فارس دارع رامح عليهم البيض ، ثم قل له : خذ هذه النفقة فإنها ضعف نفقتك ، فإنه قد بلغنا أنك تجهزت وتكلفت قدر ذلك ، فكرهنا أن تغرم فخذها وانصرف ، فإن فعل ، وإلا فأره الخيل ، وقل له : إن وراء هؤلاء مثلهم مائة كتيبة ، فأخذ زائدة المال ، وأخرج معه الخيل وتلقاه بالمفاوز ، وعرض عليه المال وأمره بالانصراف ، فقال له : إن أمير المؤمنين قد ولانى الكوفة ، ولابد من إنفاذ أمره ، فدعا زائدة الخيل ، وقد أكمنها فى جانب ، فلما رآها قد أقبلت . قال: هذا الآن أعذر لى ، وأحمل بى ، هات المال ، فقال له زائدة ، أما إنه لم يبعث به إليك إلا لما بينك وبينه ، فدفعه إليه فأخذه ، ثم مضى راجعاً نحو البصرة — تاريخ الطبرى ٧ : ١٣٣ .

١٣٢ — كتاب المختار إلى ابن الزبير

وأُخْبِرَ المختار أنّ أهل الشأم قد أقبلوا نحو العراق ، فخشِيَ أن يأتيَه أهل الشأم من قِبَل المغرِب ، ويأتيه مُصْعَب بن الزبير من قبل البصرة ، فوادع ابن الزبير ، وداراه وكايده .

وكان عبد الملك بن مروان — وقد بويع بالخلافةِ فى غُرَّة رمضان سنة ٦٥ هـ — بعث عبد الملك بن الحارث بن الحَكَم بن أبى العاص إلى وادى القُرَى ، والمختارُ لابن الزبير مكايِدٌ مُوادِع ، فكتب المختار إلى ابن الزبير :

« أما بعدُ : فقد بلغنى أن عبد الملك بن مَرْوان قد بعث إليك جيشاً ، فإن أحببت أن أُمِدَّك بِمَدَد أمْدَدْتك » .

١٣٣ — رد ابن الزبير على المختار

فكتب إليه ابن الزبير :

« أما بعدُ : فإن كنتَ على طاعتى فلستُ أكْرَه أن تبعثَ الجيش إلى بلادى ، وتبايعَ لى الناسَ قِبَلك، فإذا أتتنى بيعتك صَدَّقْتُ مقالتك ، وكففْتُ جُنودى عن بلادك ، وعجِّل علىّ بتسريح الجيش الذى أنت باعِثُه ، ومُرْهم فليسيروا إلى مَن بوادى القُرَى من جند ابن مَرْوان ، فليقاتلوهم ، والسلام » .

فسرَّح المختار شُرَحْبيل بن وَرْس فى جيش ، وقال له : سر حتى تدخل المدينة ، فإذا دخلتها فاكتب إلىّ بذلك حتى يأتيك أمرى — وهو يريد إذا

دخلوا المدينة أن يبعث عليهم أميرا من قِبَله ، ويأمر ابن ورس أن يمضى إلى مكة حتى يحاصر ابن الزبير ويقاتله — وخشِيَ ابن الزبير أن يكون المختار إنما يكيده ، فبعث من مكة إلى المدينة عباسَ بن سَهل بن سَعد فى جيش ، وقال له : إن رأيت القوم فى طاعتى فاقبل منهم ، وإلاَّ فكايِدْهم حتى تهلكهم ، فأقبل ابن سهل حتى لقى ابن ورس بالرَّقم[1] ، فدعاه أن يسير معه لقتال جند ابن مروان بوادى القرى ، فأبى وقال : إنما أُمرتَ أن أسير حتى آتى المدينة ، فإذا نزلتها رأيت رأيى ، فكايَدَه ابن سهل حتى أخذه على غِرّة وقتله ، وأثخن أصحابَه وأوسعهم قتلا[2] .   (تاريخ الطبرى ٧ : ١٣٤)

---

(١) موضع بالمدينة .

(٢) وذلك أن عباس بن سهل لما وافى الرقم ، وجد ابن ورس على الماء قد عبى أصحابه تعبية القتال ، فدنا منهم فسلم عليهم ، ثم قال : اخل معى هاهنا خلاءه ، فقال له : رحمك الله ، ألست فى طاعة ابن الزبير ؟ فقال له ابن ورس : بلى ، قال : فسر بنا إلى عدوه هذا الذى بوادى القرى ، فإن ابن الزبير حدثنى أنه إنما أشخصكم صاحبكم إليهم ، قال ابن ورس : ما أمرت بطاعتك ، إنما أمرت أن أسير إلى المدينة ، فإذا نزلتها رأيت رأيى ، قال له ابن سهل : فإن كنت فى طاعة ابن الزبير فقد أمرنى أن أسير بك وبأصحابك إلى عدونا الذين بوادى القرى ، فقال له ابن ورس : ما أمرت بطاعتك وما أنا متبعك دون أن أدخل المدينة ، ثم أكتب إلى صاحبى فيأمرنى بأمره ، فلما رأى ابن عباس لجاجته عرف خلافه ، فكره أن يعلمه أنه قد فطن له ، فقال : فرأيك أفضل ، اعمل بما بدالك ، فأما أنا فسائر إلى وادى القرى ، ثم جاء ابن سهل فنزل بالماء ، وبعث إلى ابن ورس بجزائر كانت معه (جمع جزور) فأهداها له ، وبعث إليه بدقيق وغنم مسلخة ، وكان ابن ورس وأصحابه قد هلكوا جوعا ، فبعث عباس بن سهل إلى كل عشرة منهم شاة . فذبحوها واشتغلوا بها واختلطوا على الماء ، وترك القوم تعبيتهم ، وأمن بعضهم بعضاً ، فلما رأى ابن سهل ماهم فيه من الشغل جمع من أصحابه نحواً من ألف رجل من ذوى البأس والنجدة ، ثم أقبل نحو فسطاط ابن ورس ، فلما رآهم ابن ورس مقبلين إليه نادى فى أصحابه . فلم يتوافَ إليه مائة رجل ، فما اقتتلوا إلا شيئاً ليس بشىء حتى قتل ابن ورس وكثير من أصحابه .

١٣٤ — كتاب المختار إلى ابن الحنفية

فلما بلغ المختار أمرهم كتب إلى ابن الحنفية :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أما بعدُ : فإنى كنت بعثتُ إليك جنداً ، ليُذِلُّوا لك الأعداءَ ، وليَحُوزوا لك البلادَ ، فساروا إليك حتى إذا أطَلُّوا على طَيْبة[1] ، لقِيَهم جندُ المُلْحِد[2] ، نخدعوهم بالله ، وغرُّوهم بعهد الله ، فلما اطمأنوا إليهم ، ووَثِقوا بذلك منهم ، وَثَبوا عليهم فقتلوهم ، فإن رأيتَ أن أبعثَ إلى أهل المدينة مِن قِبَلى جيشاً كَثِيفاً ، وتبعثَ إليهم من قبلك رُسُلا ، حتى يعلمَ أهلُ المدينة أنى فى طاعتك ، وإنما بعثتُ الجند إليهم عن أمرك ، فافعَلْ ، فإنك ستجد عُظْمهم بحقكم أعْرَف ، وبكم — أهلَ البيت — أرْأَف منهم بآل الزبير الظَّلَمة المُلْحِدِين ، والسلام عليك » . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٣٥)

١٣٥ — رد ابن الحنفية على المختار

فكتب إليه ابن الحنفية :

« أما بعدُ : فإن كتابك لَمَّا بلغنى قرأتُه ، وفهِمت تعظيمَك لحقى ، وما تنوى به من سرورى ، وإن أحبَّ الأمور كلِّها إلىَّ ما أطيعَ اللهُ فيه ، فأطِعِ اللهَ ما استطعتَ فيما أعْلَنْتَ وأسْرَرْتَ ، واعلم أنى لو أردت القتال لوجدتُ

---

(١) المدينة المنورة . (٢) يريد ابن الزبير .

الناس إلىّ سِراعًا ، والأعوانَ لى كثيراً ، ولكنى أعتزِلهم ، وأصْبِرُ حتى يحكم اللهُ لى وهو خير الحاكمين[١] » . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٣٥)

١٣٦ — كتاب ابن الحنفية إلى الشيعة بالكوفة

وأُخْبر ابن الحنفية بخبر نفر من غُلاة الشيعة بالكوفة ، فكتب إلى الشيعة يحذِّرهم هؤلاء الغلاة :

« من محمد بن على إلى مَن بالكوفة من شِيعتنا ، أما بعدُ : فاخرجوا إلى المجالس والمساجد ، فاذكروا الله عَلاَنية وسِرًّا ، ولا تتخذوا من دون المؤمنين بطانة ، فإن خشِيتم على أنفسكم فاحْذَروا على دينكم الكذّابين ، وأكثِرُوا الصلاةَ والصيام والدعاء ، فإنه ليس أحدٌ من الخلق يَمْلِك لأحد ضَرًّا ولا نفعاً إلا ما شاء اللهُ ، وكلُّ نفسٍ بما كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ، وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ

---

(١) وكان محمد بن الحنفية قد أبى أن يبايع ابن الزبير ، إذ كره البيعة لمن لم تجتمع عليه الأمة ، وكان ابن الزبير يبغضه ويحسده على أيده وقوته ، فحبسه مع بضعة عشر رجلا من بنى هاشم منهم عبد الله بن عباس والحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب فى سجن عارم ، وقال : لتبايعنّ أو لأحرقنكم ، وأعطى الله عهدا إن لم تبايعوا أن ينفذ فيهم ما توعدهم به ، وضرب لهم فى ذلك أجلا ، فكتب ابن الحنفية إلى المختار وأهل الكوفة يعلمهم حاله وحال من معه ، وما توعدهم به ابن الزبير من القتل والتحريق بالنار ، ويسألهم ألا يخذلوه كما خذلوا الحسين وأهل بيته ، فوجه إليه جماعة من أصحابه عليهم أبو عبد الله الجدلى ، وكانوا يسيرون الليل ويكمنون النهار ، حتى انتهوا إلى مكة ، وقد أعد ابن الزبير الحطب ليحرقهم ، وكان قد بقى من الأجل يومان ، فكسروا سجن عارم واستخرجوا منه ابن الحنفية ومن معه ، وقالوا له : خل بيننا وبين عدو الله ابن الزبير ، فقال لهم : إنى لا أستحل القتال فى حرم الله ، وخرج هو وأصحابه إلى شعب على .

— انظر تاريخ الطبرى ٧ : ١٣٦ والكامل للمبرد ٢ : ١٦٨ والعقد الفريد ٢ : ٢٦٨ وشرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٤٨٧ ومروج الذهب ٢ : ١٠٠ — .

أُخْرَى ، والله قائم على كل نفس بما كَسَبَتْ ، فاعملوا صالحا وقدّموا لأنفسكم حسنا ، ولا تكونوا من الغافلين ، والسلام عليكم » .

☆

ثم إن ابن الزبير عزل الحارث بن عبد الله عن البصرة ، وولّاها أخاه مصعب بن الزبير (سنة ٦٧) وقدِم على مصعب أشرافُ الكوفة ، فسألوه أن يسير معهم إلى المختار ، فسار إليه وقاتله ، وانهزم أصحاب المختار ، وقتل (فى رمضان سنة ٦٧ هـ) . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٠٣)

١٣٧ — كتاب عبد الله بن الزبير إلى عبد الله بن عباس

وروى المدائنى قال :

لما أخرج عبدُ الله بن الزبير عبدَ الله بن عباس من مكة إلى الطائف ، تلقّاه أهلها ، فقالوا : مَرْحَباً بابن عم رسول الله صلى الله عليه وآله ، أنت والله أحبُّ إلينا وأكرم علينا مِمّن أخرجك ، هذه منازلنا تخيَّرْها ، فانزِلْ منها حيث أحببتَ ، فنزل مَنْزِلا ، فكان يجلس إليه أهلُ الطائف بعد الفجر وبعد العصر ، فيتكلم بينهم ، كان يَحْمَدُ اللهَ ، ويذكر النبيّ صلى الله عليه وآله والخلفاءَ بعده ، ويقول : ذهبوا فلم يَدَعُوا أمثالهم ، ولا أشباههم ، ولا مَن يُدانيهم ، ولكن بَقِيَ أقوام يطلبون الدنيا بعمل الآخرة ، ويَلْبَسون جُلود الضأن تحتها قلوبُ الذئاب والنمور ، ليظن الناسُ أنهم من الزاهدين فى الدنيا ، يُراءون الناس بأعمالهم ، ويُسْخطون اللهَ بسرائرهم ، فادْعُوا اللهَ أن يَقْضِيَ

لهذه الأمة بالخير والإحسان ، فيولّىَ أمرَها خيارَها وأبرارها ، ويُهْلِك فُجّارها وأشرارها ، ارفعوا أيديَكم إلى ربكم وسَلُوه ذلك ، فيفعلون ، وبلغ ذلك ابنَ الزبير ، فكتب إليه :

« أما بعدُ : فقد بلغنى أنك تجلس بالطائف العَصْرَين[١] ، فتُفْتِيهم بالجهل ، تَعِيب أهلَ العقل والعلمِ ، وإن حِلْمى عليك ، واستدامتى فَيْئَك ، جَرّأاك علىّ ، فاكْفُفْ لاأبا لِغَيرك - مِن غَرْبك[٢] ، وأرْبَعْ على ظَلْعِك[٣] ، واُعقِلْ إن كان لك مَعقول[٤] ، وأكرِمْ نفسك ، فإنك إنِ تُهِنها تجِدْها على الناس أعظمَ هوَانا ، ألم تسمعْ قول الشاعر ؟

فنفسَك أكرِمْها فإنك إن تَهُنْ : عليك فلن تَلْقَى لها الدهرَ مُكْرِما

وإنى أقسم بالله لئن لم تنتهِ عما بلغنى عنك ، لتجِدَنَّ جانبى خَشِنا ، ولتجدنّى إلى ما يَرْدَعُك عنى عَجِلا ، فإن أشْقَى[٥] بك شَقاؤك على الرَّدَى ، فلا تلُمْ إلا نفسك » . (شرح ابن أبى الحديد م ٤ : ص ٤٨٧)

---

(١) العصران . الغداة والعشى ، ومنه حديث على رضى الله عنه « ذكرهم بأيام الله واجلس لهم العصرين » أى بكرة وعشيا ، وفى الحديث : « حافظ على العصرين » يريد صلاة الفجر وصلاة العصر سماهما العصرين لأنهما تقعان فى طرفى العصرين وهما الليل والنهار ، والأشبه أنه غلب أحد الاسمين على الآخر ، كالعمرين لأبى بكر وعمر ، والقمرين للشمس والقمر .

(٢) الغرب : الحدّة .

(٣) ربع كمنع : وقف وانتظر وتحبس ، وظلع البعير كمنع ظلعا : غمز فى مشيه ، ويقال : اربع على ظلعك : أى إنك ضعيف فانته عما لا تطيقه .

(٤) معقول : عقل . (٥) أشقى : أشرف .

١٣٨ — رد ابن عباس عليه

فكتب إليه ابن عباس :

« أما بعدُ . فقد بلغني كتابك ، قلتَ : إني أُفْتِي الناسَ بالجهل ، وإنما يفتي بالجهل مَن لم يعرِفْ من العلم شيئاً ، وقد آتاني اللهُ من العلم مالم يُؤْتِكَ ، وذكرتَ أن حِلمك عني واستدامتك فَيْئي جَرّاً اني عليك ، ثم قلت : اكفُفْ من غَرْبك ، وارْبَعْ على ظَلْعِك ، وضربت لي الأمثال « أحاديث الضَّبُع[1] » متى رأيتني لعُرَامِك[2] هائباً ، ومِنْ حَدِّك نَاكِلا[3] ؟ وقلتَ : لئن لم تكفُف لتجدنّ جانبي خَشِنا ، فلا أَبْقَى اللهُ عليك إن أبقيتَ ، ولا أرْعَى عليك إن أرعيتَ[4] ، فوالله لا أنتهي عن قول الحق ، وصفة أهل العدل والفضل ، وذمِّ الأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ، والسلام » .

(شرح ابن أبي الحديد م ٤ ص ٤٨٨)

---

(١) في الأمثال « أحاديث الضبع استها » يزعمون أن الضبع تتمرغ في التراب ، ثم تقعي ، « أفعى السكاك : خاس على استه » فتتغنى بما لا يفهمه أحد ، فتلك أحاديث استها ، وهو مثل يضرب للمخلط في حديثه .

(٢) عرام الجيش : حدتهم وشدتهم وكثرتهم .

(٣) نكل عنه كضرب ونصر وعلم نكولا : نكص وجبن .

(٤) أرعى عليه : أبقى .

خلافة عبد الملك بن مروان

(سنة ٦٥ — ٨٦ هـ)

١٣٩ — كتاب عبد الملك إلى عمرو بن سعيد بن العاص

ولما خرج عبد الملك بن مَرْوان سنة ٦٩ هـ لقتال زُفَر بن الحَارِث الكِلاَبى[١] بقَرْقِيسِياء[٢] ، غلب عمرو بن سعيد بن العاص[٣] على دِمَشْق ، ودعا الناس إلى بيعته[٤] ، وكتب عبد الملك إليه حين خرج عليه :

---

(١) وذلك أنه لما مات معاوية الثانى بايع أهل دمشق الضحاك بن قيس الفهرى على أن يصلى بهم ويقيم لهم أمرهم ، حتى يجتمع أمر الأمة ، وكان يهوى هوى ابن الزبير ويعمل لنصرته سرا إذ كان بنو أمية بحضرته ، وكذلك كان النعمان بن بشير الأنصارى وهو على حمص ، وزفر بن الحرث الكلابى وهو على قنسرين ، وناتل بن قيس وهو على فلسطين يدعون إلى بيعة ابن الزبير ، ثم نشبت الحرب بين جيش الضحاك وجيش مروان بن الحكم فى مرج راهط (سنة ٦٤ هـ) ودارت الدائرة على جيش الضحاك وقتل هو وعامة أصحابه وانهزم بقيتهم فتفرقوا ، وفر زفر بن الحرث هاربا إلى قرقيساء ، فاجتمعت اليه قيس فرأسوه عليهم .

(٢) قرقيسياء بياءين ويقال بياء واحدة (قرقيساء) : بلد على الفرات .

(٣) هو عمرو بن سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الملقب بالأشدق لفصاحته ، ولاه معاوية مكة ، وولاه يزيد مكة والمدينة .

(٤) وذلك أنه لما كانت الفتنة بعد موت معاوية الثانى ، وانحاز الضحاك بن قيس عن مروان بن الحكم واستمال الناس ودعا إلى ابن الزبير ، التقى مروان وعمرو بن سعيد بن العاص ، فقال عمرو لمروان هل لك فيما أقوله لك ؟ فهو خير لى ولك ، فقال مروان : وماهو ؟ قال : أدعو الناس إليك وآخذها لك على أن تكون لى من بعدك ، فقال مروان : لا ، بل بعد خالد بن يزيد بن معاوية . فرضى عمرو بذلك ودعا الناس إلى بيعة مروان فأجابوا ، وبايع مروان بعده لخالد بن يزيد ، ولعمرو بن سعيد بعد خالد ، ثم مات مروان وخلفه عبد الملك . ولما اعتزم عبد الملك أن يخرج إلى العراق لقتال زفر بن الحارث سنة ٦٩ هـ — وقيل لقتال مصعب بن الزبير سنة ٧٠ هـ — قال له عمرو : إنك تخرج إلى العراق وقد كان أبوك وعدنى هذا الأمر من بعده ، وعلى ذلك جاهدت معه ، وقد كان من بلائى مالم يخف عليك ، فاجعل لى هـذا الأمر من بعدك ، فلم يجبه عبد الملك إلى شىء ، فلما خرج عبد الملك أغلق عمرو بن سعيد دمشق وخالف عليه ، — قيل : كان عبد الملك قد استخلفه عليها ، وقيل : إنه خرج مع عبد الملك ثم عاد إلى دمشق ليلا فغلب عليها — فكر عبد الملك راجعا إلى دمشق وحاصرها حتى صالح عمرا على أنه الخليفة بعده ففتح له دمشق ، ثم إن عبد الملك احتال له حتى قتله .

« أما بعد : فإن رحمتى لك ، تَصْرِفنى عن الغضب عليك ، لِتمكن الخَدْع منك ، وخِذْلان التوفيق إياك ، نَهَضْتَ بأسبابٍ وهّمَتْك أطماعُك أن تَستفيدَ بها عزّا ، وكنتَ جديرا ـ لو اعتدلتَ ـ أَنْ تدفعَ[1] بها ذُلاًّ ، ومَن رَحَل عنه حُسْنُ النظر ، واستوطنَتْه الأمانى ، مَلَكَ الْحَيْنُ[2] تصريفَه ، واستترت عنه عواقِبُ أمره ، وعن قليل يتبيَّن مَن سَلَك سبيلَك ، ونَهض بمثل أسبابك ، أنه أسير غَفْلة ، وصريعُ خَدْع ، ومَغيضُ ندم ، والرَّحِمُ[3] تحمِلُ على الصفح عنك ، مالم تَحلُلْ بك عواقبُ جهلك ، وتَزْجُر عن الإيقاع بك ، وأنت إن ارتدعتَ كنت فى كَنَفٍ وسِتْرٍ ، والسلام » .

وقال المسعودى : وكان فيما كتب إليه عبد الملك :

« إنك لَتُطْمِع نفسَك بالخلافة ، ولستَ لها بأهل » .

١٤٠ — رد عمرو بن سعيد على عبد الملك

فكتب إليه عمرو :

« استدراجُ النِّعم إياكَ أفادَك البَغْيَ ، ورائحةُ القُدْرة أَوْرَثَتك الغَفْلة ، زَجَرْتَ عما وافقتَ عليه ، وَنَدبتَ إلى ما تركتَ سبيله ، ولو كان ضَعْفُ الأسباب يُؤْيِس الطُّلّاب ، ما انْتَقَل سلطانٌ ولا ذَلَّ عزيزٌ ، وعن قريبٍ تتبيَّن : مَن أَسِير الغَفْلة ، وصَرِيع الخَدع ، والرَّحِم تعطِف على الإبقاء عليك مع دفْعك عما غيرُك أقوَمُ به منك ، والسلام » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٢٩ ، ومروج الذهب ٢ : ١١٦)

---

(١) فى الأصل « أن لا تدفع » وهو خطأ .

(٢) الحين : الهلاك . (٣) الرحم : القرابة .

حروب الخوارج الأزارقة

١٤١ — كتاب خالد بن عبد الله بن أسيد إلى عبد الملك بن مروان

ولما دانت العراق لعبد الملك بن مروان بعد مقتل مصعب بن الزبير سنة ٧١ هـ، ولّى على الكوفة أخاه بِشر بن مَرْوان، وولّى على البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أَسيد[1]، وخرج خالد إلى الأهواز، وندب للناس رجلا يقاتل الأزارقة، فجعلوا يطلبون المهلَّب، فقال خالد: ذهب المهلب بحظ هذا المصر، إني قد وليت أخي قتال الأزارقة، فولّى أخاه عبد العزيز بن عبد الله، وجعل المهلَّبَ على خراج الأهواز، ومضى عبد العزيز في ثلاثين ألفاً، فجعل يقول في طريقه: يزعم أهل البصرة أن هذا الأمر لايتم إلا بالمهلب! فسيعلمون، ثم ناهض الأزارقة فكايدوه[2] وهزموه، واتبعوا جنده يقتلونهم كيف شاءوا، وسَبَوا امرأته، ثم قتلوها[3]، وبلغ خالداً خبر الهزيمة فكتب إلى عبد الملك بن مروان:

---

(١) هو خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، ولاه عبد الملك البصرة سنة ٧١ هـ وعزله عنها سنة ٧٤ هـ .

(٢) وذلك أنهم وافقوه ساعة ثم انهزموا عنه مكيدة، فاتبعهم، فقال له الناس: لا تتبعهم فإنا على غير تعبئة فأبى، فلم يزل في آثارهم حتى اقتحموا عقبة فاقتحمها وراءهم، والناس ينهونه ويأبى، وكان لهم في بطن العقبة كمين، فلما صاروا وراءهم خرج عليهم الكمين، وانحاز عبد العزيز واتبعهم الخوارج يقتلونهم كيف شاءوا .

(٣) وكان عبد العزيز قد خرج بامرأته أم حفص بنت المنذر بن الجارود، فسبى الخوارج النساء

«أما بعدُ ، فإنى أُخبر أمير المؤمنين ـ أكرمه الله ـ أنى بعثتُ عبد العزيز بن عبد الله فى طلب الخوارج ، وأنهم لَقُوه بفارس ، فاقتتلوا قتالا شديداً ، فانهزم عبد العزيز لمّا انهزم عنه الناس ، وقُتل مُقَاتل بن مِسْمَع [1] ، وقَدِم الفَلُّ [2] إلى الأهوازِ ، فأحببتُ أنْ أُعْلِمَ أمير المؤمنين ذلك ، ليأتينى رَأيُه وأمْرُه أنزِل عنده إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله»

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٩٣)

١٤٢ — رد عبد الملك عليه

فكتب إليه عبد الملك بن مروان :

« أما بعدُ ، فقد قَدِم رسولك فى كتابك [3] ، تُعْلِمنى فيه بَعْثَتَك أخاك على قتال الخوارج ، وهزيمة من هُزِم ، وَقَتْل من قُتِل ، وسألتُ رسولك عن مكان المهلب ، فحدَّثنى أنه عامل لك على الأهواز ، فقبح الله رأيك ! حين تبعث أخاك أعرابيا من أهل مكة على القتال ، وتدع المهلب إلى جنبك يَجْبى

يومئذ، وكانت أم حفص بن سيف ، فأقاموها فى السوق حاسرة بادية المحاسن ، فاعترضوها وقلّبوها، وكانت من أكمل الناس كمالا وحسنا ، فتزايدت فيها العرب والموالى ، وغولى بها حتى بلغوها تسعين ألفا ، فثار رجل من قومها « عبد القيس » وكان من رءوس الخوارج يقال له أبو الحديد العبدى ، فقال : تنحوا هكذا ، ما أرى هذه المشركة إلا قد فتنتكم ، فضرب عنقها ، فأخذوه إلى أميرهم قطرى ابن الفجاءة فقالوا : يا أمير المؤمنين ، إن هذا استهلك تسعين ألفا من بيت المال ، وقتل أمة من إماء المؤمنين ، فقال : يا أمير المؤمنين إنى رأيت هؤلاء تنازعوا عليها حتى ارتفعت الأصوات ، واحمرت الحدق ، فلم يبق إلا الخبط بالسيوف ، فرأيت أن تسعين ألفا فى جنب ما خشيت من الفتنة بين المسلمين هينة ، فقال قطرى : قد أصبت وأحسنت ، خلوا عنه ، عين من عيون الله أصابتها .

(١) وكان خالد بن عبد الله بعثه على جيش وألحقه بناحية عبد العزيز .

(٢) أى المهزومون .

(٣) فى هنا للمصاحبة كما فى قوله تعالى « قال ادْخُلُوا فى أُمَمٍ » .

الخراج ، وهو الميمون النَّقِيبة[١] ، الحسنُ السياسة ، البصيرُ بالحرب ، المقاسى لها ، ابنها وابن أبنائها ، انظر أن تنهض بالناس ، حتى تستقبلهم بالأهواز ومِنْ وراء الأهواز ، وقد بعثتُ إلى بِشْر أن يُمِدَّك بجيش من أهل الكوفة ، فإذا أنت لقِيتَ عدوّك فلا تَعْمَل فيهم برأى ، حتى تُحْضِره المهلبَ وتستشيره فيه ، إن شاء الله ، والسلام عليك ورحمة الله » .

فَشَقَّ عليه أن قبّل[٢] رأيَه فى بعثة أخيه وَتَرْك المهلب ، وفى أنه لم يرض رأيه خالصا حتى قال : أحضِره المهلبَ ، واستشره فيه .

(تاريخ الطبرى ٧ : ١٩٣)

١٤٣ — كتاب عبد الملك بن مروان إلى أخيه بشر

وكتب عبد الملك إلى أخيه بشر بن مروان :

« أما بعدُ فإنى قد كتبت إلى خالد بن عبد الله آمُرُه بالنهوض إلى الخوارج ، فسَرّح إليه خمسةَ آلافِ رجل ، وابعث عليهم رجلا من قِبَلك ترضاه ، فإذا قضَوا غَزَاتهم[٣] تلك ، صرفتهم إلى « الرَّىّ »[٤] فقاتلوا عدوهم ، وكانوا فى مَسَالحهم[٥] وجَبَوا فَيْئَهُمْ ، حتى تأتِىَ أيامُ عَقِبِهم ، فَنُعْقِبَهم ونبعثَ آخرين مكانهم » .

فقطع على أهل الكوفة خمسة آلاف ، وبعث عليهم عبد الرحمن بن

---

(١) النقيبة : النفس والمشورة . (٢) قبّل رأيه : قبّحه وخطّأه .

(٣) الغزاة : اسم من غزا العدو غزوا .

(٤) مدينة كبيرة فى فارس وكانت قصبة بلاد الجبال . (٥) جمع مسلحة بالفتح ، وهى الثغر .

محمد بن الأشعث ، وقال : إذا قضيت غَزاتك هـذه فانصرف إلى « الرّىّ »

وكتب له عليها عهداً . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٩٣)

١٤٤ — كتاب خالد بن عبد الله بن أسيد إلى عبد الملك

وخرج خالد بأهل البصرة حتى قدم الأهواز ، وجاء عبد الرحمن بن الأشعث ببَعْث[1] أهل الكوفة حتى وافاهم بالأهواز ، وجاءت الأزارقة حتى دنَوا من مدينة الأهواز ومن معسكر القوم ، فزحف إليهم خالد فرأَوا أمواالهم من عَدَد الناس وعُدَّتهم ، فانهزموا مولِّين ، وأَتْبعهم خالد داودَ ابن قَحْذَم فى جيش من أهل البصرة ، وانصرف هو إلى البصرة ، وكتب إلى عبد الملك بن مروان :

« أما بعدُ ، فإنى أُخبر أمير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ أنى خرجتُ إلى الأزارقة الذين مَرَقوا من الدين ، وخرجوا من ولاية المسلمين ، فالتقينا بمدينة الأهواز ، فتناهَضْنا فاقتتلْنا كأشدِّ قتال كان فى الناس ، ثم إن الله أنزل نصره على المؤمنين والمسلمين ، وضرب اللهُ وجوهَ أعدائه ، فاتّبعهم المسلمون يقتلونهم ولا يُمْنعون ولا يمتنعون ، وأفاء اللهُ مافى عسكرهم على المسلمين ، ثم أتْبَعْتُهم داودَ بن قَحْـــذَم ، واللهُ ـ إن شاء الله ـ مُهْلِكهم ومستأصِلهم ، والسلام عليك » . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٩٤)

---

(١) البعث ويحرك : الجيش .

١٤٥ — كتاب عبد الملك إلى أخيه بشر

فلما قَدِم هذا الكتاب على عبد الملك كتب إلى أخيه بشر:

« أما بعدُ ، فابعث من قِبَلك رجلا شجاعا بصيراً بالحرب فى أربعة آلاف فارس ، فليسيروا إلى « فارس » فى طلب المارقة ، فإن خالداً كتب إلىَّ يخبرنى أنه قد بعث فى طلبهم داودَ بن قَحْذَم ، فمُر صاحبك الذى تبعثُ أن لا يخالف داودَ بن قحذم إذا ماالتقيا ، فإن اختلاف القوم بينهم عَوْنٌ لعدوهم عليهم ، والسلام عليك » .

فبعث بشر عَتَّاب بن وَرْقاء فى أربعة آلاف فارس من أهل الكوفة ، فخرجوا حتى التقَوا هم وداود بن قحذم بأرض فارس ، ثم اتبعوا القوم يطلبونهم حتى نَفَقت[1] خيول عامَّتهم ، وأصابهم الجَهد والجوع ، ورجع عامَّة ذينك الجيشين مُشاةً إلى الأهواز . (تاريخ الطبرى ٧ : ١٩٤)

هذه رواية الطبرى فى هذا الصَّدَد ، وروى أبو العباس المبرد فى الكامل كتابَ عبد الملك الذى ردَّ به على خالد بن عبد الله بن أسيد بصورة أخرى قال :

صورة أخرى لرد عبد الملك على خالد

« وكتب خالد إلى عبد الملك بعُذْر عبد العزيز ، وقال للمهلَّب : ماتُرى عبدَ الملك صانعاً بى ؟ قال : يَعزِلك ، قال : أتُراه قاطِعًا رَحِمى ؟ قال : نعم ،

(١) ماتت .

أتته هزيمة أُمَيَّة أخيك من البَحْرين[١] ، وتأتيه هزيمة أخيك عبد العزيز من فارس ! فكتب عبد الملك إلى خالد :

« أما بعدُ ، فإنى كنت حَدَدْتُ لك حَدًّا فى أمر المهلب ، فلما ملكتَ أمرك نَبَذْتَ طاعتى واستبددت برأيك ، فولّيتَ المهلَّبَ الجباية ، ووليتَ أخاك حربَ الأزارقة ، فقَبح اللهُ هذا رأيا ! أتبعَثُ غلاما غِرًّا لم يجرِّب الحروب ، وتترك سيدا شجاعا مدبِّرا حازما قد مارس الحروب فَفَلَج،[٢] تَشْغَلُه بالجباية ؟ أَمَا لو كافأتُك على قدر ذنبك لأَتاك من نَكِيرى مَالا بَقِيَّةَ لك معه ، ولكن تذكرتُ رَحِمَك[٣] فلفَتَتْنِى عنك ، وقد جعلتُ عقوبتَك عزلَك ، والسلام » . (الكامل للمبرد ٢ : ٢١٠ وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٩٥)

١٤٦ — كتاب عبد الملك الى أخيه بشر

قال أبو العباس : وولى بشرَ بن مروان وهو بالكوفة ، وكتب إليه :

« أما بعدُ ، فإنك أخو أمير المؤمنين يَجْمَعك وإياه مَرْوان بن الحَكَم ، وإن خالِدًا لا مُجْتَمَع له مع أمير المؤمنين دون أُمَيَّة ،[٤] فانظر المهلب فَوَلِّه

---

(١) وذلك أن أبا فديك الخارجى وهو من بنى قيس بن ثعلبة غلب على البحرين سنة ٧٢ هـ وقتل نجدة بن عامر الحنفى (زعيم فرقة النجدات العاذرية من الخوارج) فاجتمع على خالد بن عبد الله نزول قطرى بن الفجاءة (زعيم الأزارقة) الأهواز وأمر أبى فديك ، فبعث أخاه أمية بن عبد الله على جند كثيف إلى أبى فديك ، فهزمه أبو فديك ، وأخذ جارية له فاتخذها لنفسه ، وسار أمية على فرس له حتى دخل البصرة فى ثلاثة أيام ، فكتب خالد إلى عبد الملك بحاله وحال الأزارقة . (انظر تاريخ الطبرى ٧ : ١٩٥) .

(٢) فاز وظفر .

(٣) الرحم : القرابة ، ولفتنى أى صرفتنى وردتنى ، وفى رواية ابن أبى الحديد « وكفتنى عنك » .

(٤) قدمنا أن خالدا هو ابن عبد الله بن خالد بن أسيد بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، وعبد الملك هو ابن مروان بن الحكم بن أبى العاص بن أمية الخ .

حَرْبَ الأزارقة ، فإنه سيِّد بَطَل مُجَرَّبٌ ، فأَمْدِدْه من أهل الكوفة بثمانية آلاف رجل ، والسلام » .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢١١ وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٩٥)

١٤٧ — كتاب عبد الملك إلى أخيه بشر

ولنَعُد إلى رواية الطبرىّ ، قال :

« وفى سنة ٧٤ هـ عزل عبد الملك خالد بن عبد الله عن البصرة وولاها أخاه بِشْرَ بن مروان ، فصارت ولايتها وولاية الكوفة إليه ، فَشَخَص بشر إلى البصرة ، واستخلف على الكوفة عمرو بن حُرَيْث .

فلما صار بشر بالبصرة كتب عبد الملك إليه :

« أما بعدُ ، فابعث المهلَّبَ فى أهل مصره إلى الأزارقة ، ولْيَنْتَخب من أهل مصرِه وجوهَهم وفُرسانَهم وأُولِى الفضل والتجرِبة منهم ، فإنه أعرَفُ بهم ، وخَلِّه ورأْيَه فى الحرب ، فإنى أوثَقُ شىء بتجرِبته ونصيحته للمسلمين ، وابعث من أهل الكوفة بَعْثاً كثيفاً ، وابعث عليهم رجلا معروفاً شريفاً حَسِيباً صَلِيباً يُعْرَف بالبأس والنجدة والتجربة للحرب ، ثم أَنْهِضْ إليهم أهل المصرَين فليتبعوهم أىَّ وجهٍ ما توجَّهوا ، حتى يُبِيدَهمُ اللهُ ويستأصلهم ، والسلام عليك » .

فدعا بشر المهلب فأقرأه الكتاب وأمره أن ينتخب من شاء ، وشَقَّ على بشر أن إمْرَة المهلب جاءت من قِبَل عبد الملك ، فلا يستطيع أن يبعث غيره ،

فأوغرتْ صدرَه عليه حتى كأنه كان له إليه ذنب ، ودعا بشر عبد الرحمن ابن مِخْنف ، فبعثه على أهل الكوفة ، وأمره أن ينتخب فرسان الناس ووجوههم ، وأولى الفضل منهم والنجدة . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٧)

١٤٨ — كتاب خالد بن عبد الله بن أسيد إلى المرفضّين من الجند

وخرج المهلب بأهل البصرة حتى نزل رامَهُرْمُز فلقى بها الخوارج ، وأقبل عبد الرحمن بن مخنف بأهل الكوفة ، فلم يلبث الناس إلا عشرا[1] حتى أتاهم نَعْى بشر بن مروان ، وتُوُفِّى بالبصرة ، وكان قد استخلف خالد بن عبد الله ابن خالد بن أسيد ، فارفَضَّ[2] ناس كثير من أهل البصرة وأهل الكوفة ، فبلغ ذلك خالدًا ، فكتب إلى الناس كتابا ، وبعث رسولاً يضرب وجوهَ الناس ويردّهم ، فقدِمَ بكتابه مَوْلًى له ، فقرأه على الناس وقد جُمعوا له ، وفيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من خالد بن عبد الله إلى من بلغه كتابى هذا من المؤمنين والمسلمين ، سلام عليكم ، فإنى أحْمَد إليكم اللهَ الذى لا إله إلا هو ، أما بعدُ : فإن الله كتب على عباده الجهادَ ، وفَرَض طاعةَ وُلاةِ الأمر ، فمن جاهد فإنما يجاهد لنفسه ، ومن ترك الجهادَ فى الله كان اللهُ عنه أغْنَى ، ومن عَصَى وُلاةَ الأمر والقُوّامَ بالحق أسخط اللهَ عليه ، وكان قد استحق العقوبة

---

(١) وفى رواية الكامل « إلا شهرا » .

(٢) تفرق ، قال المبرد : « فجعل الجند من أهل الكوفة يتسللون حتى اجتمعوا بسوق الأهواز ، وأراد أهل البصرة الانسلال من المهلب فخطبهم فقال : إنكم لستم كأهل الكوفة ، إنما تذبون عن مصركم وأموالكم وحرمكم ، فأقام منهم قوم ، وتسلل منهم ناس كثير » .

فى بَشَرِه[١] ، وعرَّض نفسه لِاستفاءة[٢] مالِهِ ، وإلقاء عطائه ، والتسيير إلى أبعد الأرض وشر البُلدان .

أيها المسلمون : اعلموا على مَن اجترأْتم ؟ ومَن عصَيتم ؟ إنه عبد الملك ابن مروان أمير المؤمنين الذى ليست فيه غَمِيزة[٣] ، ولا لأهل المعصية عنده رُخصة[٤] ، سَوْطُهُ على من عَصَى ، وعلى من خالف سيفُهُ ، فلا تجعلوا على أنفسكم سبيلاً ، فإنى لم آلُكُمْ نصيحةً[٥] .

عبادَ الله : ارجِعوا إلى مكتَبِّكُم[٦] ، وطاعةِ خليفتكم، ولا ترجِعوا عاصِين مخالفين فيأتيكم ما تكرهون ، أُقْسم بالله لا أَثْقَف[٧] عاصياً بعد كتابى هذا إلا قتلتُه ، إن شاء الله ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

فلما فرغ من قراءته لم يلتفت الناس إلى ما فى كتابه .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٨)

١٤٩ — كتاب المرفضين إلى عمرو بن حريث

وأقبل فريق منهم حتى نزلوا قرية لآل الأشعث إلى جانب الكوفة ، وكتبوا إلى عمرو بن حريث :

---

(١) البشر : ظاهر الجلد جمع بشرة أى استحق الجلد والضرب .

(٢) أى للاستيلاء عليه ، يقال : فاء الغنيمة واستفاءها .

(٣) يقال : فيه مغمز وغميزة : أى مطعن أو مطمع . (٤) الرخصة : التسهيل .

(٥) ألا يألو : قصر ، أى لم أقصر فى نصيحتكم .

(٦) ضبط فى الأصل كمقعد، وأرى أنه إما اسم فاعل من كتب بالتشديد ، كتب الكتيبة: هيأها ، والكتيبة : القطعة من الجيش مجتمعة ، أى ارجعوا إلى قائدكم ، وإما مصدر ميمى أو اسم مكان بمعنى اجتماعكم أو مكان اجتماعكم ، كتبهم فتكتبوا : أى جمعهم فتجمعوا .

(٧) ثقفه كسمعه : صادفه أو أخذه أو ظفر به أو أدركه .

« أما بعدُ : فإن الناس لَمَّا بلغهم وفاةُ الأمير ـ رحمةُ الله عليه ـ تفرقوا، فلم يَبْقَ معنا أحد ، فأقبلْنا إلى الأمير وإلى مِصْرنا ، وأحبَبْنا ألا ندخل الكوفة إلا بإذن الأمير وعامه » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٨)

١٥٠ — رد عمرو بن حريث عليهم

فكتب إليهم :

« أما بعدُ : فإنكم تركتم مكتَّبكم وأقبلتم عاصين مخالفين ، فليس لكم عندنا إِذْنٌ ولا أمان » .

فانتظروا حتى إذا كان الليل دخلوها بغير إذن ، فلم يزل المهلب فى عدد قليل حتى ولى الحجاج بن يوسف العراق (سنة ٧٥ هـ) .
(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٠٨)

١٥١ — كتاب عبد الملك بن مروان إلى أخيه عبد العزيز

وروى ابن قُتَيبة فى الإمامة والسياسة أن بسر بن مَرْوان وَلِىَ البصرة أوّلا ، ثم ضمت إليه الكوفه ، قال :

لما أراد عبد الملك بن مروان أن يولِّى أخاه بسر بن مروان على العراق ، كتب إلى أخيه عبد العزيز بن مروان وهو بمصر ، وبشر معه يقود الجنود ، وكان يومئذ حديث السِّن :

« إنى قد ولبْتُ أخاك بسرا البصرةَ فأَشْخِص معه موسى بن نصير

وزيراً ومشيراً ، وقد بعثتُ إليك بديوان العراق فادفعه إلى موسى وأعلِمْه أنه المـأخوذ بكل خَلَل وتقصير» :

فشَخَص بشر من مصر إلى العراق ، ومعه موسى بن نصير حتى نزل البصرة ، فلما نزلها دفع إلى موسى بن نصير خاتَمه ، وتخلّى عن جميع العمل، حتى أتته ولاية الكوفه ، وقد ضُمّت إليه مع البصرة .

(الإمامه والسيا-ة ٢ : ٤٢)

١٥٢ — كتاب عبد الله بن عمر إلى عبد الملك بن مروان

وكان عبد الملك قد وجَّه الحجاج إلى الحجاز لقتال عبد الله بن الزبير فحاصره بمكة ، وما زال ابن الزبير يقاتل حتى قتل سنة ٧٣ هـ ، وبعث عبد الملك إلى الحجاج عهده بولاية الحجاز ، واليمن ، واليمامة ، وكتب عبد الله بن عمر إلى عبد الملك ببيعته لما قتل ابن الزبير ، وكان كتابه إليه يقول :

« لعبد الملك بن مَرْوان من عبد الله بن عمر ، سلام عليك ، فإني أقررت لك بالسمع والطاعة على سنة الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وبيعة نافع مولاى على مثل ما بايعتك عليه » . (العقد الفريد ٢ : ٢٦٦)

⁂

وروى صاحب صبح الأعشى هذا الكتاب قال :

كتب عبد الله بن عمر رضى الله عنهما إلى عبد الملك بن مَرْوان فى خلافته :

« أما بعدُ : لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين من عبد الله بن عمر ، سلام عليك ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، وأمرى السمع والطاعة على كتاب الله ، وسنة نبيه فيما استطعت » . (صبح الأعشى ٦ : ٤٨٠)

١٥٣ — كتاب محمد بن الحنفية إلى عبد الملك بن مروان

وكتب محمد بن الحنفية ببيعته لما قتل ابن الزبير ، وكان فى كتابه :

« إنى اعتزلتُ الأمة ، عند اختلافها ، فقعدتُ فى البلد الحرام الذى مَن دَخَله كان آمِنًا ، لأُحْرِزَ دينى ، وأمنعَ دمى ، وتركتُ الناس ، « قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ[1] فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً » وقد رأيتُ الناس قد اجتمعوا عليك ، ونحن عِصابة من أمّتنا لا نُفارق الجماعة ، وقد بعثت إليك منا رسولاً ليأخذ لنا منك مِيثاقاً ، ونحن أحق بذلك منك ، فإن أبَيْتَ فأرضُ الله واسِعةٌ ، والعاقبةُ للمتقين » (العقد الفريد ٢ : ٢٦٢)

١٥٤ — رد عبد الملك على ابن الحنفية

فكتب إليه عبد الملك :

« قد بلغنى كتابك بما سألته من الميثاق لك وللعِصابة التى معك ، فلك عهدُ الله وميثاقُه أَنْ لا تُهاجَ فى سلطاننا : غائباً ولا شاهداً ، ولا أحدٌ من أصحابك ، ما وَفَوا ببيعتهم ، فإن أحببْتَ الْمُقامَ بالحجاز فأقِمْ ، فان نَدعَ صلتَك

(١) الشاكلة : الطريقة والمذهب ، والسبيل .

وبرّك ، وإن أحببتَ المُقامَ عندنا فاشخَصْ إلينا فلن ندعَ مواساتك ، ولَعَمْرِى لئن ألجأناك إلى الذهاب فى الأرض خائفاً لقد ظلمناك وقطعْنا رَحِمَك ، فاخرج إلى الحجاج فبايِعْ ، فإنك أنت المحمودُ عندنا دِينا ورأيا ، وخيرٌ من ابن الزبير ، وأَرْضَى وأَتْقَى » . (العقد الفريد ٢ : ٢٦٢)

١٥٥ — كتاب عبد الملك إلى الحجاج

وكتب إلى الحجاج بن يوسف :

« لا تَعرِض لُمحمدٍ ولا لأَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ » وكانَ فى كتابه :

« جَنِّبْنِى دماءَ بنى عبد المطلب ، فليس فيها شفاء من الحَرَب[1] ، وإنى رأيت بنى حَرْب[2] سُلِبوا مُلكَهم لَمَّا قتلوا الحسينَ بن على » .

فلم يتعرض الحجاج لأحد من الطالبيين فى أيامه[3] .

(العقد الفريد ٢ : ٢٦٣ ، ٢٥٥)

١٥٦ — كتاب الحجاج إلى عبد الملك

وكتب الحجاج إلى عبد الملك يقول :

« إنى حُزت الحِجاز بشمالى ، وبقيت يمينى فارغة[4] — يعرِّض بالعراق — »

فبعث إليه بعهده على العراق ، فوليه بعد بشر بن مروان . (سرح العيون ص ١١٤)

(١) الحرب : شدة الغضب .

(٢) يعنى معاوية وعقبه « وهو معاوية بن أبى سفيان بن حرب بن أمية » .

(٣) وفى رواية المسعودى فى مروج الذهب ج ٢ : ص ١٥٩ :

« وكتب عبد الملك إلى الحجاج : « جنبنى دماء آل أبى طالب ، فإنى رأيت الملك استوحش من آل حرب حين سفكوا دماءهم » فكان الحجاج يجتنبها خوفا من زوال الملك عنهم ، لا خوفا من الخالق عزّ وجلّ » .

(٤) أخذ ذلك من زياد — انظر ص ٥٢ — .

١٥٧ — كتاب خالد بن أبان إلى موسى بن نصير

وكان عبد الملك قد أراد موسى بن نصير لأمر عَتَب عليه منه، فكتب خالد بن أَبَان من الشأم إلى موسى بن نصير :

« إنك معزول ، وقد وُجِّه إليك الحجاجُ بن يوسف ، وقد أُمِر فيك بأغْلَظِ أمر ، فالنجاءَ النجاةَ ، والوَحَى الوَحَى(١) ، فإما أن تَلْحَق بالفُرْس فتأمنَ ، وإما أن تَلْحَق بعبد العزيز بن مَرْوان مستجيراً به ، ولا تمكِّن ملعونَ ثَقِيفٍ من نفسك فيحكُمَ فيك » .

فلما أتاه الكتاب ركب النجائبَ ولِحَق بالشأم وبها يومئذ عبد العزيز ابن مروان قد وَفَد بأموال مصر » . (الإمامة والسياسة ٢ : ٤٣)

١٥٨ — كتاب الحجاج إلى عبد الملك

وكتب الحجاج من العراق :

« يا أمير المؤمنين ، إنه لا قَدْرَ لما اقتطعه موسى بن نصير من أموال العراق ، وليس بالعراق فابعث به إليّ » .

وكانت لموسى يدٌ عظيمة عند عبد العزيز بن مروان فأدخله عبد العزيز على عبد الملك ، فقرَّره عبد الملك بأنه اقتطع الفَيْء ، وتحمَّل موسى من ثلاث

---

(١) الوحى : العجلة والإسراع ، ويمد .

التُّهمة ، فأقسم عبد الملك ليُغْرِمَنّه ، فأعانه عبد العزيز بخمسين ألفاً ، وأدّى خمسين ألفاً فى ثلاثة أشهر نجَّمَها[١] عليه » . (الإمامة والسياسة ٢ : ٤٣)

١٥٩ — كتاب موسى بن نصير إلى عبد العزيز بن مروان

ورجع عبد العزيز بن مروان إلى مصر وسار موسى معه فكان من أشرف الناس عنده ، فأقام بها ما أقام حتى قَدِم حَسَّانُ بن النُّعْمان من إفريقية يريد الشام إلى عبد الملك ، وقد فتح له بها فتحاً ، فأجازه عبد الملك وزاده « بَرْقَةَ » وردّه إلى إفريقية والياً ، فأقبل حتى نزل مصر ، وبلغ عبدالعزيز أن عبد الملك وَلَّاه برقة ، فبعث إليه وأراده على أن ينزل عنها فأبى فقال له : اقعد فى بيتك وسيُولَّى هذا الأمر من هو خير منك ، وأولى به منك فى تجربته ومعرفته وسياسته ، ويُغْنِي اللهُ أمير المؤمنين عنك ، وأخذ عهده ورزَّقه ، ودعا بموسى بن نصير فعقد له على إفريقية سنة ٧٩ هـ فقدِمها والياً عليها .

وكان بزَغْوان[٢] قوم من البربر عليهم عظيم من عظمائهم ، فكانوا يُغِيرون على سَرْح[٣] المسلمين ويرصُدون غِرَّتهم — والذى بين زغوان وبين

---

(١) نجم الدين : أداه نجوما جمع نجم كشمس ، وكانت العرب توقت طلوع النجوم لأنهم ما كانوا يعرفون الحساب ، وإنما يحفظون أوقات السنة بالأنواء ، وكانوا يسمون الوقت الذى يحل فيه الأداء نجما تجوزا ، لأن الأداء لا يعرف إلا بالنجم ، ثم توسعوا حتى سموا الوظيفة نجما ، لوقوعها فى الأصل فى الوقت الذى يطلع فيه النجم ، واشتقوا منه فقالوا نجم الدين إذا جعله نجوما .

(٢) زغوان : جبل بإفريقية بالقرب من تونس

(٣) السرح : المال السائم .

القَيْرَوان يوم إلى الليل - فوجَّه إليهم موسى خمسمائة فارس فقاتلوهم وهزمهم الله وقتل صاحبهم ، وفتحها الله على موسى ، فبلغ سَبْيُهم يومئذ عشرة آلاف رأس - وكَان أول سبي دخل القيروان فى ولاية موسى - ثم وجه ابنه عبد الرحمن إلى بعض نواحيها فأتاه بمائة ألف رأس ، ثم وجه ابنه مروان فأتاه بمثلها ، فكان الخُمْس يومئذ ستين ألف رأس .

وكتب موسى بن نصير إلى عبد العزيز بن مروان بمصر « يخبره بالذى فتح الله عليه ، وأمكَنَ له ، ويُعْلِمه أن الخمس بلغ ثلاثين ألفاً » وكان ذلك وهما من الكاتب .

١٦٠ — رد عبد العزيز على موسى

فلما قرأ عبد العزيز الكتاب دعا الكاتب فقال له : وَيْحَك ، اقرأ هذا الكتاب ! فلما قرأه قال : هذا وهم من الكاتب فراجِعْه ، فكتب إليه عبد العزيز :

« إنه بلغنى كتابك تذكُر فيه أنه قد بلغ خُمْسُ ما أفاء الله عليك ثلاثين ألفَ رأس ، فاستكبرتُ ذلك ، وظننتُ أن ذلك وهم من الكاتب ، فاكتب إلىّ بعد ذلك على حقيقةٍ وَاحذَرِ الوَهْمَ » .

١٦١ — رد موسى على عبد العزيز

فلما قَدِمَ الكتاب على موسى كتب إليه .

« بلغني أن الأمير — أبقاه الله — يذكر أنه استكثر ما جاءه من العِدَّة التي أفاء الله عليّ ، وأنه ظن أن ذلك وهم من الكاتب ، فقد كان ذلك وهماً على ما ظنَّه الأميرُ ، والخُمْس أيها الأمير ستون ألفاً ، حقًّا ثابتاً بلا وهم » .

فلما أتى الكتاب إلى عبد العزيز وقرأه ، ملأه سروراً .

(الإمامة والسياسة ٢ : ٤٦)

١٦٢ — كتاب عبد الملك إلى عبد العزيز

وذكروا أن عبد العزيز بن مَرْوان لما عزل حَسَّان بن النعمان ، وولى موسى بن نصير ، وفَتَح اللهُ لموسى ، بلغ ذلك عبد الملك بن مَرْوان ، فكره ذلك وأنكره ، ثم كره رَدَّ رأيِ عبد العزيز ، ثم هَمَّ بعزل موسى لسوء رأيه فيه ، ثم رأى أن لا يردَّ ما صنع عبد العزيز ، فكتب عبد الملك إلى عبد العزيز :

« أما بعدُ : فقد بلغ أميرَ المؤمنين ما كان من رأيك في عَزْل حسانَ وتوليتك موسى مكانه ، وعَلِم الأمر الذي له عزَلْتَه ، وقد كنتُ أَنتظِرُ منك مثلها في موسى ، وقد أمضى لك أمير المؤمنين من رأيك ما أمضيتَ وولايتِك من وَلَّيْتَ ، فاستوصِ بحَسَّان خيراً فإنه ميمونُ الطائر ، والسلام »

(الإمامة والسياسة ٢ : ٤٦)

١٦٣ - رد عبد العزيز على عبد الملك

فلما قدم الكتاب على عبد العزيز كتب إلى أخيه عبد الملك :

« أما بعدُ : فقد بلغنى كتابُ أمير المؤمنين فى عزل حسان ، وتوليتى موسى بن نصير ، وقد كان لِمثلِها منى منتظِراً فى موسى ، ويُعلِمنى أنه قد أمْضَى لى من رأيى ما أمضيتُ ؛ وولايتى مَن ولّيتُ ، وقد علمتُ أن أمير المؤمنين يتفاءل بحسان لِلّذِى فَتَحَ اللهُ على يديه ، ولم أعْدُ مع نظرى لأمير المؤمنين بأن عزَلْتُ حسانَ وولّيت موسى فى يُمْن طائره وحُسْن أثَره ، فأمّا قولُ أمير المؤمنين « قد كنت أنتظِرها منك فى موسى » فلَعَمْرى لقد كنتُ لها فيه مُرْصِدا ، ولأمير المؤمنين أن يسبِق بها إليه منتظِرا ، حتى حَضَر أمرٌ جَهَدتُ فيه نفسى لأمير المؤمنين ولنفسى الرأى والنصيحة ، والسلام » .

(الإمامة والسياسه ٢ : ٤٦)

١٦٤ - كتاب عبد العزيز إلى عبد الملك

وكتب عبد العزيز إلى عبد الملك :

« أما بعدُ : فإنى كنت وأنت يا أمير المؤمنين فى موسى وحسان ، كالمراهِنَيْن أرسَلا فَرَسَيْهما إلى غايتهما ، فأتَيا معا ، وقد مُدَّت الغايةُ لأحدهما ، ولك عنده مَزِيدٌ إن شاء الله ، وقد جاء نى با أمير المؤمنين كتاب من موسى ، وقد وجَّهْتُه إليك لِتقرأه ، وتحمَدَ اللهَ عليه ، والسلام » .

(الإمامة والسياسه ٢ : ٤٧)

١٦٥ — رد عبد الملك على عبد العزيز

فكتب إليه عبد الملك :

« أما بعدُ : فقد بلغ أمير المؤمنين كتابُك ، وفَهِم المَثَل الذى مثَّلْتَه فى حَسَّان وموسى ، ويقول لك : عند أحدهما مزيدٌ ، وكُلٌّ قد عرَفَ اللّهُ على يده خيرا ونصرا ، وقد أجريْتَ وحْدك ، وكلٌّ مُجْرٍ بالخلاء مسرور[1] ، والسلام »

(والإمامة والسياسة ٢ : ٤٧)

١٦٦ — كتاب الحجاج إلى المهلب

ولما وَلِى الحجاج العراق ، قَدِم الكوفةَ فخطَب أهلَها خطبته المشهورة ، واستنفرهم لقتال الخوارج مع المهلَّب ، وتوعَّد من تخلَّف ، ثم خرج إلى البصرة ، فقام فيها بخطبة مثل التى قام بها فى أهل الكوفة ، وتوعدهم مثل وعيده إياهم ، فتدفّق الناس على المهلب فقال : جاء الناس رجل ذَكَرٌ[2] ، وكتب الحجاج إلى المهلب ، وإلى عبد الرحمن بن مِخْنَف :

« أما بعدُ : إذا أتاكم كتابى هذا فناهِضوا الخوارجَ ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٥)

---

(١) هو مثل ، ورواه الميدانى فى مجمع الأمثال « كل مجر فى الخلاء يسر » قال ويروى : « كل مجر بخلاء مجيد » قال : ويقال أيضا : « كل مجر بخلاء سابق » وقال صاحب اللسان فى مادة « سرر » وقد سرر به أسره : أى فرّحنا ، والمثل الذى جاء « كل مجر بالخلاء مسرّ » إنما جاء على توهم أسرّ .

(٢) أى قوى شجاع أبىّ .

١٦٧ — كتاب الحجاج إلى المهلب

وكتب الحجاج إلى المهلب :

« أما بعدُ : فإن بِشْرًا – رحمه الله – استَكْرَهَ[١] نفسَه عليك ، وأراك غِناه عنك ، وأنا أُريك حاجتى إليك ، فأرِنى الجِدَّ فى قتال عدوك ، ومَن خِفْته على المعصية ممن قِبَلك فاقْتُلْه ، فإنى قاتلٌ مَنْ قِبَلى ، ومن كان عندى مِنْ وَلِىِّ مَنْ هَربَ عنك فأعْلِمْنِى مكانَه ، فإنى أرى أنْ آخُذَ الوَلِىَّ بالوَلِىِّ[٢] ، والسَّمِىَّ بالسَّمِىِّ » .

١٦٨ — رد المهلب على الحجاج

فكتب إليه المهلب :

« ليس قِبَلى إلا مُطيعٌ ، وإن الناس إذا خافوا العقوبةَ كَبَّروا الذنب ، وإذا أَمِنوا العقوبةَ صَغَّروا الذنب ، وإذا يئسوا من العفو أكْفَرَهم ذلك ، فهَبْ لِى هؤلاء الذين سَمَّيتهم عُصاةً ، فإنما هم فُرْسان أبطال ، أرجو أن يقتل الله بهم العدُوَّ ، ونادِمٌ[٣] على ذَنْبه » .

فلما رأى المهلب كثرة الناس عليه قال : اليومَ قوتل هذا العدو .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢١٤ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٩٧)

---

(١) أى حمل نفسه على كراهيتك .

(٢) ومن قبله زياد يقول فى خطبته البتراء : « وإنى أقسم بالله لآخذن الولىّ بالمولى » وسميك من اسمه اسمك ونظيرك .

(٣) معطوف على فرسان أبطال ، بمعنى الجمع : أى نادمون .

١٦٩ — كتاب الحجاج إلى المهلب

وخرج المهلب فى آثار الخوارج ، ونشِب بينه وبينهم القتال ، فانكشفوا ، وقد كثر فيهم القتل والجِراح ، وكتب الحجاج إلى المهلب من قبل الوَقعة :

« أما بعدُ : فإنه بلغنى أنك أقبلتَ على جِباية الخَراج ، وتركْتَ قِتال العدو ، وإنى وليّتك وأنا أرى مكان عبد الله بن حَكيم المُجاشِعِىّ ، وعَبّادِ ابن حُصَيْن الحَبَطِىّ ، واخترتك وأنت من أهل عُمَان ، ثم رجل من الأَزْد ، فالقَهُم يومَ كذا فى مكان كذا ، وإلاَّ أَشْرَعْتُ[1] إليك صَدْرَ الرمح » :

فشاور بنيه فقالوا : إنه أمير ، فلا نَغْلُظْ عليه فى الجواب .

١٧٠ — رد المهلب على الحجاج

فكتب إليه المهلب :

« وَرَدَ علىَّ كتابُك تزْعُم أنى أقبلتُ على جباية الخراج ، وتركتُ قتال العدوّ ، ومن عَجَز عن جباية الخراج فهو عن قتال العدو أعْجَزُ ، وزعمتَ أنك ولّيتنى وأنت ترى مكان عبد الله بن حَكيم المُجَاشِعِىّ ، وعَبّاد بن حُصَيْن الحَبَطِىّ، ولو وَلّيتَهما لكانا مستحقّين لذلك ، فى فضلهما وغَنائِهما[2] وبطْشهما، واخترتَنى وأنا رجل من الأَزد ، ولعَمْرى إن شرا من الأزد لقبيلةٌ تَنَازَعُها

---

(١) أى سدّدت . (٢) كفايتهما .

ثلاثُ قبائلَ لم تستقرَّ فى واحدةٍ منهن(١) ، وزعمتَ أنى إن لم ألْقَهم فى يوم

(١) يعنى قبيلة ثقيف قبيلة الحجاج فهى متنازعة بين هوازن وإياد وثمود ، وهاك كلمة عن نسبها :
اختلف النسابون فى نسب ثقيف على ثلاثة أقوال :

فقال قوم إنهم من هوازن ، وهو القول الذى يزعمه الثقفيون ، قالوا إن جدهم ثقيفا هو ثقيف (واسمه قسىّ) بن منبه بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمه بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وعلى هذا القول جمهور الناس . ويزعم آخرون أن ثقيفا من إياد بن نزار بن معد ابن عدنان ، ويقولون هو قسى بن منبه بن النبيت بن منصور بن يقدم بن أفصى بن دعمى بن إياد ، وإن النخع أخوه لأبيه وأمه ، ثم افترقا ، فصار أحدهما فى عداد هوازن ، والآخر فى عداد مذحج بن مالك بن زيد بن عريب بن زيد بن عهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، قالت أخت الأشتر وهو مالك بن الحرث النخعى تبكيه :

أبعد الأشتر النخعى نرجو مكاثرة ونقطع بطن وادى
ونصحب مذحجا بإخاء صدق وإن ننسب فنحن ذرا إياد
ثقيف عمنا وأبو أبينا وإخوتنا نزار أولو السداد

وروى أن المغيرة بن شعبة وهو والى الكوفة صار إلى دير هند بنت النعمان بن المنذر فى الحيرة ، وهى فيه عمياء مترهبة ، فاستأذن عليها ، فقيل لها أمير هذه المدرة بالباب (والمدرة بالتحريك : المدينة) فقالت : قولوا له : أمن ولد جبلة بن الأيهم أنت ؟ قال : لا ، قالت : أفمن ولد المنذر بن ماء السماء ؟ قال : لا ، قالت : فمن أنت ؟ قال : المغيرة بن شعبة الثقفى ، قالت : فما حاجتك ؟ قال : جئتك خاطبا ، قالت : لو كنت جئتنى لجمال أو لمال لأطلبتك ، (أى أعطيتك ماطلبت) ولكنك أردت أن تتشرف بى فى المحافل فتقول : نكحت ابنة النعمان بن المنذر ، وإلا فأى خير فى اجتماع أعور وعمياء ؟ (وكانت عينه قد ذهبت فى وقعة اليرموك — انظر ترجمته فى أسد الغابة) فبعث إليها : كيف كان أمركم ؟ فقالت : سأختصر لك الجواب : أمسينا وليس فى الأرض عربى إلا وهو يرغب إلينا ويرهبنا ، ثم أصبحنا وليس فى الأرض عربى إلا ونحن نرغب إليه ونرهبه ، قال : فما كان أبوك يقول فى ثقيف ؟ قالت : اختصم إليه رجلان منهم ، أحدهما ينميها إلى إياد والآخر إلى بكر بن هوازن فقضى بها للإيادى ، وقال :

إن ثقيفا لم يكن هوازنا ولم يناسب عامرا ومازنا

(يريد عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور ومازن بن منصور) فقال المغيرة : أما نحن فمن بكر بن هوازن ، فليقل أبوك ماشاء ثم انصرف .

وقال قوم آخرون إن ثقيفا من بقايا ثمود من العرب القديمة التى بادت وانقرضت ، قيل : كان عبدا لأبى رغال (ككتاب) وكان أصله من قوم نجوا من ثمود فانتمى بعد ذلك إلى قيس بن عيلان ، روى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه مر بثقيف فتغامزوا به فرجع إليهم فقال لهم : ياعبيد أبى رغال ، إنما كان أبوكم عبدا له فهرب منه فثقفه (كسمع : أى ظفر به) بعد ذلك ، ثم انتمى إلى قيس ، وروى أيضا أن عليا قال على المنبر بالكوفة — وذكر ثقيفا — « لقد هممت أن أضع على ثقيف الجزية ، لأن ثقيفا كان عبدا لصالح نبى الله عليه السلام ، وأنه سرحه إلى عامل له على الصدقة فبعث

كذا فى مكان كذا ، أشرعتَ إلىَّ صدرَ الرمح ، فلو فعلتَ لقلَبْتُ إليك ظَهْرَ المِجَنِّ[1] ، والسلام » .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢١٥ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٩٧ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٦)

١٧١ — كتاب الحجاج إلى المهلب

ووجَّه الحجاج البَرَاء بن قَبِيصَةَ إلى المهلب يستحثه فى مناجزة القوم ، وكتب إليه :

« إنك لتحبُّ بقاءهم لتأ كل بهم » .

فقال المهلب لأصحابه : حرِّكوهم[2] ، فشهِد البَرَاءُ من جَلَدِهِم وثباتهم

العامل معه بها ، فهرب واستوطن الحرم ، وإن أولى الناس بصالح محمد صلى الله عليهما وسلم » وسيرد عليك قريبا أن عبد الملك بن مروان كتب فى إحدى رسائله إلى الحجاج يقول : « لقد جالت البصيرة فى ثقيف بصالح النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ ائتمنته على الصدقات ، وكان عبده ، فهرب بها عنه » وقال شبيب بن يزيد الشيبانى الخارجى حين دخل الكوفة فى عهد الحجاج سنة ٧٦ هـ :

عبد دعىّ من ثمود أصله لا بل يقال أبو أبيهم يقدم

(ويقدم كينصر من أبناء إياد وجدّ ثقيف ـ على رأى ـ كما قدمنا) وقد قال الحجاج على المنبر : يزعمون أنا من بقايا ثمود ، فقد كذبهم الله بقوله : « وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى » وقال مرة أخرى: ولئن كنا من بقايا ثمود لما نجا مع صالح إلا خيارهم .

انظر شرح ابن أبى الحديد م ٢ : ص ٣٩٢ والكامل للمبرد ١ : ٢٢٤ ومروج الذهب ٢ : ٦٨ والأغانى ٤ : ٧٤ وتاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٣ والعقد الفريد ٣ : ٨ .

(١) المجن : الترس ، وقلب له ظهر المجن : كلمة تضرب مثلا لمن كان لصاحبه على مودة أو رعاية ثم حال عن ذلك ، أى أسقط الحياء وفعل ماشاء .

(٢) قال أبو العباس : « فخرج فرسان من أصحابه إليهم فخرج إليهم من الخوارج جمع ، فاقتتلوا إلى الليل ، فقال لهم الخوارج : ويلكم ، أماتملون ؟ فقالوا : لا ، حتى تملوا . قالوا : فمن أنتم ؟ قالوا : تميم ، قالت الخوارج : ونحن بنو تميم ، فلما أمسوا افترقوا ، فلما كان الغد خرج عشرة من أصحاب المهلب ، وخرج إليهم عشرة من الخوارج ، فاحتفر كل واحد منهم حفيرة وأثبت قدمه فيها ، فكلما قتل رجل جاء رجل من أصحابه فاجتره ووقف مكانه حتى أعتموا ، فقال لهم الخوارج : ارجعوا . فقالوا : بل ارجعوا أنتم ، فقالوا : ويلكم ، من أنتم ؟ فقالوا : تميم ، قالوا : ونحن تميم .

ما أدهشه ، فرجع إلى الحجاج ، فقال له : مَهْيَمْ[١] ، قال : « رأيت أيها الأمير قومًا لا يعين عليهم إلا الله » .

١٧٢ — رد المهلب على الحجاج

وكتب المهلب جواب الحجاج :

« إنى منتظرٌ بهم إحدى ثلاثٍ : موت ذَريعٌ[٢] ، أَو جوع مُضِرّ ، أو اختلافٌ من أهوائهم[٣] » .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢١٧ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٣٩٨)

صورة أخرى لكتاب الحجاج إلى المهلب

وقال الطبرى فى هذا الصدد :

وبعث الحجاج إلى المهلَّب البَرَاءَ بن قَبِيصةَ وكتب إلى المهلب :

« أما بعدُ ، فإنك واللهِ لو شئتَ فيما أَرَى لقد اصْطَلمتَ[٤] هذه الخارجةَ المارقةَ ، ولكنك تُحِبُّ طولَ بقائهم لتأكلَ الأرض حَوْلَك ، وقد بعثتُ إليك البراءَ بنَ قبيصةَ ليُنْهِضَك إليهمْ فانْهضْ إليهم إذاقَدِم عليك بجميع

---

(١) كلمة يمانية ، استفهام معناه : ما الخبر وما الأمر .

(٢) الموت الذريع : الفاشى .

(٣) وقد دبر المهلب بينهم دبور الشقاق والاختلاف حتى اضطرب أمرهم وأمكنه قتلهم كما سنبينه بعد

(٤) اصطلمه : استأصله .

المسلمين ، ثم جاهِدْهم أشدَّ الجهاد ، وإياك والعِلَلَ والأباطيلَ[1] والأمور التي ليست لك عندى بسائِغَةٍ ولا جائِزة والسلام[2] » .

صورة اخرى لرد المهلب على الحجاج

فكتب المهلب إلى الحجاج :

« أما بعد : فقد أتانى كتابُ الأمير ـ أصلحه اللّٰه ـ واتِّهامُه إياى فى هذه الخارجة المـارقة ، وأَمَرَنى الأمير بالنهوض إليهم ، وإشهادِ رسولِهِ ذلك ، وقد فعلت ، فليسأله عما رأى ، فأَمَّا أنا فواللّٰهِ لو كنت أقدرُ على استئصالهم ، أو إزالتهم عن مكانهم ، ثم أمسكت عن ذلك ، لقد غَشَشْتُ المسلمين ، وما وَفَيْتُ لأمير المؤمنين ، ولا نصحتُ للأمير ـ أصلحه اللّٰه ـ فمعاذَ اللّٰهِ أن يكون هذا من رأيى ، ولا مما أَدِينُ اللّٰهَ به ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٩)

---

(١) الأباطيل : جمع أبطولة بضم الهمزة ، أو جمع إبطالة بالكسر ، أو جمع باطل على غير قياس .

(٢) قال : فأخرج المهلب بنيه ، كل ابن له فى كتيبة ، وأخرج الناس على راياتهم ومصافهم وأخماسهم ، وجاء البراء بن قبيصة فوقفه على تل قريب منهم حيث يراهم ، فأخذت الكتائب تحمل على الكتائب والرجال على الرجال ، فيقتتلون أشد قتال رآه الناس من صلاة الغداة إلى انتصاف النهار ثم انصرفوا ، فجاء البراء إلى المهلب فقال له : لا والله ما رأيت كبنيك فرسانا قط ، ولا كفرسانك من العرب فرسانا قط ، ولا رأيت مثل قوم يقاتلونك قط أصبر ولا أبأس ، أنت والله المعذور ، فرجع بالناس المهلب حتى إذا كان عند العصر خرج إليهم بالناس وبنيه فى كتائبهم فقاتلوه كقتالهم فى أول مرة ، حتى حجز الليل بينهم فانصرفوا عند المساء ، قال المهلب للبراء : كيف رأيت ؟ قال : رأيت قوما والله مايعينك عليهم إلا الله ، فأحسن إلى البراء وأجازه وحمله وكساه وأمر له بعشرة آلاف درهم ، ثم انصرف إلى الحجاج فأتاه بعذر المهلب وأخبره بما رأى .

١٧٣ — كتاب الحجاج إلى المهلب

ووجَّه الحجاج الجَرَّاحَ بنَ عبد اللّٰه إلى المهلب يستبطئه فى مناجزة القوم ، وكتب إليه :

«أما بعدُ : فإنك جَبَيْت الخَراج بالعِلَل ، وتحصَّنْتَ بالخَنَادق ، وطاوَلْتَ القومَ ، وأنت أعزُّ ناصرا ، وأكثرُ عَدَداً ، وما أظنُّ بك مع هذا مَعْصِيَةً ولا جُبْناً ، ولكنك اتخذتهم أُكْلاً[1] ، وكان بقاؤهم أيسرَ عليك من قتالهم ، فناجِزْهم وإلا أنْكرتَنى ، والسلام[2] » .

١٧٤ — رد المهلب على الحجاج

فكتب المهلب إلى الحجاج :

« أتانى كتابُك تستبطِئنى فى لقاء القوم ، على أنك لا تظنُّ بى معصية ولا جُبنا ، وقد عاتبتَنى معاتبةَ الجبان ، وأوعدتنى وَعيدَ العاصى ، فاسأل الجَرَّاحَ ، والسلام[3] » .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢١٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٣٩٩ ، ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٧)

---

(١) الأُكل كقفل وعنق : مايؤكل والرزق والحظ من الدنيا .

(٢) فقال المهلب للجراح : يا أبا عقبة والله ماتركت حيلة إلا احتلتها ، ولا مكيدة إلا أعملتها ، وما العجب من إبطاء النصر وتراخى الظفر ، ولكن العجب أن يكون الرأى لمن يملكه دون من يبصره ، ثم ناهض الخوارج ثلاثة أيام يغاديهم القتال ، ولا يزالون كذلك إلى العصر ، وينصرف أصحابه وبهم قرح ، وبالخوارج قرح وقتل ، فقال له : قد أعذرت .

(٣) فلما قدم الجراح على الحجاج ، قال له : كيف رأيت أخاك ؟ قال : والله مارأيت أيها الأمير مثله قط ، ولا ظننت أن أحدا يبقى على مثل ماهو عليه ، ولقد شهدت أصحابه أياما ثلاثة يغدون إلى الحرب ، ثم ينصرفون عنها ، وهم بها يتطاعنون بالرماح ، ويتجالدون بالسيوف ، ويتخابطون بالعمد ، ثم يروحون كأن لم يصنعوا شيئا ، رواح قوم تلك عادتهم وتجارتهم ، فقال الحجاج : لشد مامدحته أبا عقبة ! قال : الحق أولى .

١٧٥ — كتاب الحجاج إلى عتاب بن ورقاء

وكتب الحَجّاج إلى عَتَّاب بن وَرْقاء الرِّياحىّ من بنى رِياح بن يَرْبوع ابن حَنظلة ، وهو والى أَصْبَهان «يأمره بالمسير إلى المهلب ، وأن يضم إليه جند عبد الرحمن بن مِخْنف ، فكلُّ بلد تدخلانه من فتوح أهل البصرة ، فالمهلب أمير الجماعة فيه ، وأنت على أهل الكوفة ، فإذا دخلتم بلدا فَتْحُه لأهل الكوفة فأنت أمير الجماعة ، والمهلب على أهل البصرة» .

فقدم عتاب فى إحدى جُمادَيين من سنة ٧٦ على المهلب .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢١٩ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٠٠)

١٧٦ — كتاب المهلب إلى الحجاج

قال ابن نُباتة فى سَرْح العيون :

« وكتب الحجاج إلى المهلب يستبطئه فى مناجزة الأزارقة ويستعجزه ، فحبس المهلب رسول الحجاج أياما حتى رأى صنع الخوارج وجَلَدهم وثباتهم ، وكتب إلى الحجاج يقول :

« إن الشاهد يَرَى مالا يراه الغائب ، فان كنت نَصَبْتَنى لحرب هؤلاء القوم ، على أن أُدَبِّرها كما أرى ، فإن أمْكَنَتْنى فُرصةٌ انتهزتُها ، وإن لم تُمكِنّى توقفتُ ، فأنا أُدبر ذلك بما يُصلحه ، وإن أردتَ منى أن أعمل وأنا

حاضرٌ ، برأيك وأنت غائب ، فإن كان صوابا فلكَ ، وإن كان خَطَأً فعلىَّ ، فابعث مَن رأيتَ مكانى ، والسلام[١] » « سرح العيون ص ١٣٤ »

١٧٧ — كتاب عبد الملك الى الحجاج

وكتب المهلب من فوره إلى عبد الملك ، فكتب إليه عبد الملك :

« لاتعارض المهلَّبَ فيما يراه ، ولا تُعْجِلْه ، ودَعْه يدبر أمره »

« الأغانى ١٣ : ٥٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٠٧ »

١٧٨ — كتاب عبد الملك إلى الحجاج

وكتب الحجاج إلى عبد الملك بن مَرْوان يُغَلِّظ له أمرَ الخوارج مع قَطَرِى ، فكتب إليه عبد الملك :

«أمّا بعدُ ، فإنى أحْمَدُ إليك السيفَ ، وأُوصِيك بما أوصى به البَكْرِىُّ زيداً» .

فلم يفهم الحجاج ما عَنَاه عبد الملك . وقال لحاجبه : نادِ فى الناس : من أخبر الأمير بما أوصى به البكرى زيدا فله عشرة آلاف دِرْهم ، فورَد رجل من الحجاز يتظلم من بعض عماله ، فقال للحاجب : أنا أخبره ، فأدخله عليه فقال له : ما قال البكرىُّ لزيد ؟ قال : قال لابن عمه زيد — والشعر لموسى ابن جابر الحنفى :

---

(١) ورواية أبى الفرج الأصبهانى : « كتب الحجاج إلى المهلب يأمره بمناجزة الأزارقة ويستبطئه ويضعفه ويعجزه فى تأخيره أمرهم ومطاولته لهم ، فقال المهلب لرسوله : قل له إنما البلاء أن الأمر إلى من يملكه لا إلى من يعرفه ، فإن كنت نصبتنى لحرب هؤلاء القوم .. الخ » — الأغانى ١٣ : ٥٧ —

أقول لزيدٍ لا تُتَرْتِرْ فإنهم ... يَرَون المنايا دون قتلِك أو قتلى[1]
فإن وضعوا حَرْبا فضَعْها، وإن أَبَوا ... فَشُبَّ وَقُودَ الحرب بالحَطَب الجَزْلِ[2]
فإن عَضَّتِ الحربُ الضَّرُوسُ بنابها ... فعُرْضَةُ نار الحرب مثلُك أو مثلى[3]

فقال الحجاج: صدق أمير المؤمنين، عُرْضة نار الحرب مثلى أو مثله، وصدق البكرى. (مروج الذهب ٢ : ١٥٩، وذيل الأمالى ص ٧٣)

١٧٩ — كتاب الحجاج إلى المهلب

وكتب إلى المهلب:

«إن أمير المؤمنين أوصانى بما أوصى به البكرىُّ زيداً، وأنا أوصيك به وبما أوصى به الحارثُ بن كعب[4] بنيه».

فأتى المهلب بوصيته، فإذا فيها:

«يا بَنِىَّ كونوا جميعاً ولا تكونوا شتَّى[5] فتَفَرَّقوا، وبُزُّوا[6] قبل أن تُبَزُّوا، فموتٌ فى قوة وعز خيرٌ من حياة فى ذل وعجْز».

فقال المهلب: صدق البكرى، والحارث بن كعب.

(مروج الذهب ٢ : ١٥٩)

---

(١) الترترة بالتاء وبالتاء: إكثار الكلام وترديده، والبربرة بالباء أيضا: كثرة الكلام والجلبة والصياح.
(٢) الجزل: الحطب اليابس، أو الغليظ العظيم منه.
(٣) حرب ضروس: أكول عضوض، وأصله من الناقة الضروس، وهى السيئة الخلق العضوض لحالبها.
(٤) هو أحد الجاهليين المعمرين.
(٥) أى متفرقين، جمع شتيت.
(٦) بزه: سلبه وفى المثل: «من عزَّ بزَّ» أى من غلب سلب.

١٨٠ — كتاب أبى خالد القنانى الى قطرى بن الفجاءة

وقال أبو العباس المبرِّد : من طريف أخبار الخوارج قول قَطَرى بن الفُجاءة المـازنى ّ لأبى خالد القَنَانِىّ [1] — وكان من قعَد الخوارج — :

أبا خالدٍ يَا أنْفِرْ فلست بخالدٍ ... وما جعل الرحمن عُذْراً لِقاعِدِ [2]

أَترْعُمُ أن الخارجىَّ على الهُدَى ... وأنت مُقيمٌ بين لصٍّ وجاحِدِ ؟

فكتب إليه أبو خالد :

« لقد زاد الحياةَ إلىّ حُبًّا ... بناتِى إنهن من الضِّعافِ

أُحاذِرُ أن يَرَيْنَ الفقر بعدى ... وأن يشربْنَ رَنْقاً بعد صافى [3]

وأن يَعْرَيْنَ إن كَسِىَ الجوارى ... فتنبُو العَيْنُ عن كَرَمٍ عِجافِ [4]

ولولا ذاك قد سَوَّمت مُهْرِى ... وفى الرحمن للضُّعفاء كَافى [5]

أبانَا ، مَنْ لنا إن غِبْتَ عنا ... وصار الحىُّ بعدك فى اختلافِ ؟ »

(الكامل للمبرد ٢ : ١٢١)

١٨١ — كتاب قطرى الى سبرة بن الجعد

وروى المسعودى فى مروج الذهب أيضا قال :

واتخذ الحجاجُ سَبْرَةَ بن الجَعْد الشيْبانىّ سميرا ، فلم يكُ يطلب شيئا من

---

(١) نسبة إلى قنان كسحاب : وهو جبل لأسد .

(٢) بالتنبيه ، ونفر للقتال كضرب : ذهب . (٣) الرنق : الكدر .

(٤) يقال : رجل كرم : أى كريم ، وكذا المؤنث والجمع لأنه مصدره ، وعجاف جمع عجفاء ، وهى المهزولة . (٥) سومت : أرسلت .

الحديث إلا وجد عنده منه عِلْماً ، وكان يَرَى رَأْيَ الخوارج من أصحاب قَطَرِيّ بن الفُجاءة التميمى (والفُجاءة أمه، وكانت من بنى شَيْبان ، وإنما هو رجل من تميم) وكان قطرى يومئذ يحارب المهلَّبَ ، فبلغ قطريّا مكانُ سَبْرَةَ من الحجاج ، فكتب إليه بأبيات منها :

لَشَتَّانَ ما بين ابنِ جَعْدٍ وبينَنا ... إذا نحن رُحْنا فى الحديد المُظاهَرِ[1]

نُجاهِدُ فُرْسانَ المهلَّب ، كلُّنا ... صَبورٌ على وَقْع السيوفِ البواتِرِ

وراح يَجُرُّ الخزَّ عند أميره ... أميرٌ بتقْوَى ربِّه غيرُ آمِرِ

أَبا الجَعْد، أين العِلْمُ والحِلْمُ والنُّهَى ... ومِيراثُ آباءٍ كِرامِ العناصِرِ[2]

ألم تَرَ أن الموت لا شكّ نازلٌ ... ولا بدَّ من بعثِ الألَى فى المقابر

حُفاةً عُراةً والترابُ لديهِمُ ... فمِن بين ذى ربحٍ وآخَرَ خاسِرِ

فإنّ الذى قد نِلْتَ يَفْنَى ، وإنما ... حَياتُك فى الدنيا كوَقْعَةِ طائرِ

فراجِعْ أبا جَعْدٍ، ولا تكُ مُغْضِياً ... على ظُلْمَةٍ أَعْشَتْ جميعَ النواظِرِ

وتُبْ تَوبةً تُهْدِى إليك شهادةً ... فإنك ذو ذنبٍ ولستَ بكافر

وسِرْ نحوَنا تلقَ الجِهادَ غنيمةً ... تُفِدْك ابتياعاً رابحاً غَيْرَ خاسِر

هى الغايةُ القُصْوَى الرَّغِيبُ ثوابُها ... إذا نال فى الدنيا الغِنَى كلُّ تاجر[3]

فلما قرأ كتابه بكى ، وركب فرسه ، وأخذ سلاحه ، ولَحِق بقطرى ، وطلبه الحجاج فلم يقدر عليه .

---

(١) عنى بالحديد الدرع ، وظاهر الدرع : لأم بعضها على بعض ، وظاهر بين درعين : طابق وجمع ولبس إحداهما فوق الأخرى ، ومثله قول ورقاء بن زهير :

فشلت يمينى يوم أضرب خالدا ... ويمنعه منى الحديد المظاهر

(٢) النهى : العقل ، وهو يكون جمع نهية (كغرفة) أيضا ، وهى العقل .

(٣) الرغيب ثوابها : أى المرغوب فى ثوابها .

١٨٢ — كتاب سبرة بن الجعد إلى الحجاج

ولم يَرُعِ الحجاجَ إلا كتاب قد بَدَر منه فيه شعر قطرى الذى كان كتب به إليه ، وفى أسفل الكتاب إلى الحجاج أبيات منها :

فَمَن مُبْلِغُ الحَجَّاجِ أنَّ سَمِيرَه ... قَلَى كُلَّ دينٍ غيرَ دينِ الخوارجِ[1]؟
رَأَى الناسَ (إلا مَنْ رَأَى مثلَ رأيِه) ... مَلاعِينَ ترَّاكِينَ قَصْدَ المَخارجِ[2]
فأَقبلتُ نحوَ اللّهِ بالله واثِقاً ... وما كُرْبتى غـيرُ الإله بفارج
إلى عُصْبَةٍ أمَّا النهارَ فإنهم ... هم الأُسْدُ أُسْدُ الغِيلِ عند التهايُجِ[3]
وأمَّا إذا ما الليل جَنَّ فإنهمْ ... قِيامٌ بأنواح النساء النواشِجِ[4]
ينادُون للتحكيم ، تاللّهِ إنهم ... رأَوا حُكْمَ عَمْرٍو كالرياح الهَوائِجِ[5]
وحُكْمَ ابنِ قيسٍ مثلَ ذاك فأُعْصِموا ... بحبلٍ شـديد المَتْنِ ليس بناهِجِ[6]

فطرح الحجاج هذا الكتاب إلى عَنْبَسَة بن سعيد ، فقال : هـذا من سمبرنا الشيبانى ، وهو من الخوارج ولا نعلم به ! (مروج الذهب ٢ : ١٣٨)

---

(١) قلاه كرماه ورصيه : أبغضه وكرهه غاية الكراهة فتركه .

(٢) القصد : استقامة الطريق . (٣) الغيل بالكسر : الشجر الكثير الملتف ، ويفتح .

(٤) جن الليل : أقبل . والنواشج : جمع ناشجة ، نشج الباكى كضرب نشيجا : غص بالبكاء فى حلقه من غير انتحاب .

(٥) ينادون للتحكيم : كان شعار الخوارج : «لاحكم إلا لله» ولذا سموا «المحكمة» ، وعمرو : هو عمرو بن العاص .

(٦) ابن قيس هو أبو موسى الأشعرى واسمه عبد الله بن قيس ، وأعصمه : هيأ له شيئا يعتصم به . ونهج الثوب والحبل مثلثة الهاء : بلى .

١٨٣ — كتاب الحجاج إلى قطرى بن الفجاءة

وروى أبو العباس المبرِّد فى الكامل قال :

قال الحجاج يوما لِعَمائرِ(١) العرب ، وهم فى مجلسه : ما أحسب هذا المَزُونِىّ(٢) يناصِحُنا فى حربنا - يعنى المهلَّبَ - والرأىُ مشترك ، فقالوا : الرأى للأمير - أصلحه الله - أن يكتب إلى ابن الفُجاءة بإطعامه بعض الأرضِين ، فإذا هو نَخَعَ(٣) بطاعته ، وأظهر الدعوة له ، سَهُلت الحيلةُ فيه ، فقال : وفَّقكم الله ، وكتب إلى ابن الفجاءة ، وأنفذه على يد الغَضْبان ابن القَبَعْثَرَى الشَّيْبانى ، ونسخة الكتاب :

«بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحجاج بن يوسف إلى قطرى بن الفجاءة ، سلام عليك ، المُوَحَّد اللهُ ، والمصلَّى عليه محمد عليه السلام ، أما بعد ، فإنك كنت أعرابيا بَدَوِيًّا ، تستطعِم الكِسْرَةَ ، وتَخِفُّ إلى التمرة ، ثم خرجت تحاول ما ليس لك بحق ، واعترضت على كتاب الله ، ومَرَقْتَ من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارجع عما أنت عليه بما زُيِّن لك ، وادْعُنى فقد آن لك » .

---

(١) العمائر: جمع عمارة بالفتح والكسر ، وهى أصغر من القبيلة ، وطبقات النسب ست ، أعلاها : الشعب بالفتح ، وهو جمع القبائل ، ثم القبيلة وجمع العمائر ، ثم العمارة وجمع البطون ، ثم البطن وجمع الأفخاذ ، ثم الفخذ وجمع الفصائل ، ثم الفصيلة ، فخزيمة مثلا شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصى بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة .

(٢) نسبة إلى مزون كصبور ، وهى قرية من قرى عمان (كغراب) باليمن ، كان يسكنها اليهود والملاحون ليس بها غيرهم ، وكان الفرس يسمون عمان المزون ، وكان أزد عمان — وهم رهط المهلب — يكرهون أن يسموا المزون .

(٣) نخع له نخعه كمنع : أقر (ونخع بالحق أيضا . أقر به وخضع له) .

فلما أوصل الغضبان الكتاب إلى قَطَرِىّ ، قال : يا غلام ، أُزْبُرْ[١] هذه الصحيفَة ، فتلا عليه ما فيها ، فتنهَّد قطرى الصُّعَداء[٢] ، فقال : يا غضبان ألفيتَنى محزونا، وأنشأ يقول:

فيا كَبِدَا من غير جوع ولا ظَمَا ... وواكبدَا من وَجْدِ أم حَكِيمِ
فلوشَهِدَتْنِى يوم دُولابَ أبصرتْ ... طِعانَ فتًى فى الحرب غير لئيمِ[٣]
غَدَاةَ طفَتْ عَلْماءِ بكرُ بن وائلٍ ... وعُجْنا صدورَ الخيل نحو تميمِ[٤]
وكان بعبد القيس أوّلُ حَدِّنا ... وآبَ عَمِيدُ الأزد غيرَ ذميمِ

يعنى المهلب — وأم حكيم هذه : امرأة من الخوارج قُتِلَتْ بين يديه[٥] — ثم قال : يا غلام اكتب :

---

(١) زبر الكتاب (وذبره أيضا) قرأه .

(٢) الصعداء : تنفس طويل .

(٣) دولاب : قرية بينها وبين الأهوازأربعة فراسح، وقعت فيها وقعة بينأهل البصرة بقيادة مسلم ابن عنيس وبين الأزارقة بقيادة نافع بن الأررق ، وقتل ابن عنيس وابن الأزرق فى المعركة (سنة ٦٥ هـ) انظر هامش ص ١٠٦ .

(٤) علماء : أى على الماء ، قال المبرد « إن العرب إدا التفت فى مثلهذا الموضع لامان استجازوا حذف إحداهما استثقالا للتضعيف ، لأن مابقى دليل على ماحذف ، وكذلك كل اسم من أسماء القبائل تظهر فيه لام المعرفة ، فإنهم يجيزون معه حذف النون التى فى قولك بنو لقرب مخرج النون من اللام وذلك قولك فلان من بلحارث وبلعنبر وبلهجيم » — الكامل ٢ : ١٨٣ — وعجنا : عطفنا .

(٥) روى أبو الفرج الأصبهانى عن ميمون بن هرون قال : « حدثت أن امرأة من الخوارج كانت مع قطرى بن الفجاءة يقال لها أم حكيم ، وكانت من أشجع الناس وأجملهم وجها ، وأحسنهم بدينهم تمسكا ، وخطبها جماعة منهم فردتهم ولم تجب إلى ذلك ، فأخبرنى من شهدها أنها كانت تحمل على الناس وترتجز :

أحمل رأسا قد سئمت حمله ... وقد مللت دهنه وغسله
ألا فتى يحمل عنى ثقله ؟

قال : وهم يفدونها بالآباء والأمهات ، فما رأيت قبلها ولا بعدها مثلها — الأغانى ٦ : ٦ .

١٨٤ — رد قطرى بن الفجاءة على الحجاج

« بسم ٱلله الرحمن الرحيم ، من قَطَرِىّ بن الفُجاءة إلى الحجاج أبن يوسف ، سلام على من اتَّبَع الهدى ، ذكرتَ فى كتابك أنى كنت بدويا أستطعِمُ الكِسْرَة ، وأبدُرُ[1] إلى التمرة ، وبٱلله لقد قلتَ زُورا ، بل ٱلله بصَّرَنِى من دينه ما أعماك عنه ، إذ أنت سائح فى الضَّلالة ، غَرِق فى غَمَرات الكفر ، وذكرتَ أن الضرورة طالت بى ، فهلا برزلى من حزْبك مَن نال الشِّبَع ، واتكأ فاتَّدَع[2] ؟ أَمَا وٱلله لئن أبرز ٱللهُ صَفْحَتك ، وأظهر لى صُلْعَتك[3] لَتُنْكِرَنَّ شِبَعك ، ولَتَعلَمَنَّ أن مُقارعة الأبطال ، ليس كتسطير الأمثال » . (الكامل للمبرد ١ : ١٨٠)

وروى الجاحظ فى البيان والتبيين هـــذين الكتابين بصورة أخرى قال :

صورة أخرى لكتاب الحجاج إلى قطرى

كتب الحجاج بن يوسف إلى قطرى بن الفجاءة :

« سلام عليك ، أما بعدُ ، فإنك مَرَقْت من الدين مُرُوقَ السهم من

---

(١) بدر إليه : عجل إليه واستبق .
(٢) اتدع وودع : سكن واستقر .
(٣) الصلعة بالضم والصلعة بالتحريك : موضع الصلع من الرأس .

الرَّمِيَّة[١] ، قد علِمتَ ـ حيثُ تَجرْثَمتَ[٢] ذلك ـ أنَّك عاصٍ لله ولُولاة أمره ، غير أنك أعرابى جِلْف[٣] أُمِّىّ ، تستطعِم الـكِسْرَة ، وتشتفى بالتَّمرة ، والأمورُ عليك حسرة ، خرجت لتناول شَبْعة ، فلَحِق بك طَغَامٌ[٤] صَلُوا بمثل ما صَلِيتَ به من العيش ، يَهُزُّون الرماح ، ويستنشِئون[٥] الرياح ، على خوف وجَهْد من أمورهم ، وما أصبحوا ينتظرون أعظمُ ممـا جَهِلوا معرفته ، ثم أهلـكهم الله بنَزْحَتَين والسلام » .

صورة أخرى لرد قطرى عليه

فأجابه قَطَرِىُّ بن الفجاءة :

« من قطرى بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف ، سلام على الهُداة من الُولاة ، الذى يَرْعَوْن حَرِيمَ اللهِ ، ويَرهَبون نِقَمه ، فالحمد لله على ما أظهر من دينه ، وأظْلع[٦] به أهلَ السَّفالة ، وهَدَى به من الضلالة ، ونصر به عند استخفافك بحقه .

كتبتَ إلىّ تذكر أنى أعرابى جِلْف أمى ، أستطعم الـكِسْرَة ، وأشتفى بالتمرة ، ولعمرى ياأبنَ أمِّ الحجاج إنك لميِّت فى جِبِلَّتك ،

---

(١) الرمية : مارمى .

(٢) تحرثم الشىء : أخذ معظمه .

(٣) الجلف : الجافى . (٤) الطغام : أوغاد الناس ، وصلى النار وبها : قاسى حرها . والمعنى أنهم قاسوا من شظف العيش ماقاسيت .

(٥) أى يتسممونها ، والذئب يستنشئ الريح أى يتشممها ، ونشيت الريح غير مهموز أى شممتها ، والاستنشاء يهمز ولا يهمز ، ومنه فلان يستنشئ الأخبار : أى يبحث عنها ويتتبعها .

(٦) من ظلع البعير كمنع : غمز فى مشيه .

مُطْلَخِمّ[1] فى طريقتك، وَاهٍ فى وثيقتك، لا تعرف الله ولا تجزع فى خطيئتك، يئستَ واستيأستَ من ربك، فالشيطان قَرِينُك لا تجاذبه وِثاقَك[2]، ولا تُنازعه خِناقَك[3]، فالحمد لله الذى لوشاء أبرزلى صَفْحتك، وأوضح لى طَلْعتك[4]، فوالذى نفس قطرى بيده لعَرَفْتَ أن مُقارعة الأبطال ليس كتصدير المقال، مع أنى أرجو أن يُدْحِض اللهُ حجتَك، وأن يُمْتِعَنى بمهجتك[5].

(البيان والتبيين ٢ : ١٦٥)

١٨٥ — كتاب عبد الملك إلى الحجاج

قال الطبرى :

ولما صارت فارس كلها فى يَدَى المهلب، بعث الحجاج عليها عماله[6] وأخذها من المهلب، فبلغ ذلك عبد الملك، فكتب إلى الحجاج :

«أما بعدُ فَدَعْ بيد المهلب خراج جبال فارس، فإنه لابد للجيش من

---

(١) اطلخم الرجل : تكبر، واطلخم الليل : أظلم .

(٢) الوثاق بالفتح ويكسر : ما يشد به .

(٣) الخناق بالكسر : الحبل يخنق به .

(٤) الظاهر أنها «صفحتك» كما تقدم .

(٥) فى الأصل «بهجتك» ولكن الذى فى كتب اللغة أن الفعل يتعدى إلى الثانى بالباء، يقال : أمتعه بالشىء ومتعه : ملاه إياه .

(٦) وقال المبرد : «وولى الحجاج كرداً فارس، فكتب المهلب إلى الحجاج يسأله أن يجافى له عن اصطخر ودرابجرد لأرزاق الجند ففعل، وكان قطرى هدم مدينة إصطخر لأن أهلها كانوا يكاتبون المهلب بأخباره وأراد مثل ذلك بمدينة فسا فاشتراها منه آزادمرد بن الهربذ بمائة ألف درهم فلم يهدمها» — الكامل للمبرد ٢ : ٢٢٥ — .

قوة ، ولصاحب الجيش من معونة ، ودع له كُورة فَسَا وَدَرَا بجِرْدَ[١] وكورة إِصْطَخْرَ » .

فتركهما للمهلب ، فبعث المهلب عليهما عماله ، فكانت له قوة على عدوه وما يصلحه . (تارخ الطبرى ٧ : ٢٦٩)

١٨٦ — كتاب المهلب الى الحجاج

ولما وقع الاختلاف بين الأزارقة وخلعوا قَطَرِيَّ بن الفُجاءة ، وولّوا عبد ربّه الكبير[٢] ، كتب المهلب إلى الحجاج :

« أما بعدُ فإن الله قد ألْقَى بأسَ الخوارج بينهم ، فخَلَع عُظْمهم[٣] قَطَرِيّا وبايعوا عبد ربه الكبير ، وبقيَتْ عِصابةٌ منهم مع قطرى ، فهم يقاتل بعضُهم بعضًا غُدُوّا وعَشِيّا[٤] ، وقد رجوتُ أن يكون ذلك من أمرهم سببَ هلاكهم إن شاء الله ، والسلام » .

---

(١) درا بجرد : كورة بفارس ، وفسا : أكبر مدن تلك الكورة .

(٢) هكذا فى تارخ الطبرى ، وفى الكامل للمبرد أنهم ولوا عبد ربه الصغير — ج ٢ : ص ٢٢٦ — قال ابن أبى الحديد : «وكان عبد ربه الصغير معلم كتاب ، وكان عبد ربه الكبير بائع رمان ، وكلاهما من موالى قيس بن ثعلبة » م ١ : ص ٤٠٣ .

ولما وهى أمر قطرى توجه إلى طبرستان ، فوجه الحجاج إليه سفيان بن الأبرد فى جيش من أهل الشأم ، فسار فى طلبه حتى لحقوه فى شعب من شعاب طبرستان ، فقاتلوه فتفرق عنه أصحابه ، ووقع عن دابته فى أسفل الشعب ، فتدهدى حتى خر إلى أسفله ، وأتاه حيث تدهدى علج من أهل البلد ، فحدر عليه حجرا عظيما من فوقه ، فأصاب إحدى وركيه ، وصاح بالناس فجاءوا إليه فقتلوه سنة ٧٧ هـ .

(٣) عظم الأمر بالضم والفتح : معظمه .

(٤) أى أول النهار وآخره .

١٨٧ — رد الحجاج على المهلب

فكتب إليه الحجاج :

« أما بعدُ ، فقد بلغنى كتابك تذكُرُ فيه اختلافَ الخوارج بينها ، فإذا أتاك كتابى هذا فناهِضْهم على حال اختلافهم وافتراقهم قبل أن يجتمعوا ، فتكون مُؤْنَتُهم[١] عليك أشدَّ والسلام » :

١٨٨ — رد المهلب على الحجاج

فكتب إليه المهلب :

« أما بعد ، فقد بلغنى كتابُ الأمير ، وكلَّ ما فيه قد فهمتُ ، ولستُ أرى أن أقاتلهم ماداموا يَقْتُل بعضُهم بعضا وينقُصُ بعضُهم عددَ بعض ، فإن تَمُّوا[٢] على ذلك فهو الذى نريد ، وفيه هلاكُهم ، وإن اجتمعوا لم يجتمعوا إلا وقد رقَّق[٣] بعضُهم بعضا ، فأُناهِضُهم على تَفِئَةِ[٤] ذلك ، وهم أهونُ ما كانوا ، وأضعفُه شوكةً إن شاء الله والسلام »[٥] فكف عنه الحجاج .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٧)

---

(١) المؤنة : الثقل وفيها لغات : مئونة بفتح الميم كركونة ، ومؤنة كغرفة ، ومونة كسورة .

(٢) يقال : تم على الأمر وتمم عليه باظهار الإدغام : أى استمر عليه .

(٣) رققه : جعله رقيقا . والمعنى أضعف بعضهم بعضا .

(٤) على تفئة ذلك : أى على إثره ، وحكى فيه الهمز والبدل .

(٥) وهاك كلمة عما شجر بين الأزارقة من الخلاف والشقاق ، وكان بعض ذلك من كيد المهلب وعظيم دهائه . قال أبو العباس : « وكان سبب اختلافهم أن رجلا حدادا من الأزارقة كان يعمل نصالا مسمومة ، فيرمى بها أصحاب المهلب ، فرفع ذلك إلى المهلب ، فقال : أنا أكفيكموه إن شاء الله فوجه رجلا من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر قطرى ، فقال : ألق هذا الكتاب فى عسكر قطرى

. . . .

واحذر على نفسك ، وكان الحداد يقال له « أبزى » فضى الرسول ، وكان فى الكتاب : « أما بعد ، فإن نصالك قد وصلت إلىّ ، وقد وجهت إليك بألف درهم ، فاقبضها ، وزدنا من هـذه النصال » فوقع الكتاب والدراهم إلى قطرى ، فدعا بأبزى ، فقال : ماهذا الكتاب ؟ قال : لا أدرى ، قال : فهذه الدراهم ؟ قال : ما أعلم علمها ، فأمر به فقتل ، فجاءه عبد ربه الصغير مولى بنى قيس بن ثعلبة فقال له : أقتلت رجلا على غير ثقة ولا تبين ! فقال له : ماحال هـذه الدراهم ؟ قال : يجوز أن يكون أمرها كذبا ، ويجوز أن يكون حقا ، فقال له قطرى : قتل رجل فى صلاح الناس غـير منكر ، وللامام أن يحكم بما رآه صلاحا. وليس للرعية أن تعترض عليه ،فتنكر له عبد ربه فى جماعة ولم يفارقوه ، فبلغ ذلك المهلب فدس إليه رجلا نصرانيا فقال له : إذا رأيت قطريا فاسجد له ، فاذا نهاك فقل : إنما سجدت لك ، ففعل النصرانى ، فقال له قطرى : إنما السجود لله ، فقال : ما سجدت إلا لك ، فقال له رجل من الخوارج : قد عبدك من دون الله وتلا : « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ » فقال قطرى : إن هؤلاء النصارى قد عبدوا عيسى بن مريم فما ضر ذلك عيسى شيئا ، فقام رجل من الخوارج إلى النصرانى فقتله ، فأنكر ذلك عليه وقال : أقتلت ذميا ، (وكانوا يوصون بالنصرانى خيرا ويقولون : احفظوا ذمة نبيكم) فاختلفت الكلمة .

فبلغ ذلك المهلب ، فوجه إليهم رجلا يسألهم عن شىء تقدم به إليه ، فأتاهم الرجل فقال : أرأيتم رجلين خرجا مهاجرين إليكم ، فمات أحدهما فى الطريق ، وبلغكم الآخر ، فامتحنتموه فلم يجز المحنة ماتقولون فيهما ؟ فقال بعضهم : أما الميت فمؤمن من أهل الجنة ، وأما الآخر الذى لم يجز المحنة فكافر حتى يجيزها ، وقال قوم آخرون : بل هما كافران حتى يجيزا المحنة ، فكثر الاختلاف ، فخرج قطرى إلى حدود إصطخر فأقام شهرا والقوم فى اختلافهم . ثم أقبل ، فقال لهم صالح بن مخراق : ياقوم إنكم قد أقررتم أعين عدوكم ، وأطمعتموهم فيكم ، لما ظهر من اختلافكم ، فعودوا إلى سلامة القلوب واجتماع الكلمة ، وخرج عمرو القنا فنادى : يأيها المحلون ، هل لكم فى الطراد فقد طال العهد به ؟ فتهايج القوم وأسرع بعضهم إلى بعض » ــ الكامل للمبرد ٢ : ٢٢١ ــ وقال أيضا :

« فحاربهم المهلب حتى نفاهم إلى جيرفت (وهى مدينة كبيرة من أعيان مدن كرمان ، وكرمان إقليم بين فارس وسجستان) واتبعهم فنزل قريبا منهم واختلفت كلمتهم . وكان سبب ذلك أن عبيدة بن هلال اليشكرى اتهم بامرأة رجل حداد ، رأوه مرارا يدخل منزله بغير إذن ، فأتوا قطريا فذكروا ذلك له ، فقال لهم : إن عبيدة من الدين بحيث علمتم ، ومن الجهاد بحيث رأيتم ، فقالوا : إنا لانقارّه على الفاحشة ، فقال : انصرفوا ، ثم بعث إلى عبيدة فأخبره وقال : إنا لانقارّ على الفاحشة . فقال : بهتونى يا أمير المؤمنين (أى ادعوا علىّ مالم أفعل) فما ترى ؟ قال : إنى جامع بينك وبينهم ، فلا تخضع خضوع المذنب ، ولا تتطاول تطاول البرىء ، فجمع بينهم فتكلموا ، فقام عبيدة فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ... الآيات » فبكوا وقاموا إليه فاعتنقوه ، وقالوا : استغفر لنا ، ففعل ، فقال لهم عبد ربه الصغير : والله لقد خدعكم ، فبايع عبد ربه منهم ناس كثير لم يظهروا ولم يجدوا على عبيدة فى إقامة الحد ثبتا .

١٨٩ — كتاب الحجاج إلى المهلب

وكتب الحجاج إلى المهلب يستحثه مع عُبَيْدِ بن مَوْهَب، وفي الكتاب :

« أما بعدُ ، فإنك تتراخَى عن الحرب ، حتى يأتيك رُسُلِي ، فيرجعون بعُذرك ، وذلك أنك تُمْسِك حتى تَبْرَأَ الجِراح ، وتُنْسَى القَتْلَى ، ويَجُمَّ (١) الناس ، ثم تلقاهم ، فتحتمِل منهم مِثْلَ ما يحتملون منك من وَحْشَةِ القَتْل وَأَلَمِ

وكان قطرى قد استعمل رجلا من الدهاقين (جمع دهقان بكسر الدال وضمها وهو رئيس الاقليم وزعيم فلاحى العجم) فظهرت له أموال كثيرة فأتوا قطريا فقالوا : إن عمر بن الخطاب لم يكن يقارّ عماله على مثل هذا ، فقال قطرى : إنى استعملته وله ضياع وتجارات ، فأوغر ذلك صدورهم ، وبلغ ذلك المهلب فقال : إن اختلافهم أشد عليهم منى .

وقالوا لقطرى : ألا تخرج بنا إلى عدونا ؟ فقال : لا ، ثم خرج ، فقالوا : قد كذب وارتد (وكانت الخوارج فى جميع أصنافها تبرأ من الكاذب ، ويرى بعضهم أن الكذبة الخفيفة على سبيل المزاح شرك بالله) فاتبعوه يوما ، فأحس بالشر ، فدخل دارا مع جماعة من أصحابه ، فصاحوا به : يادابة اخرج إلينا ، فخرج إليهم فقال : رجعتم بعدى كفارا ، فقالوا : أو لست دابة ! قال الله عزّ وجلّ : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا » ولكنك قد كفرت بقولك : إنا قد رجعنا كفارا ، فتب إلى الله عزّ وجلّ ، فشاور عبيدة فقال : إن تبت لم يقبلوا منك ، ولكن قل : إنما استفهمت فقلت : أرجعتم بعدى كفارا ؟ فقال ذلك لهم ، فقبلوه منه ورجع إلى منزله .

وعزم أن يبايع المقعطر العبدى ، فكرهه القوم وأبوه فقال له صالح بن مخراق عنه وعن القوم : ابغ لنا غير المقعطر ، فقال قطرى : أرى طول العهد قد غيركم ، وأنتم بصدد عدوكم ، فاتقوا الله وأقبلوا على شأنكم واستعدوا للقاء القوم ، فقال له صالح بن مخراق : إن الناس قبلنا ساموا عثمان بن عفان أن يعزل عنهم سعيد بن العاص (انظر الجزء الأول ص٣٠٦) ففعل. ويجب على الإمام أن يعفى الرعية مما كرهت ، فأبى قطرى أن يعزله ، فقال له القوم : إنا خالعناك ووليناً عبد ربه الصغير ، فانفصل إلى عبد ربه أكثر من الشطر وجلهم الموالى والعجم » الكامل ٢ : ٢٢٥ .

وقال الطبرى :

« وخرج رجل منهم كان عاملا لقطرى على ناحية من كرمان فى سرية لهم يدعى المقعطر من بنى ضبة فقتل رجلا قد كان ذا بأس من الخوارج ودخل منهم فى ولاية فقتله المقعطر ، فوثب الخوارج إلى قطرى فذكروا له ذلك ، وقالوا : أمكنا من الضبى نقتله بصاحبنا ، فقال لهم : ما أرى أن أفعل ، رجل تأول فأخطأ فى التأويل ، ما أرى أن تقتلوه ، وهو من ذوى الفضل منكم والسابقة فيكم ، قالوا : بلى قال لهم : لا ، فوقع الاختلاف بينهم فولوا عبد ربه الكبير وخلعوا قطريا ، وبايع قطريا منهم عصابة نحو من ربعهم أو خمسهم ، فقاتلهم نحوا من شهر غدوة وعشية » — تاريخ الطبرى ٧ : ٢٧ — .

(١) أى تستريح وتسترجع نفوسهم وتعود إليهم نشاطهم ، من جمّ الماء يجم بالضم والكسر جموما : أى كثر واجتمع ، والبئر تراجع ماؤها ، والفرس جماما بالفتح : ترك الضراب فتجمع ماؤه ، وجما وجماما : ترك فلم يركب فعفا من تعبه .

الجِراح ، ولو كنت تلقاهم بذلك الجِدِّ لـكان الداء قد حُسِم ، والقَرْنُ [١] قد قُصِم ، ولعمرى ماأنت والقومُ سَواء ، لأن من ورائك رجالا ، وأمامَك أموالا ، وليس للقوم إلا مامعهم ، ولا يُدْرَك الْوَجِيفُ بِالدَّبِيب [٢] ، ولا الظَّفَر بِالتَّعْذِير [٣] » .

١٩٠ — رد المهلب على الحجاج

فكتب المهلب إليه :

أما بعدُ ، فإنى لم أُعْطِ رُسُلَك على قول الحق أَجْرًا ، ولم أَحْتَجْ منهم مع المشاهدة إلى تَلْقِينٍ ، ذكرتَ أنى أُجِمُّ [٤] القومَ ، ولا بدَّ من راحة يستريح فيها الغالب ، ويحتال فيها المغلوبُ ، وذكرتَ أن فى ذلك الجَمامِ مايُنْسِي القَتْلَى ، وَتبْرَأُ منه الجِراح ، وهيهاتَ أن يُنْسَى مابيننا وبينهم ، تأبَى ذلك قَتْلَى لم تُجَنّ [٥] ، وقُرُوحٌ لم تتقرَّفْ ، ونحن والقوم على حالة وهم

(١) يصح أن يكون « القرن » بالفتح ، وهو الجانب الأعلى من الرأس : أى قصمت قرن الأعداء كما يقال كسر شوكتهم ، وأن يكون بالكسر وهو الكفء فى الشجاعة أو عام وهو الأظهر لما يشير إليه كلام المهلب الآتى .

(٢) الوجيف : ضرب من سير الخيل والإبل .

(٣) التعذير : التقصير فى الأمر .

فلما جاء المهلب هذا الكتاب قال لأصحابه : إن الله عزّ وجلّ قد أراحكم من أقران أربعة : قطرى ابن الفجاءة وصالح بن مخراق وعبيدة بن هلال وسعد الطلائع ، وإنما بين أيديكم عبد ربه فى خشار من خشار الشيطان تقتلونهم إن شاء الله (والخشار والخشارة بضم الخاء : الردىء من كل شىء ، وسفلة الناس) فكانوا يتعادون القتال ويتراوحون ، فتصيبهم الجراح ، ثم يتحاجزون ، كأنما انصرفوا من مجلس كانوا يتحدثون فيه ، فيضحك بعضهم إلى بعض ، فقال عبيد بن موهب للمهلب : قد بان عذرك وأنا مخبر الأمير .

(٤) من أجم الماء : أى تركه يجتمع .

(٥) أجنه : كفنه ، أى قتلى دفنت دون أن تكفن ، وفى رواية « قتل من لم يجن » ونعرفت

يرقُبون منا حالات ، إن طمِعوا حاربوا ، وإن مَلُّوا وقفوا ، وإن يئسوا انصرفوا ، وعلينا أن نقاتلهم إذا قاتلوا ، ونتحرّز إذا وقفوا ، ونطلبَ إذا هرَبوا ، فإن تركتَنى والرأىَ ، كان القرن مَقْصوما ، والداء بإذن الله محسوما ، وإن أعجَلْتَنِى لم أُطِعْك ولم أَعْصِ ، وجعلتُ وجهى إلى بابك ، وأنا أعوذ بالله من سخط الله ومقت الناس » .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢٢٧ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤٠٣
ونهاية الأرب ٧ : ٢٤٨ ، وصبح الأعشى ٦ : ٥٥٩)

١٩١ — كتاب المهلب إلى الحجاج

ولما تمت الغَلَبة للمهلب على الأزارقة ، وقُتِل آخر زعمائهم عَبْدُ ربه الصغير سنة ٧٨ هـ أوفد المهلب إلى الحجاج كَعْب بن مَعْدانَ الأَشْقَرِىّ ومُرَّة ابن تِليد الأَزْدِىّ ليخبراه بالفتح ، وكتب إليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الكافِى بالإسلام فَقْدَ ما سواه ، المعجِّل النِّقمة لمن بغاه ، الذى حَكَمَ بأن لا ينقطعَ المزيدُ منه حتى ينقطع الشكرُ من عِباده [1] ، أما بعدُ :

فقد كان من أمرنا ما قد بَلَغَك [2] ، وكنا نحن وعدوُّنا على حالين مختلفَيْن . يسرُّنا منهم أكثرُ مما يسوءنا ، ويسوءهم منا أكثرُ مما يسرهم ،

الفرحة : تقشرت ، وذلك اذا يبست : أى وقروح لم تبرأ ، وفى صبح الأعشى « لم تعرق » وهو تحريف .

(١) وفى أدب الكتاب : « الذى يريد من شكره ، ويررق من كفره » .

(٢) وفيه : « فقد كان من أمرنا ما أغنت جملته عن تفصيله ، وكنا نحن وعدونا فى مدة هذا التنازع على حالتين ... » .

على اشتداد شوكتهم ، واجتماع كلمتهم ، وانزعاج القلوب لمخافتهم ، فقد كان عَلَنَ[١] أمْرُهم ، حتى ارتاعت له الفتاةُ ، ونُوِّم بذكرهم الرَّضيعُ ، وصُمَّ لخوفهم السَّميع ، فانتهزتُ منهم الفرصةَ في وقت إمكانها ، وأدنيتُ السَّوادَ[٢] من السواد حتى تعارفت الوجوهُ ، فلم نزل كذلك حتى بَلَغ الكِتابُ[٣] أجله ، فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا والحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢٣٢ وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٠٧ وسرح العيون ص ١٣٥ وأدب الكتاب ص ٢٣٥)

١٩٢ — رد الحجاج على المهلب

فكتب إليه الحجاج :

« أما بعدُ فإن الله عز وجل قد فعلَ بالمسلمين خيرا ، وأراحهم من حَدِّ الجهاد ، وكنتَ أعلَمَ بما قِبَلك ، والحمد لله رب العالمين ، فإذا ورد عليك كتابي هذا ، فاقسم في المجاهدين فَيْئَهم ، ونَفِّل[٤] النَّاسَ على قدر بَلائهم ، وفَضِّل من رأيتَ تفضيلَه ، وإن كانت بقيَتْ من القوم بَقِيَّةٌ فخلِّف خيلا تقوم بإزائهم ، واستعمل على كَرْمَان[٥] من رأيتَ ، وولِّ الخيلَ شهما من ولدك ، ولا ترخِّصْ لأحدٍ في اللَّحاق بمنزله دون أن تَقْدَم بهم عليَّ ، وعجِّل القدومَ إن شاء الله » .

---

(١) علن الأمر كنصر وضرب وكرم وفرح علنا بالتحريك وعلانية واعتلن : ظهر .

(٢) السواد : العدد الكثير ، ومن الناس عامتهم .

(٣) وفي أدب الكتاب . « فانتهزت منهم الفرصة عند إمكانها ، بعد أن تنظرت وقت إبانها ، واستدعى النهل عالله ، وبلغ الكتاب أجله ، فقطع . . . » .

(٤) النفل بالتحريك : الغنيمة ، ونفله النفل ونفّله بالتشديد وأنفله : أعطاه إياه .

(٥) إقليم بين فارس وسجستان .

فولى المهلب ابنه يزيد كرمان ، وقَدِم على الحجاج فأجلسه إلى جانبه وأظهر إكرامه وبرّه ، وقال : يأهل العراق أنتم عبيد المهلب .

وكان أُمَيَّة بن عبد الله بن خالد بن أَسِيد عاملا على خُراسان وسِجِسْتَان ، فعزله عبد الملك سنة ٧٨ هـ وجمع سلطانه للحجاج ، فبعث المهلَّبَ على خراسان ، وعُبيد الله بن أبي بَكْرَةَ على سِجِسْتَان .

(الكامل للمبرد ٢ : ٢٣٢ ، وشرح ابن أبي الحديد م ١ : ص ٤٠٧ ، وسرح العيون ص ١٣٥)

حروب الخوارج الشبيبية

١٩٣ — كتاب شبيب بن يزيد إلى صالح بن مسرح

وفى سنة ٧٦ هـ تحرك صالح بن مُسَرَّح[1] زعيم فرقة الصالحية - إحدى فرق الخوارج الصُّفْرية[2] - وكان بِدَارَا[3] وأرضِ المَوْصِل والجزيرة ، له أصحاب يُقْرِئهم القرآن، ويفقّهم، ويقصّ عليهم، فحرّضهم على الخروج محتجّا بأن الجَوْر قد فَشَا ، وأن العدل قد عَفَا ، وأن الوُلاة لا يزدادون إلا غُلُوّا وعُتُوّا ، وتَبا عُدًا عن الحق وجُرْأةً على الرب ، ودعاهم أن يستعدوا ويبعثوا إلى إخوانهم ليأتوهم وينظروا فيما هم صانعون ، فراسَلَ أصحابه

(١) هو أحد بنى امرئ القيس .

(٢) الصفرية : فرقة من الفرق الرئيسية للخوارج ، وهم أصحاب زياد بن الأصفر ، وقيل نسبوا إلى عبد الله بن صفار ، وقيل لأنهم نهكتهم العبادة فاصفرت وجوههم فنسبوا إلى صفرة ألوانهم ، وقال الأصمعى : الصواب الصِّفرية بالكسر ، قال : وخاصم رجل منهم صاحبه فى السجن فقال له : أنت والله صفر من الدين ، فسموا الصفرية .

(٣) دارا : بلد بين نصيبين وماردين من أرض الجزيرة .

وتلاقَوْا ، فبيناهم فى ذلك إذْ قَدِم عليهم رسول بكتاب من شَبيب بن يزيد الشَّيْبانى إلى صالح بن مُسَرَّح ، وفيه :

« أما بعدُ ، فقد علمتُ أنك كنتَ أردتَ الشُّخُوصَ ، وقد كنتَ دعوْتَنى إلى ذلك فاستجبْتُ لك ، فإن كان ذلك اليومَ من شأنك فأنت شيخ المسلمين ، ولن نَعْدِلَ بك منا أحداً ، وإن أردتَ تأخير ذلك اليومَ أعلَمْتَنى ، فإن الآجال غادية ورائحة ، ولا آمَن أن تخترِمَنى[1] المنيّةُ ولَمّا أجاهدِ الظالمين ، فيالَه غَبْنا ، ويالَه فضلا متروكا ! جعلَنا الله وإياك ممن يريد بعمله اللهَ ورِضوانَه والنظرَ إلى وجهه ومرافقةَ الصالحين فى دار السلام ، والسلام عليك » .

١٩٤ — رد صالح بن مسرح على شبيب

فكتب إليه صالح :

« أما بعدُ ، فقد كان كتابك وخبرُك أبطأ عنى حتى أهمَّنى[2] ذلك ، ثم إن أُمْرَأً من المسلمين نبَّأنى بنبأ مَخْرَجك ومَقْدَمك ، فنحمد الله على قضاء ربنا ، وقد قَدِم علىّ رسولُك بكتابك ، فكلّ مافيه قد فهمتُه ، ونحن فى جَهَازٍ واستعداد للخروج ، ولم يمنعنى من الخروج إلا انتظارُك ، فأقبلْ إلينا ثُمَّ اخرُجْ بنا متى ما أحببتَ ، فإنك ممن لا يُسْتَغْنَى عن رأيه ، ولا تُقْضَى دونه الأمورُ ، والسلام عليك » .

---

(١) اخترمته المنية : أخذته .

(٢) أقلقنى .

وبلغ مَخْرَجُهم محمدَ بن مَرْوان وهو يومئذ أمير الجزيرة فبعث إليهم جيشاً بقيادة عَدِىّ بن عدىّ بن عُمَيْرة ، فهزمه صالح ونزل عسكره وحَوَى مافيه ، فبَعث إليهم محمد بن مروان جيشا آخر فقاتلهم فخرجوا من أرض الجزيرة إلى الموصِل ، وبلغ ذلك الحجاجَ فسرّح إليهم جيشاً يقوده الحرثُ ابن عُمَيْرة بن ذى المِشْعار ، فحاربهم وقُتِل صالح فى المعركة ، فبايع أصحابه شبيبَ بن يزيد (فسُمُّوا الشبيبيّة) فحمل على جيش الحرث فهزمه ، وضارب الحرث حتى صُرِع واحتمله أصحابه وانهزموا وخلَّوا لهم العسكر وما فيه ومضَوا حتى نزلوا المدائن . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢١٩ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ ص : ٤٠٩)

١٩٥ — كتاب الحجاج إلى سفيان بن أبى العالية

وتجهّز شَبِيب للخروج ، ومضى فى أدانِى أرض المَوْصِل ثم ارتفع نحو أَذْرَبِيجان ، فكتب الحجاج إلى سُفْيان بن أبى العالية الخَثْعَمِىّ ـ وكان أقبل فى خيل أُمِرَ أن يدخل بها طَبَرِسْتَان :

« أما بعدُ ، فسِرْ حتى تنزلَ الدَّسْكَرَةَ[1] فيمن معك ، ثم أَقِمْ حتى يأتيَك جيشُ الحارث بن عُمَيرة الهَمْدَانىّ بن ذى المِشْعار وخيلُ المَناظِر[2] ، ثم سِرْ إلى شبيب حتى تناجِزَه » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٢٤ ، وشرح ابن أبى الحديد ١ : ٤١١)

---

(١) قرية كبيرة غربى بغداد .

(٢) المناظر جمع منظرة بالفتح : وهى المرقبة (موضع فى رأس جبل فيه رقيب ينظر العدو)

١٩٦ — كتاب سفيان بن أبي العالية إلى الحجاج

فأقبل سفيان حتى نزل الدَّسْكرة ، ووافاه بها جيشُ الحارث بن عُمَيرة ، وكان على خيل المناظر سَوْرةُ بن أَبْجَر التميمىّ ، فسار إليه وبعث إليه أَنْ لا تَبْرَحَ العسكرَ حتى آتيك ، فعَجِلَ سفيانُ فارتحل فى طلب شبيب فلَحِقه بخانِقِين[١] فى سفح جبل ، وكاده شبيب[٢] فأوقع بجيشه الهزيمة ، وقاتله سُفيان حتى خَرَّ بين القتلى وحُمِل مُرْتَثًّا[٣] ، وأُتِىَ به بابل مَهْرُوذ[٤] فنزل بها ، وكتب إلى الحجاج :

« أما بعدُ ، فإنى أُخْبِرُ الأميرَ — أصلحه الله — أنى اتَّبعْتُ هذه المارقةَ حتى لَحِقْتُهُمْ بخانِقِين ، فقاتلتهم فضرب اللهُ وجوههم ونَصَرَنا عليهم ، فبينا نحن كذلك إذ أتاهم قوم كانوا غُيَّبًا عنهم ، فحَملوا على الناس فهزموهم ، فنزلتُ فى رجال من أهل الدين والصبر فقاتَلْتُهُمْ حتى خَرَرْتُ بين القَتْلَى فحُمِلتُ مُرْتَثًّا ، فأُتِى بى بابل مَهْرُوذَ ، فهأَنا بها ، والجندُ الذين وجَّههم إلىّ الأميرُ وافَوا ، إلا سَوْرةَ بن أبْجَر ، فإنه لم يأْتِنى ولم يَشْهد معى ، حتى إذا ما نزلتُ بابل مَهْرُوذَ أتانى يقول مالا أعرف ، ويعتذر بغير العذر ، والسلام » .

فلما قرأ الحجاج الكتاب قال : من صنع كما صنع هذا ، وأَبْلَى كما أبلى ، فقد أحسن . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٢٥)

---

(١) بلد بسواد بغداد .

(٢) وذلك أن شبيبا أصحر لهم ثم ارتفع عنهم حتى كأنه يكره لقاءه ، وقد أكمن له أخاه مصاد ابن يزيد فى كمين معه ، فلما رأوه جمع أصحابه ثم مضى فى سفح الجبل مشرّقا ، قالوا : هرب عدو الله فاتبعوه ، فلما رأى شبيب أنهم قد جاوزوا الكمين عطف عليهم ، ولما رأى الكمين أن قد جاوزوهم خرجوا إليهم ، فحمل عليهم شبيب من أمامهم ، وصاح بهم الكمين من ورائهم ، وكانت الهزيمة .

(٣) ارتث : حمل من المعركة رثيثا أى جريحا وبه رمق (٤) بلد بسواد بغداد .

١٩٧ — رد الحجاج على ابن أبى العالية

ثم كتب إليه :

« أما بعدُ ، فقد أحسنتَ البَلاءَ ، وقضيتَ الذى عليك ، فإذا خَفَّ عنك الوجعُ فأقبِلْ مأجورا إلى أهلك والسلام » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٢٥)

١٩٨ — كتاب الحجاج إلى سورة بن أبجر

وكتب إلى سَوْرة بن أبجر :

« أما بعدُ ، فيابنَ أمِّ سَوْرة ما كنتَ خليقا أن تجترئ على ترك عَهْدى ، وخِذْلان جندى ، فإذا أتاك كتابى فابعث رجلا ممن معك صَلِيبا ، إلى الخيل التى بالمدائن ، فلينتخِبْ منهم خَمْسَمائة رجل ، ثم ليَقْدَم بهم عليك ، ثم سِربهم حتى تلقى هذه المارقةَ ، واحزِم فى أمرك ، وكِدْ عدوّك ، فإن أفضل أمر الحرب حُسْن المكيدة ، والسلام » .

ففعل سوره ما أُمر به ولَقِى سبيباً ، فحمل عليه شبيب ودَحَره

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٢٥ وشرح ابن أبى الحديد ١ : ص ٤١١)

١٩٩ — كتاب الحجاج إلى الجزل بن سعيد

وقَدِم الفَلُّ على الحجاج فسَرَّح إليهم الجَزْلَ بن سعيد ،[1] فجعل يَتْبَعهم

---

(١) وكان من كلماته الحكيمة أن قال له حين دعاه : « تيسر للخروج إلى هذه المارقة ، فإذا لقيتهم فلا تعجل عجلة الخرق ، ولا تحجم إحجام الوانى الفرق » .

فلا يسير إلا على تَعبِيَة ، ولا ينزل إلا على خَنْدق ، وكان شبيب يَدَعُه ويَضْرِب فى أرض جُوخَى[١] وغيرها يكْسِرُ الخراج ، وطال ذلك على الحجاج ، فكتب إليه :

« أما بعدُ ، فإنى بعثتك فى فُرسان أهلِ المِصْر ووجوهِ الناس[٢] ، وأمرتُك باتباع هذه المارقة الضّالة المُضِلّة حتى تلقاها ، فلا تُقْلِعَ عنها حتى تقتلَها وتُفْنِيَها ، فوجدتَ التَّعْرِيسَ[٣] فى القُرَى ، والتَّخييمَ فى الخنادق ، أهونَ عليك من المُضِىِّ لِمَا أمرتُك به من مناهضتهم ومناجزتهم والسلام » .

فشَقَّ ذلك على الجَزْل ، وأمر الناس بالسير ، فخرجوا فى طلب الخوارج جادّين ،

وبعث الحجاج سعيد بن مُجالد على ذلك الجيش وعَهِد إليه :

« إنْ لقيتَ المارقة فازحفْ إليهم ولا تُناظِرْهم ولا تُطاولْهم ووافِقْهم واستعن بالله عليهم ، ولا تصنعْ صَنِيعَ الجَزْلِ ، واطلبهم طَلَب السبع ، وحِدْ عنهم حَيَدان الضَّبُع » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٢٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ ص ٤١٣)

٢٠٠ — كتاب الجزل بن سعيد إلى الحجاج

وجاء سعيد بن مجالد ، فأخرج الناس معه وجمع إليه خيول أهل العسكر

---

(١) جوخى بالضم والقصر وقد يمد : كورة واسعة فى سواد بغداد .

(٢) وذلك أن الجزل حين دعى للخروج قال للحجاج : أصلح الله الأمير ، لا تبعث معى أحدا من أهل هذا الجند المفلول المهزوم ، فإن الرعب قد دخل قلوبهم ، وقد خشيت أن لا ينفعك والمسلمين منهم أحد ، فقال له : فإن ذلك لك ولا أراك إلا قد أحسنت الرأى ووفقت ، وأمر فاختير له بعث آخر

(٣) عرّس القوم وأعرسوا : نزلوا فى آخر الليل للاستراحة .

ليقاتل شبيبا ، فنصح له الجزلُ ألاَّ يقاتله إلا فى جماعة الناس عامَّة ، فأبَى ، فقال له : ليس لى فيما صنعتَ رأى ، أنا برىء من رأيك هذا ، سَمِعَ اللهُ ومَن حضر من المسلمين ، فقال : هو رأيي ، إن أصبتُ فالله وفَّقنى له ، وإن يكن غير صواب فأنتم منه بَراء ، وخرج للقاء شبيب ، فحمل عليهم شبيب فهزمهم وشدّ على سعيد فضَربه فخرَّ ميتا ، وانهزم ذلك الجيش وقُتلوا كل قِتْلة حتى انتهوا إلى الجَزْل ، فقاتل الجزل قتالا شديداً حتى حُمِل من بين القتلى ، ونقل إلى المدائن مُرْتَثًّا ، وقَدِم فَلُّ أهل ذلك العسكر الكوفةَ ،

وكتب الجزل إلى الحجاج :

« أما بعدُ ، فإنى أُخْبِر الأمير ـ أصلحه الله ـ أَنى خرجتُ فيمن قِبلى من الجند الذى وجَّهنى فيه إلى عدوه ، وقد كنت حفِظتُ عهدَ الأمير إلىَّ فيهم ورأيَه ، فكنت أخرج إليهم إذا رأيتُ الفرصةَ ، وأَحبِسُ الناس عنهم إذا خشِيتُ الْوَرْطَة ، فلم أزل كذلك أُدبِّر الأمر وأرفُق فى التدبير ، ولقد أرادنى العدوُّ بكل مكيدة ، فلم يُصِبْ منى غِرَّة ، حتى قَدِم علَىَّ سعيد بن مجالد ـ رحمة الله عليه ـ ولقد أمرتُه بالتُّؤَدة ونهيته عن العَجَلة ، وأمرته ألا يقاتلهم إلا فى جماعة الناس عامّة ، فعصانى وتعجّل إليهم فى الخيل ، فأشهدتُ عليه أهلَ المِصْرين أنى برىء من رأيه الذى رأى ، وأنى لا أهْوَى ماصنع . فمضى فأُصيبَ ، تجاوز الله عنه ، ودَفع[1] الناسُ إلىَّ فنزلتُ ودعوتهم إلىَّ ، ورفعتُ لهم رايتى ، وقاتلت حتى صُرِعْتُ ، فحَمَانى أصحابى من بين القتلى ، فما أفقْتُ إلا وأنا على أيديهم على رأس ميل من المعركة ، فأنا اليوم بالمدائن فى جِراحة

---

(١) أى انتهوا إلىّ .

قد يموت الرجل من دونها ويُعَافَى من مثلها ، فليسألِ الأميرُ - أصلحه الله - عن نصيحتى له ولجنده ، وعن مكايدتى عدوّه ، وعن موقفى يوم البأس ، فإنه يستبين له عند ذلك أنى قد صَدَقْته ونصحت له ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣١ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤١٣)

٢٠١ - رد الحجاج على الجزل بن سعيد

فكتب إليه الحجاج :

« أما بعدُ ، فقد أتانى كتابك وقرأته وفهمتُ كلّ ما ذكرت فيه ، وقد صدَّقتك فى كل ما وصفتَ به نفسَك ، من نصيحتك لأميرك ، وحِيطتك على أهل مصرك ، وشَدَّتِك على عدوك ، وقد فهمتُ ما ذكرتَ من أمر سعيد وعَجَلته إلى عدوه ، فقد رضيتُ عَجَلتَه وتُؤَدَتَك ، فأمَّا عجلتُه فإنها أفضَتْ به إلى الجنة ، وأما تؤدتُك فإنها لم تدعِ الفرصة إذا أمكنَت ، وتَرْكُ الفرصة إذا لم تُمكِن حَزْمٌ ، وقد أصبتَ وأحسنت البلاء وأُجِرْتَ[1] ، وأنت عندى من أهل السمع والطاعة والنصيحة ، وقد أشْخَصْتُ إليك حَيَّان ابْنَ أبجر ليداوِيَك ويعالج جِراحتك ، وبعثتُ إليك بألفَىْ درهم فأَنفِقْها فى حاجتك وما ينوبُك ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣١ وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤١٤)

٢٠٢ - كتاب ماذر واسب إلى عروة بن المغيرة بن شعبة

وخرج الحجاج إلى البصرة واستخلف على الكوفة عُرْوة بن المُغيرة

---

(١) أى نلت الأجر ، أجره وآجره : جزاه .

أبن شُعبة ، فما شَعَر الناس بشىء حتى جاء كتاب من « ماذرواسب » دِهقانِ « بابل مَهْرُوذ » وعظيمِها إلى عروة بن المغيرة :

« إن تاجرا من تجار الأنبار من أهل بلادى أتانى فذكر أن شبيباً يريد أن يدخل الكوفة فى أول هذا الشهر المستقبل ، فأحببتُ إعلامك ذلك لترى رأيك » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٢ وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤١٤)

٢٠٣ — كتاب عروة بن المغيرة بن شعبة إلى الحجاج

فكتب عروة إلى الحجاج :

« إن شبيبا قد أقبل مسرعا يريد الكوفة ، فالعَجَلَ العَجَلَ » .

فَطَوى الحجاج المنازلَ ، واستبق هو وشبيب إلى الكوفة ، فنزلها الحجاج صلاةَ الظهر ، ونزل شبيب السَّبَخَة صلاة المغرب ، ثم دخَلَ الكوفة حتى انتهى إلى السوق ، وشد حتى ضرب باب القصر بعموده ، واقتحموا المسجد الأعظم . وقتلوا جماعة ممن صادفوهم ثم خرجوا منها[1] .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٢)

٢٠٤ — كتاب الحجاج إلى جند عبد الرحمن بن الأشعث

ودعا الحجاج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكِندى فقال

---

(١) ووجه الحجاج زحر بن قيس فى جيش وأمره أن يتبع شبيبا حتى يواقعه حيثما أدركه ، وبلغ شبيبا مسيره إليه فأقبل نحوه فالتقيا ، فقاتل زحر حتى صرع وانهزم أصحابه ، ووجه الحجاج جيشا فيه سبعة أمراء ، كل أمير على أصحابه وأمير الجميع زائدة بن قدامة ، ودارت رحى الحرب بينه وبين جيش شبيب ، وانجلت عن هزيمة جيش زائدة وقتله .

له : انتخِب النّاس واُخرج فى طلب هذا العدوّ ، فانتخب فُرسانَ الناس ووجوههم ، فلما أراد الحجاج إشخَاصَهم كتب إليهم :

« أما بعدُ ، فقد اعتَدْتم عادةَ الأذِلَّاء ، ووليّتمُ الدُّبُرَ يوم الزّحْف ، وذلك دَأْبُ الكافرين ، وإنى قد صَفَحتُ عنكم مَرّةً بعد مرة ، ومرة بعد مرة ، وإنى أُقْسِم لكم بالله قَسَماً صادقا : لئن عُدتم لذلك لَأُوقِعَنَّ بكم إيقاعا يكون أَشَدَّ عليكم من هذا العدوّ الذى تهرُبُون منه فى بطون الأودية والشِّعاب[١] ، وتستترون منه بأَثْناء[٢] الأنهار وَأَلْوَاذِ الجبال ، نخاف مَن له مَعقول[٣] على نفسه ، ولم يجعل عليها سبيلا ، وقد أعذَرَ من أَنْذَر[٤] .

وقد أسمعتَ لو ناديت حيًّا ولكن لاحَيَاةَ لِمَن تُنَادِى

والسلام عليكم » .

نخرج ابن الأشعث فى الناس نحو شبيب ، فلما دنا منه ارتفع عنه شبيب ، فسار ابن الأشعث فى طلبه ، حتى إذا كان على التُّخُوم أقام وقال : إنما هو فى أرض الموصل فليُقاتلوا عن بلادهم أو ليَدَعُوهُ .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤١٦)

---

(١) جمع شعب بالكسر : وهو الطريق فى الجبل ، ومسيل الماء فى بطن أرض ، أو ما انفرج بين الجبلين

(٢) جمع ثنى بالكسر . وثنى النهر والوادى : منعطفه . والألواذ: جمع لوذ بالفتح وهو جانب الجبل ومنعطف الوادى .

(٣) معقول : عقل .

(٤) أعذر : ثبت له عذر .

٢٠٥ — كتاب الحجاج إلى ابن الأشعث

فكتب إليه الحجاج :

« أما بعدُ ، فاطلب شَبيباً واسلُكْ فى أَثَره أين سَلَك حتى تدركَه فتَقتُلَه أو تنفِيَه ، فإنما السلطان سلطان أمير المؤمنين ، والجندُ جندهُ ، والسلام » .

فخرج فى طلب شبيب ، وكان شبيب لا يصيب له غِرَّةً ولا يصل إليه لشدة حذره منه[1] .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٨ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤١٧)

٢٠٦ — كتاب عثمان بن قطن إلى الحجاج

وأرسل شبيب إلى عبد الرحمن يسأله المُوادعةَ حتى تمضىَ أيام العيد (عيد الأضحى سنة ٧٦ هـ) فأجابه ، ولم يكن شئ أحبَّ إلى عبد الرحمن من المطاولة والموادعة ، فكتب عثمان بن قَطَن عامل المدائن إلى الحجاج :

« أما بعدُ فإنى أخبر الأمير — أصلحه الله — أن عبد الرحمن بن محمد قد حَفَر جُوخَى كلَّها خندقا واحدا ، وخَلَّى شبيبا وكَسَّرَ خراجِها ، وهو يأكل أهلها ، والسلام » . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٣٩)

---

(١) كان شبيب يدعه حتى إذا دنا منه بيته فيجده قد خندق على نفسه وحذر ، فيمضى ويدعه ، فيتبعه عبد الرحمن فإذا بلغه أنه قد تحمل وأنه يسير أقبل فى الخيل ، فإذا انتهى إليه وجده قد صف الخيل والرجال وأدنى المرامية ، فلا يصيب له غرة ولا له علة ، فيمضى ويدعه .

٢٠٧ — رد الحجاج على ابن قطن

فكتب إليه الحجاج :

« أما بعدُ ، فقد فهمتُ ماذكرتَ لى عن عبد الرحمن ، وقد لَعَمْرى فعل ماذكرتَ ، فسر إلى الناس فأنت أميرهم ، وعاجِلِ المارقةَ حتى تلقاهم فإن الله ـ إن شاء الله ـ ناصرك عليهم ، والسلام » .

وبعث الحجاج إلى المدائن مُطَرِّف بن المُغيرة بن شُعبة ، وقَدِم عثمان ابن قَطَن على ابن الأشعث ومن معه ، فخرج بهم للقاء شبيب ، فقتله شبيب وهزم جنده . (تاريخ الطبرى ٧ — ٢٣٩ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ — ص ٤١٧)

٢٠٨ — كتاب مطرف بن المغيرة بن شعبة إلى الحجاج

وأقبل شبيب نحو المدائن ، فكتب مُطَرِّفٌ إلى الحجاج :

« أما بعدُ فإنى أخبر الأمير ـ أكرمه الله ـ أن شبيبا قد أقبل نحونا ، فإن رأى الأمير أن يُمِدَّنى برجال أضبِط بهم المدائن فعلَ ، فإن المدائن باب الكوفة وحِصْنها » .

وفى رواية أخرى للطبرى أيضا أنه كتب إليه : «إن شبيباً قد أطل علىّ ، فابعث إلى المدائن بعثاً » فأمده الحجاج بما طلب .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٥٩ — ٢٤٩)

٢٠٩ — كتاب ماذرواسب إلى الحجاج

وجاء شبيب حتى نزل قناطر حُذَيْفَه بن اليَمَـانِ ، فكتب ماذرواسب عظيم بابل مَهْرُوذ إلى الحجاج :

« أما بعدُ ، فإنى أخبر الأمير ــ أصلحه الله ــ أن شبيبا قد أقبل حتى نزل قناطر حُذَيْفة ، ولا أدرى أين يريد » .

فقام الحجاج فى الناس فقال : « أيها الناس ، واللهِ لتُقَاتِلُنَّ عن بلادكم وعن فَيْئكم ، أو لأَبْعَثَنَّ إلى قوم هم أَطوعُ وأسمعُ وأصْبَرعلى اللَّأْواء[1] والغيظِ منكم ، فيقاتلون عدوَّكم ، ويأكلون فيئكم » .

فقاموا إليه من كل جانب فقالوا : نحن نقاتلهم ، ونُعتِب[2] الأمير ، فلينْدُبْنا إليهم فإنا حيث سَرَّه . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٣)

٢١٠ — كتاب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان

وكتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان :

« أما بعدُ فإنى أخبر أمير المؤمنين ــ أكرمه اللهُ ــ أن شبيبا قد شارَفَ المدائن ، وإنما يريد الكوفة ، وقد عَجز أهل الكوفة عن قتاله فى مواطِنَ كثيرة ، فى كلِّها يَقْتُل أمراءَهم ويَفُلُّ جُنودَهم ، فإنْ رأى أمير المؤمنين أن يبعَث إلىَّ أهل الشأم ، فيقاتلوا عدوَّهم ، ويأكلوا بلادهم فليفعل ، والسلام » .

---

(١) الشدة . (٢) نرضى .

فبعث إليــه عبد الملك سُفْيان بن الأبرد الـكلبي فى أربعة آلاف ، وحبيب بن عبد الرحمن الحَـكَمى فى ألفين .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٣ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤١٩)

٢١١ — كتاب الحجاج إلى جند الشام

وخاف الحجاج غارة شبيب على من أقبل إليه من أهل الشام ، فبعث إليهم رسولا بكتاب فيه :

« أما بعدُ ، فإذا حاذيتم هِيتَ[1] فدعُوا طريقَ الفُرات والأنبار ، وخذوا على عين التمر[2] حتى تَقْدَموا الـكوفةَ إن شاء اللهُ ، وخـذوا حِذْرَكم ، وعجِّلوا السير ، والسلام » .

وجهز الحجاج جيشا عظيما من أهل الـكوفة ، واستقدم عَتَّابَ ابن وَرْقَاء الرِّياحى — وكان مع المهلَّب بن أبى صُفرة على قتال الأزارقة — فبعثه على ذلك الجيش ، فسار عتاب لقتال شبيب ، وحمل عليـه شبيب فتفرَّق عنه كثير من أصحابه وخذلوه ، وثبت فى عِصابة قليلة صَبَرت معه وقاتل حتى قتل .

ثم قَدِم جيش الشام فَشدُّوا للحجاج ظهره ، فاسـتغنى بهم عن أهل الـكوفة .

وجدَّ شبيب حتى دخل الـكوفة دَخْلته الثانية ، ومعه زوجته غَزَالَة[3]

---

(١) بلدة على الفرات فوق الأنبار . (٢) بلدة قريبة من الأنبار .

(٣) هكذا ذكر الطبرى وكذا المسعودى فى مروج الذهب ٢ : ١٤٠ فقالا : إن غزالة زوجه ، وذكر عبد القاهر البغدادى فى الفرق بين الفرق ص ٩٠ أن غزالة أمه وأن امرأته جهيزة ، وقال

ـ وقد كانت نذرت أن تصلى فى مسجد الكوفة ركعتين تقرأ فيهما البقرة وآل عِمران ففعلت ـ وتحصن الحجاج فى دار الإمارة ، ثم هبّ لمدافعة شبيب ، وخرج إليه بنفسه ، فانهزم شبيب وقتلت زوجته وانصرف عن الكوفة .
(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٤ ، وشرح ابن أبى الحديد م ١ : ص ٤١٩)

٢١٢ — كتاب الحجاج إلى الحكم بن أيوب

وأتبعه الحجاج جيشا يقوده سُفيان بن الأبرد ، وكتب إلى الحكم ابن أيوب بن الحكم بن أبى عَقِيل ـ وهو زوج ابنة الحجاج ، وعامله على البصرة ـ :

« أما بعدُ فابعث رجلا شجاعا شريفاً من أهل البصرة فى أربعة آلاف إلى شبيب ، ومُرْه فلْيَلْحَق بسفيان بن الأبرد ، ولْيَسْمَع له ولْيُطِع » .

فبعث إليه زياد بن عمرو العَتَكىّ فى أربعة آلاف ، فلم ينته إلى سفيان حتى التقى سفيان وشبيب على جسر دُجَيل[1] ، وحَمِى بينهما وَطِيس[2] القتال حتى جَنّ الليل ، فقال شبيب لأصحابه : اعبُروا معاشِرَ المسلمين ، فإذا أصبحنا باكَرْناهم ، فعبروا أمامه ، وزَل حافر فرسه عن حرف السفينة فَسقط فى الماء ، فقال : لِيَقْضِيَ ٱللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً ، فارتمس[3] فى الماء ،

الفيروزابادى فى القاموس : وجهيزة امرأة حمقاء أم شبيب الخارجى ، وكان أبوه اشتراها من السبى فواقعها فحملت فتحرك الولد فقالت : فى بطنى شىء ينقز ، فقالوا : أحمق من جهيزة ، وكذلك ذكر صاحب اللسان والميدانى فى مجمع الأمثال .

(١) نهر بالأهواز . (٢) الوطيس : التنور . (٣) انغمس .

ثم ارتفع فقال : ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وكان هلاكه سنة ٧٧ هـ .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٥٦)

٢١٣ — كتاب عمران بن حطان إلى الحجاج

وروى صاحب الأغانى قال :

« لما دخلت غَزَالةُ الْحَرُورِيَّةُ[١] على الحجاج هى وشبيب الكوفةَ ، تحصَّن منها وأغلق عليه قصْرَه ، فكتب إليه عِمْرَان بن حِطَّان[٢] — وقد كان الحجاج لج فى طلبه — قال :

أَسَدٌ علىَّ وفى الحروب نَعامةٌ ... رَبْدَاءُ تجفِلُ من صَفِيرِ الصَّافِرِ[٣]

هَلاَّ بَرَزْتَ إلى غزالةَ فى الوغَى ... بل كان قلبُك فى جناحَىْ طائِرِ

صَدَعَتْ غَزَالةُ قلبَه بفوارس ... تركَتْ كتائبه كأَمسِ الدَّابِرِ[٤]

ثم لَحِق بالشام فنزل على رَوْح بن زِنْباع » . (الأغانى ج ١٦ : ص ١٥٠)

---

(١) يسمى الخوارج بالحرورية نسبة إلى حروراء ، وهى قرية بظاهر الكوفة ، سماهم بذلك الامام على كرم الله وجهه ، وذلك أنه لما رجع من صفين إلى الكوفة اعتزله جماعة ممن رأوا التحكيم ضلالا ونزلوا حروراء ، فسار إليهم وناظرهم فأفحمهم ، فرجع معه بعضهم ، فقال لهم علىّ : ما نسميكم ؟ ثم قال أنتم الحرورية لاجتماعكم بحروراء — الكامل ٢ : ١٢٩ — .

(٢) أحد رءوس الخوارج الصفرية .

(٣) الربدة كحمرة : لون إلى الغبرة ، وهو أربد ، وهى ربداء ، وجفلت النعامة : كضرب وقعد وأجفلت : أسرعت وذهبت فى الأرض .

(٤) فى الأغانى « تركت مدابره » وقد وردت هذه الأبيات فى العقد الفريد ج ٣ : ص ١٧ ، وروايته للبيت الثالث :

صدعت غزالة جمعه بعساكر ... تركت كتائبه كأمس الدابر

فتنة مطرف بن المغيرة بن شعبة

٢١٤ — كتاب مطرف إلى أخيه حمزة

وفى سنة ٧٧ هـ خرج مُطَرِّف بن المغيرة بن شعبة على الحجاج ، وخلع عبد الملك بن مَرْوان ، ومضى فيمن بايعه من أصحابه حتى دَنَوا من هَمَذَان ، وكان أخوه حمزة بن المغيرة على همذان ـ فكَرِه أن يدخلها فيتَّهَمَ أخوه عند الحجاج ، فتركها وأخذ ذات اليسار إلى ماه دينار ، وكتب إلى أخيه حمزة :

« أما بعدُ ، فإن النفقة قد كَثُرت ، والمُؤْنة قد اشْتَدَّت ، فأَمْدِدْ أخاك بما قَدَرت عليه من مال وسلاح » فسَرَّح إليه بمال وسلاح .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٣)

٢١٥ — كتاب مطرف إلى سويد بن سرحان الثقفى وبكير بن هرون البجلى

وكتب مطرف بن المغيرة إلى سُويد بن سِرْحان الثقفى ، وإلى بُكَيْر ابن هرون البَجَلِيّ بالرىّ :

« أما بعدُ فإنا ندعوكم إلى كتاب اللّٰه وسُنّة نبيه ، وإلى جهاد من عَنَدَ[1] عن الحق ، واستأثَرَ بالفَىْء ، وتَرَكَ حُكم الكتاب ، فإذا ظَهَر الحقّ

---

(١) عند عن الطريق كنصر وسمع وكرم : مال .

ودُمِغ(١) الباطلُ ، وكانت كلمة ٱللهِ هى العليا ، جعَلْنا هذا الأمر شُورَى بين الأمة يرتضى المسلمون لأنفسهم الرِّضَا ، فَمَنْ قبِلَ هـذا منا كان أخانا فى دِيننا ، وَولِيَّنا(٢) فى مَحْيَانا ومَمَاتنا ، ومَنْ رَدَّ ذلك علينا جاهَدْناه واستنصَرْنا ٱللهَ عليه ، فـكَفَى بنا عليه حُجَّةً ، وكَفَى بتركه الجهادَ فى سبيل ٱللهِ غَبْنًا ، وبمداهنة الظالمين فى أمر ٱللهِ وَهْنًا(٣) ، إن ٱللهَ كَتَبَ القِتال على المسلمين وَسَمَّاهُ كُرْها(٤)، ولن يُنالَ رِضوانُ ٱللهِ إلا بالصبر على أمرِ ٱللهِ، وجِهادِ أعداء ٱللهِ ، فأجيبوا — رَحِمَكم ٱللهُ — إلى الحق ، وادعُوا إليه مَن تَرْجُون إجابته ، وعرِّفوه مالا يَعْرِفُه ، وَلْيُقْبِلْ إلىّ كلٌّ من رَأَى رَأْينا ، وأجابَ دَعْوتنا ، ورأى عَدُوَّه عدوَّنا ، أرشَدَنا ٱللهُ وإياكم ، وتاب علينا وعليكم ، إنه هو التواب الرحيم ، والسلام » .

فلما قدم الـكتاب على ذينك الرجلين دَبّا فى رجال من أهل الرىّ ، ودعَوا من تابعهما ، ثم خرجوا سرا لا يُفْطَن بهم حتى وافَوا مُطَرِّفا .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٤٦)

٢١٦ — كتاب البراء بن قبيصة إلى الحجاج

وكتب البراء بن قَبيصَة ، وهو عامل الحجاج على أصْبَهان إليه :

« أما بعدُ ، فإن كان للأمير — أصلحه ٱللهُ — حاجة فى أصبهان ، وغير

---

(١) أصلها من دمغه ، إذا كسر عظم دماغه ، فالشجة دامغة . وهى التى تخسف الدماغ ولا حياة معها ومعناه كمنع ونصر . (٢) الولى : المحب والصديق والنصير .

(٣) الوهن : الضعف .

(٤) يشير إلى قوله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ » .

أصبهان ، فليَبْعَث إلى مُطَرِّف جيشا كثيفا يستأصِله ومن معه ، فإنه لاتزال عصابة قد انتفَجَت[1] له من بلدة من البُلدان ، حتى توافيَه بمكانه الذى هو به ، فإنه قد استَكْثَفَ وكثُر تبَعُهُ ، والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٤)

٢١٧ — رد الحجاج على البراء

فكتب إليه الحجاج :

« أما بعدُ ، إذا أتاكَ رسولى فعسْكِرْ بمن معك ، فإذا مَرَّ بك عَدِىُّ ابن وَتّاد فاخرج معه فى أصحابك واسْمَع له وأطِعْ والسلام » .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٤)

٢١٨ — كتاب الحجاج إلى قيس بن سعد العجلى

وبلغ الحجاج ما أتاه حمزة بن المغيرة من إمداده أخاه بالمال والسلاح ، وكان قيس بن سعد العِجْلى يومئذ على شُرْطة حمزة ، ولبنى عِجْل وربيعة عَدَد بِهَمَذَانَ ، فبعث الحجاج إلى قيس بعهده على هَمَذان ، وكتب إليه أَنْ :

« أوثِقْ حمزة بن المغيرة فى الحديد ، واحبِسْه قِبَلَك حتى يأتِيك أمرى »

فأقرأه قيسٌ كتاب الحجاج إليه وأراه عَهْدَه ، فقال حمزة : سمعا وطاعة ، فأوثقه وحبسه فى السجن ، وتولىَّ أمر هَمَذَانَ وبعث عماله عليها .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٥)

---

(١) أى ثارت ووثبت ، وفى الأصل « انتفجت » وهو تصحيف .

٢١٩ — كتاب قيس بن سعد إلى الحجاج

وكتب إلى الحجاج :

«أما بعدُ ، فإنى أخبر الأمير — أصلحه الله — أنى قد شَدَدْتُ حمزة ابن المغيرة فى الحديد ، وحبَسْتُه فى السجن ، وبعثْتُ عُمَّالى على الخراج ، ووضعت يدى فى الجِباية ، فإنْ رَأَى الأمير — أبقاه الله — أن يأذن لى فى المسير إلى مُطرِّف أذن لى ، حتى أجاهِدَهُ فى قومى ومَنْ أطاعنى من أهل بلادى ، فإنى أرجو أن يكون الجهادُ أعظمَ أجْراً من جباية الخراج ، والسلام» . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٥)

٢٢٠ — كتاب الحجاج إلى عدى بن وتاد

وكتب الحجاج إلى عَدِىّ بن وَتَّاد الإيادى وهو على الرَّىّ :

« أما بعدُ ، فإذا قرأت كتابى هـذا ، فانهَضْ بثلاثة أرباع من معك من أهل الرَّىِّ ، ثم أَقْبِلْ حتى تمُرَّ بالبَرَاء بن قَبيصة بجَىَّ ، ثم سيرا جميعا ، فإذا التقيتما فأنت أمير الناس حتى يقتلَ اللهُ مُطَرفا ، فإذا كفى الله المؤمنين مُؤْنته ، فانصرف إلى عملك فى كَنَفٍ[1] من الله وكِلاءَته[2] وستره» .

وفعل عدى ما أُمِر به وسارا حتى انتهى إلى جَىَّ ، ووافاه بها قَبيصة

---

(١) أى فى حرزه وستره . (٢) أى حراسته .

وسارا إلى مطرف ، ثم نشِب القتال بين الفريقين ، ودارت الدائرة على جيش مطرف فما زال يقاتل حتى قتل . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٧)

٢٢١ — كتاب الحجاج إلى عدى بن وتاد

وكان على ميمنة جيش مُطَرِّف الحجاجُ بن جارية ، فكتب الحجاج ابن يوسف إلى عَدِيِّ بن وتّاد :

« أما بعدُ ، فإنْ كان اللهُ قتَل الحجاج بن جارية فبُعْداً له ، فذاك ما أَهْوَى وأحِبُّ ، وإن كان حيًّا فاطلبه قِبَلَك حتى تُوثِقَه ، ثم سرِّح به إلىّ إن شاء الله ، والسلام » .

فلم يزل الحجاج بن جارية خائفا حتى عُزِل عدى بن وتاد ، وقَدِم خالد ابن عَتَّاب بن وَرْقاء ، فكُلِّم فيه فآمنهُ . (تاريخ الطبرى ٧ : ٢٦٨)

٢٢٢ — كتاب الحجاج إلى خالد بن عتاب

وروى أبو الفرج الأصبهانى فى الأغانى قال :

وكان الحجاج قد استعمل على الرَّىِّ خالد بن عَتَّاب الرِّياحى ، وكانت أمه أمَّ وَلَد ، فكتب إليه الحجاج يُلَخِّن[1] أمه ، ويقول : « يابن اللَّخْناء ، أنت الذى هرَبتَ عن أبيك[2] حتى قتل » .

---

(١) أى يسبها ويصفها باللخن بالتحريك ، وهو قبح ريح الفرج ، وأمة لخناء ، ومن شتم العرب : يابن اللخناء ، كأنهم يقولون يادنىء الأصل ، أو يالئيم الأم .

(٢) هو عتاب بن ورقاء الرياحى وقد قتل وهو على حرب الخوارج الشبيبية — انظر ص ٢٠٢ .

٢٢٣ - رد خالد على الحجاج

وقد كان حلف أن لا يسُبَّ أحد أمه إلا أجابه كائنا من كان ، فكتب إليه خالد :

« كتبتَ إلىّ تلخّنني ، وتزعُم أنى فَرَرتُ عن أبى حتى قتل ، ولعمرى لقد فررتُ عنه ، ولكن بعد أن قُتِل ، وحين لم أجد مقاتلا ، ولكن أخبِرْنى عنك يابن اللخناء المُستَفْرِمة[1] بعَجَم زَبيب الطائف ، حين فررتَ أنت وأبوك يوم « الحَرّة »[2] على جَمَل ثقالٍ[3] ، أيُّكما كان أمام صاحبه ؟ » .

فقرأ الحجاج الكتاب ، وقال : صدق :

أنا الذى فَرَرْتُ يوم الحَرَّهْ   ثم ثَنَّيتُ كرَّة بفَرَّهْ

* والشيخُ لا يفِرُّ إلا مَرَّه[4] *

ثم طلبه ، وهرب خالد إلى الشام وسَلَّمَ بيت المال ، ولم يأخذ منه شيئًا ، وكتب الحجاج إلى عبد الملك بما كان منه ، واستجار خالد بزُفَر بن الحَرِث الكِلابى فأجاره ، فراجعه عبد الملك فى أمره ، ثم أجاره .

(الأغانى ١٦ : ٤١)

---

(١) الفرم كشمس والفرمة كوردة والفرام ككتاب : دواء تتضيق به المرأة ، فهى فرماء ومستفرمة ، والعجم كسبب وغراب : نوى كل شىء .

(٢) انظر هامش ص ٩٧ . (٣) أى بطىء .

(٤) جاء فى العقد الفريد (ج ٢ : ص ٢٥٧) أن الأنصار فى وقعة الحرة قدموا عبدالله بن حنظلة على أنفسهم ، وقدمت قريش عبد الله بن مطيع ، فلما هزمهم مسلم بن عقبة ودخل المدينة ، هرب عبد الله بن مطيع حتى لحق بمكة ، فكان بها حتى قتل مع عبد الله بن الزبير فى أيام عبد الملك بن مروان ، وجعل يقاتل أهل الشأم وهو يقول :

أنا الذى فررت يوم الحره   والشيخ لا يفر إلا مره

فاليوم أجزى كرة بفره   لا بأس بالكرة بعد الفره

فتنة ابن الأشعث

٢٢٤ — كتاب الحجاج إلى عبيد الله بن أبى بكرة

قدّمنا أن الحجاج وَلّى عُبَيد ٱللّٰه بن أبى بَكْرة سِجِسْتانَ سنة ٧٨ هـ ، وكان رُتبيلُ ملك الترك مصالحا للعرب يدفع لهم خَراجا ، وربما امتنع فلم يفعل ، فبعث الحجاج إلى عبيد ٱللّٰه بن أبى بكرة أن :

« ناجِزْه بمن معك من المسلمين ، فلا ترجِعْ حتى تستبيحَ أرْضَه ، وتهدِمَ قِلاعَه ، وتقتل مُقَاتِلَتَه ، وتَسْبِيَ ذُرِّيته » .

فخرج بمن معه من المسلمين من أهل الكوفة وأهل البصرة ، وكان على أهل الكوفة شُرَيح بن هانئ الحارثى ، وعلى أهل البصرة عبيد ٱللّٰه ، وهو أمير الجماعة ، فمضى حتى وغَل فى بلاد رُتبيل ، فأصاب من البقر والغنم وَالأموال ماشاء ، وهَدَم قِلاعا وحصونا ، وغلب على أرض من أرضهم كثيرة ، والترك يخلُّون لهم عن أرض بعد أرض حتى أمعنوا فى بلادهم ، فأخذوا عليهم العِقَابَ والشِّعابَ[1] ، فَسُقِط فى أيدى المسلمين[2] ، وظنوا أنْ قد هلكوا .

(تارخ الطبرى ٧ : ٢٨٢)

(١) العقاب جمع عقبة كرقبة ، وهى مرقى صعب من الجبال ، والشعاب جمع شعب بالكسر وهو الطريق فى الجبل وما انفرج بين الجبلين .

(٢) سقط فى يده وأسقط : ندم وتحير .

٢٢٥ ـ كتاب الحجاج الى عبد الملك

فبعث ابن أبى بَكْرة إلى شُرَيح بن هانئ : إنى مُصالح القوم على أن أعطيَهم مالا ويُخَلُّوا بينى وبين الخروج ، فأرسل إليهم فصالحهم على سبعمائة ألف درهم ، فقال له : إنك لاتصالِحُ على شىء إلا حَسَبَه السلطان عليكم فى أَعْطِيَاتكم ، فقال : لومَنَعَنا العطاءَ ماحَيِينا ، كان أهونَ علينا من هلاك كنا ، فخالفه شريح ، ونادى : ياأهل الإسلام من أرادَ منكم الشهادة فإلىّ ، فاتبعه فُرسان الناس ، وأهل الحِفاظِ ، فقاتلوا حتى أصيبوا إلا قليلا ، وقاتل حتى قتل فى ناس من أصحابه ، ونجا من نجا ، فخرجوا من بلاد رتبيل ، وبلغ ذلك الحجاجَ ، فكتب إلى عبد الملك :

«أما بعدُ ، فإن جندَ أمير المؤمنين الذين بسِجِسْتانَ أصيبوا فلم ينج منهم إلا القليلُ ، وقد اجترأ العدوُّ بالذى أصابه على أهل الإسلام ، فدخلوا بلادهم ، وغَلَبوا على كل حصونهم وقصورهم ، وقد أردتُ أن أُوَجِّهَ إليهم جُنداً كثيفا من أهل المِصْرَين ، فأحببتُ أن أَستَطْلِعَ رأى أمير المؤمنين فى ذلك ، فإن رأى لى بعثة ذلك الجند أمضَيْتُه ، وإن لم يَرَ ذلك فإن أمير المؤمنين أَوْلَى بجنده ، مع أنى أتخوّفُ إن لم يأت رتبيلَ ومن معه من المشركين جندٌ كثيفٌ عاجلا ، أن يستولُوا على ذلك الفَرْجِ[1] كلِّه» .

(تاريخ الطبرى ٧ : ٢٨٢)

---

(١) الفرج : الثغر وموضع المخافة .

٢٢٦ — رد عبد الملك على الحجاج

فكتب إليه عبد الملك :

« أما بعدُ ، فقد أتانى كتابك تَذْكُرُ فيه مُصابَ المسلمين بسجستانَ ، وأولئك قومٌ كَتَبَ اللهُ عليهم القتلَ فبَرَزُوا إلى مضاجعهم ، وعلى اللهِ ثوابُهم ، وأما ما أردتَ أن يأتيك فيه رأيى من توجيه الجنودِ وإمضائها إلى ذلك الفَرْجِ الذى أُصيبَ فيه المسلمون أَوْ كَفِّها ، فإن رأيى فى ذلك أن تُمْضِيَ رأيَك راشِدا موفَّقا » .

فجهَّز الحجاج عشرين ألفَ رجل من أهل الكوفة ، ومثلَهم من أهل البصرة ، وجَدَّ فى ذلك وشمر ، وبعث عليهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث ، فخرج بهم حتى قَدِم سجستانَ سنة ٨٠ هـ . فجمع أهلها وخطَبَهم ، فقال : إن الأمير الحجاج ولَّانى ثَغْرَكم ، وأمرنى بجهاد عدوكم الذى استباح بلادكم ، وأباد خِيارَكم ، فإياكم أن يتخلفَ منكم رجل فيُحِلَّ بنفسه العقوبةَ ، اخرجوا إلى مُعَسْكَركم فعسكِروا به مع الناس » . فعَسْكَرَ الناس كلهم فى معسكرهم .

فبلغ ذلك رتبيل ، فكتب إلى عبد الرحمن : يعتذر إليه من مُصاب المسلمين ، ويخبره أنه كان لذلك كارها ، وأنهم ألجئوه إلى قتالهم ، ويسأله الصلح ، ويَعْرِض عليه أن يقبل منه الخراج ، فلم يُجبه ، ولم يقبل منه .

ولم ينشَبْ عبد الرحمن أن سار فى الجنود إليه حتى دخل أول بلاده ،

وأخذ رتبيل يضم إليه جنده ، ويدع له الأرض رُسْتاقا رُسْتاقا[1] ، وحِصْنا حصنا ، وطفِقَ ابن الأشعث كلما حوى بلداً بعث إليه عاملا ، وبعث معه أعوانا ، ووضع البُرُدَ[2] فيما بين كل بلد وبلد ، وجعل الأرصاد على العِقاب والشّعاب ، ووضع المَسَالِحَ[3] بكل مكان مَخُوف ، حتى إذا حاز من أرضه أرضاً عظيمة ، وملأ يديه من البقر والغنم والغنائم العظيمة ، حبس الناس عن الوُغُول فى أرض رتبيل ، وقال : نكتفى بما أصبناه العام من بلادهم حتى نَجبيَها ونعرِفها ، ويجترئ المسلمون على طرقها ، ثم نتعاطى فى العام المقبل ما وراءها ، ثم لم نزل ننتقِصهم فى كل عام طائفة من أرضهم حتى نقاتِلَهم آخرَ ذلك على كنوزهم وذراريّهم ، وفى أقصى بلادهم ومُمتنع حصونهم ، ثم لا نزايلُ بلادهم حتى يهلكهم الله ، ثم كتب إلى الحجاج بما فتح الله عليه من بلاد العدو ، وبما صنع الله للمسلمين ، وبهذا الرأى الذى رآه لهم .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٣)

٢٢٧ — كتاب الحجاج إلى ابن الأشعث

فكتب إليه الحجاج جواب كتابه :

« أما بعدُ ، فإن كتابك أتانى ، وفهمتُ ما ذكرتَ فيه ، وكتابُكَ كتابُ امرئ يحب الهُدْنة ، ويستريح إلى الموادعة ، قد صانَع عدوا قليلا

---

(١) الرستاق : الناحية التى هى طرف الاقليم ، معرب .

(٢) جمع بريد .

(٣) جمع مسلحه ، وهى القوم ذوو سلاح .

ذليلا ، قد أصابوا من المسلمين جُنداً كان بلاؤهم حسنا ، وغَناؤهم[1] فى الإسلام عظيما .

لَعَمْرُكَ يابنَ أمّ عبد الرحمن ، إنك حيثُ تكُفُّ عن ذلك العدوّ بجندى وحَدّى ، لَسَخِيُّ النفس عمن أُصيبَ من المسلمين ! ! إنى لم أَعْدُد رأيك الذى زعمتَ أنك رأيتَه رَأْىَ مَكِيدةٍ ، ولكنى رأيتُ أنه لم يحمِلك عليه إلا ضَعْفُكَ والْتياثُ[2] رأيك ، فامض لِمَا أمرتك به من الوغُول فى أرضهم ، والهدمِ لحصونهم ، وقتالِ مُقاتِلتهم ، وسَبْى ذراريِّهم » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٨)

٢٢٨ — كتاب آخر من الحجاج إلى ابن الأشعث

ثم أردفه كتابا فيه :

« أما بعدُ ، فَمُرْ مَنِ قِبَلك من المسلمين فَلْيَحْرُثوا وليقيموا ، فإنها دارهم حتى يفتَحها اللّٰهُ عليهم » . (تاريخ الطبرى ٨ : ٨)

٢٢٩ — كتاب ثالث من الحجاج إليه

ثم أردفه كتابا آخر فيه :

« أما بعدُ ، فامض لِمَا أمرتك به من الوغول فى أرضهم ، وإلاَّ فإن إسحق بن محمد أخاك أميرُ الناس فخلِّه وما وليتَه » .

فدعا عبد الرحمن الناس إليه ، فقال لهم : قد كان من رأيى فيما بينكم

---

(١) كغايتهم . (٢) الالتياث : الاختلاط والالتفاف .

وبين عدوِّكم رأىٌ استشرتُ فيه ذوى أحلامِكم وأُولى التجرِبة للحرب منكم ، فرضُوه لكم رأيا ، ورأوْه لكم فى العاجل والآجل صلاحا ، وقد كتبتُ إلى أميركم الحجاج ، فجاءنى منه كتابٌ يعجِّزنى ، ويضعِّفنى ، ويأمرنى بتعجيل الوُغُول بكم فى أرض العدو ، وهى البلاد التى هلك إخوانكم فيها بالأمس ، وإنما أنا رجل منكم أَمضى إذا مَضَيتم، وآبَى إذا أَبَيْتم » . فثار إليه الناس ، فقالوا : لا ، بل نأبَى على عدو الله ، ولا نسمع له ، ولا نطيع ، وقام خطباؤهم فسفّهوا رأى الحجاج ، ونادَوا بخلعه ، ومبايعة عبد الرحمن ، فأجابهم الناس ، ووثبوا إلى عبد الرحمن فبايعوه على النُّصْرَةِ له ، والجهاد معه حتى ينفى الحجاج من أرض العراق ، وبعث عبد الرحمن إلى رتبيل فصالحه على أن ابن الأشعث إن ظهر فلا خَراجَ عليه أبداً ما بقِىَ ، وإن هزم فأراده ألجأه عنده ، وخرج من سجستان مقبلا إلى العراق ، فلما دخل الناس فارس اجتمع بعضهم إلى بعض ، فقالوا : إنا إذا خلعنا الحجاج عامل عبد الملك ، فقد خلعنا عبد الملك ، فخلعوه إلا قليلا منهم ، ووثبوا إلى عبد الرحمن فبايعوه على كتاب الله وسنة نبيه ، وخلع أَئمة الضلاله ، وجهاد المُحِلِّين .

(تارع الطبرى ٨ : ٨)

٢٣٠ — كتب بين ابن الأشعث والحجاج وصاحب اليمن وعبد الملك

قال الطبرى :

فلما بلغ الحجاجَ خلعُه ، كتب إلى عبد الملك يُخبره خبَر عبد الرحمن ،

ويسأله أن يُعَجِّل بعثة الجنود إليـه ، وبعث كتابه (أى كتاب عبد الرحمن) إلى عبد الملك يتمثَّل فى آخره بهـــذه الأبيات ـ وهى للحارث ابن وَعْلَة (الجَرْمِىِّ) ـ :

سائِلْ مُجَاوِرَ جَرْمٍ هل جَنَيْتُ لهم   حَرْبًا تُفرِّق بين الْجِيرةِ الخُلُطِ[١]

وهل سَموْتُ بِجَرَّارٍ له لَجَبٌ   جَمِّ الصَّواهِلِ بين الجَمِّ والفُرُطِ[٢]

وهل تركتُ نِساءَ الحىِّ ضاحِيَةً   فى ساحةِ الدار يَسْتَوْقِدْن بالغُبُطِ[٣]

وقال أبو العباس المبرِّد فى الـكامل :

وكتب صاحبُ اليمن إلى عبـد الملك بن مَرْوان فى وقت محاربته ابنَ الأشعث : « إنى قد وَجَّهتُ إلى أمير المؤمنين بجارية اشتريتها بمـال عظيم ، ولم يُرَ مِثلُها قطُّ » .

فلمـا دُخِلَ بها عليه رأى وجها جميلا ، وخَلْقا نبيلا ، فألقى إليها قَضيبا كَان فى يده ، فنَـكَست لتأخذه ، فرأى منها جسما بَهَرَه ، فلمـا هَمَّ بها أَعلَمَه الآذِنُ أن رسول الحجاج بالباب فأذِنَ له ، ونَحَّى الجارية ، فأعطاه كتابا من عبد الرحمن فيه سطور أربعة يقول فيها :

---

(١) حرم : بطنان ، بطن فى قضاعه ، والآخر فى طئ . والخلط : جمع خلط ، وهو الشريك والقوم الذين أمرهم واحد ، والمخالط .

(٢) بجرار : أى بجيش جرّار . واللجب : الجلبة والصياح ، جمّ الصواهل : أى جم الخيول الصواهل أى كثيرها . الجم والفرط : موضعان .

(٣) ضاحية : بارزة للشمس ، وربمـا كان « ضاحيه » والغبط جمع غبيط . والغبيط : الرحل وهو للنساء يشد عليه الهودج وقوله : فى ساحة الدار يستوقدن بالغبط ، قال المبرد : يقال فيه قولان متقاربان : أحدهما أنهن قد يئسن من الرحيل فجعلن مراكبهن حطبا ، هـذا قول الأصمعى ، وقال غيره : بل قد منعهن الخوف من الاحتطاب .

سَائِلْ مُجَاوِرَ جَرْمٍ هَلْ جَنَيْتُ لها حَرْبًا تُزَيِّلُ بين الجيرة الخُلُطِ[١]

وهل سموتُ بجرّار له لَجَبٌ جَمٍّ الصواهِلِ بين الجَمِّ والفُرُط

وهل تركتُ نِساءَ الحيِّ ضاحِيَةً فى ساحةِ الدار يستوقِدْن بالغُبُطِ

وتحتها (بيت آخر على غير الروىّ من الأبيات الأُول ، وهو :)

قتَلَ المُلوكَ ، وصار تحت لوائه شَجَرُ العُرَا وَعَراعِرُ الأقوامِ[٢]

فكتب إليه عبد الملك كتابا ، وجعل فى طيِّه جوابا لابن الأشعث :

ما بالُ مَنْ أسْعَى لأَجْبُرَ عَظْمَه حِفاظا وينوِى من سفاهته كَسْرِى[٣]

أظُنُّ خطوبَ الدهْر بينى وبينهم ستحمِلُهم منى على مَرْكَبٍ وَعْرِ

وإنى وإياهم كمن نَبَّــــه القَطَا ولولم تُنَبَّهْ باتتِ الطَّيْرُ لاتَسْرِى

أناةً وحِلْمًا وانتظاراً بهم غداً فما أنا بالَوانِى ولا الضَّرِعِ الغُمْرِ[٤]

ثم بات يقلِّب كف الجارية ، ويقول : ما أفَدْتُ فائدة أحبَّ إلىّ منك ، فتقول : فما لَكَ يا أمير المؤمنين ، وما يمنعك ؟ فقال : يمنعنى ما قاله الأخطل، لأنى إن خرجت منه كنت ألأمَ العرب :

قومٌ إذا حاربوا شَدُّوا مآزِرَهم دُونَ النساء ولو باتت بأطْهارِ

---

(١) تزيل : تفرق

(٢) العرا بضم العين مقصورا : نبت ، والعراء بفتح العين ممدودا : وجه الأرض، وعراعر الأقوام رءوسهم ، جمع عرعرة بضم العينين ، وعرعرة كل شىء أعلاه ، والبيت لمهلهل .

(٣) دخل الحرم هـذا البيت ـ على رواية صاحب الكامل ـ وسيرد عليك فى باب التوقيعات « فما بال ... »

(٤) ضرع إليه وثلث : خضع وذل واستكان فهو ضارع، وضرع ككتف وصروع كصبور وضرعة محركة ، وككرم : ضعف فهوضرع محركة، والغمر: كشمس وقفل وسبب وكتف ومعظم: من لم يجرب الأمور

فما إليكِ سبيل ، أو يَحْكُمَ اللهُ بينى و بين عدوّى عبد الرحمن بن الأشعث ؛ فلم يقرَبها حتى قُتِل عبد الرحمن » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٠ ، والكامل للمبرد ١ : ١٢٠)

٢٣١ — كتاب من ابن الأشعث إلى الحجاج

(كتبه ابن القرية)

وروى ابن قتيبة فى الإمامة والسياسة قال :

فلما أجمعَ عبد الرحمن على إظهار خلع الحجاج ، كتب إلى أيوب ابن القِرِّيّة التيمى ، وهو مع الحجاج فى عسكره خاصّ المنزلة منه ، يسأله أن يُصْدِر إليه رسالة إلى الحجاج ، يخلع فيها طاعة الحجاج ، فكتب له ابن القرية رسالة فيها :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث إلى الحجاج بن يوسف ، سلام على أهل طاعة الله وأوليائه الذين يَحْكُمُون بعَدله ، ويُوفُون بعَهْده ، ويجاهدون فى سبيله ، ويتورّعون لِذِكْره ، ولا يَسْفِكون دَمًا حراما ، ولا يعطِّلون لِلرَّبِّ أحكاما ، ولا يَدْرُسون[1] له أعلاما ، ولا يتنكّبُون النَّهْجَ[2] ، ولا يُبْرِمُون السَّيِّئَ ، ولا يسارعون فى الغَيِّ ، ولا يُدَلِّلُون الفَجَرَةَ ، ولا يتراضَوْن الجَوَرَةَ ، بل يتمكّنون عند الاشتباه ، ويتراجعون عند الإساءة .

---

(١) درس الرسم كدخل : عفا ، ودرسته الريح ، لازم ومتعد .

(٢) النهج : الطريق الوضح ، وتنكبه : عدل عنه وتجنبه .

أما بعد ، فإنى أَحْمَد ٱللّهَ حَمْدا بالغا فى رضاه ، منتهيا إلى الحق فى الأمور الحقيقة لله علينا ، وبعدُ فإن ٱلله أَنْهَضَنى لِمُصَاولتك ، وبعثنى لمناضلتك ، حين تحيّرَتْ أمورك ، وتهتَّكتْ سُتُورُك ، فأصبحتَ عُرْيانَ حَيْرانَ مَهِيناً لا تُوافِق وَفْقا ، ولا ترافِقُ رِفْقَا ، ولا تلازِم صِدْقا ، أُؤَمِّل من ٱلله الذى أَلْهَمَنى ذلك أن يُصيِّرك فى حِبالِك ، وأن يجىء بك فى القَرَن[1] ، ويَسْحَبَك للذَّقَن ، ويُنْصِفَ منك مَن لم تُنْصِفْه من نفسك ، ويكون هلاكُك بيَدَىْ مَن اتَّهمتَه وعاديتَه ، فلعمرى لقد طالما تطاولتَ وتمكَّنْتَ وأخطأْتَ ، وخِلْتَ أن لن تَبُور[2] ، وأنت فى فَلَكِ المُلْك تَدورُ ، وأظن مِصْداقَ ما أقولُ ستَخْبُره عن قريب ، فسِرْ لأمرك ، ولاقِ عِصابةً خَلَعتك من حِبَالِها[3] خَلْعها نِعالَهَا ، وَتَدَرَّعَت حَلالَهَا ، تدرُّعَها مِطَالَهَا[4] ، لا يَحْذَرون منك جَهْدا ، ولا يَرْهَبون منك وعيدا ، يتأملون خَزَايتَك ، ويتجرَّعون إمارتك ، عِطاشاً إلى دمك ، يستطعِمُون ٱللهَ لَحْمَك[5] ، وايمُ ٱللهِ ليُنَافِقَنَّك[6] منهم الأبطالُ الذين بَيَّتَهم[7] فيما يحاولونك به على طاعة ٱلله ، شَرَوا[8] أنفسهم تقرُّبا إلى ٱلله ، فأَغْضِ[9] عن ذلك يابْنَ أم الحجاج ، فسَتَحْمل عليك إن

---

(١) القرن : الحبل يقرن به البعيران . (٢) يهلك .

(٣) الحبال ، جمع حبل : وهو العهد والذمة والتواصل ، والمعنى : خلعتك من الحكم الذى عهد به الملك وهذه العبارة فى الأصل « ولاق عصابة خلعتك من حبالها خلعها نعالها » وأراها محرفة .

(٤) المطال : مد الحديد وسبكه وطبعه وصوغه سيفا ، والمطالة اسم الحديدة التى تطول من البيضة ومن الزردة وجمعها مطال . (٥) أى يسألونه أن يطعمهم لحمك .

(٦) المناقفة والنقاف : المضاربة بالسيوف على الرءوس ، وفى الأصل « ليابهنك » وهو تصحيف

(٧) بيت لهم : أى دبر وكيد ، يقال بيت الأمر : دبره ليلا ، وبيت العدو : أوقع بهم ليلا

(٨) أى باعوا . (٩) أغضى عنه طرفه : سده أو صده .

شاء ٱللّه ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بٱللّه ، والسلام على أهل طاعة ٱللّه » .

(الإمامة والسياسة ٢ : ٢٦)

٢٣٢ — رد الحجاج على ابن الأشعث

فلما قدم الكتاب على الحجاج قال : اكتب يا نافع ، وكان نافع مولاه وكاتبا بين يديه :

« بسم ٱللّه الرحمن الرحيم ، من الحجاج بن يوسف إلى عبد الرحمن ابن الأشعث ، سلام على أهل النزوع عن الزَّيْغ وأسبابِ الرَّدَى[١] ، لا إلى معادن السَّيِّئ ، والتقحُّم[٢] في الغَيِّ ، فإنى أَحْمَدُ ٱللّهَ الذى خَلاَّكَ فى حَيْرتك ، إذ بَهَتَك[٣] فى السيرة ، ووَهَّلَك للضرورة ، حتى أَقْحَمَك أمورًا أخرجَك بها عن طاعته ، وجانَبْتَ وِلاَيته ، وَعَسْكَرْتَ بها فى الكفر ، وذَهِلْتَ بها عن الشكر ، فلا تشكُرُ فى السَّرَّاء ، ولا تَصْبِر فى الضَّرَّاء ، أقبلْتَ مُسْتَنًّا[٤] بحَرِيم الحَرَّة ، تستوقِدُ الفِتنةَ لِتَصْلَى بحَرِّها ، وجلَبْتَ لغيْرِك ضرها ، وقلت : وَثَاقُ[٥] الاحتجاج ، ومبارزة الحجاج ، ألاَ بَلْ لأُمِّك

(١) نزع عن الأمر : كف وانتهى عنه ، وهذه العبارة فى الأصل «من التزيع وأسباب الرداء» وأرى أنها محرفة وصوابها ما ذكرت .

(٢) تقحم الأمر وفيه : رمى بنفسه فيه من غير روية .

(٣) بهته : حيره ، قال تعالى « بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ » . أى تحيرهم حين تفجؤهم بغتة، وقال أيضا « فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ » . أى : انقطع وسكت متحيرا ، وبهته أيضا : أخذه بغتة ، ووهل كفرح : فزع وجبن ، ووهله : أفزعه .

(٤) استن سنته : سار سيرته ، والحريم : الحرم ، أى إنك قد اتبعت سنة أهل الحرة فخرجت على ولىّ الأمر ونقضت عهد طاعته كما شقوا عصا الطاعة ليزيد (انظر ص ٩٥) .

(٥) الوثاق : ما يشد به ويكسر ، والمعنى : شدة الاحتجاج .

الْهَبَلُ[1] ، وعِزَّةِ ربِّك لَتُكَبَّنَّ لِنَحْرِك ، ولَتُقْلَبَنَّ لظهرك ، ولتتَخَبَّطَنَّ فريصتُك[2] ولتُدْحَضَنَّ حُجَّتُك ، وليُذَمَّنَّ مقامك ، ولتُشَلَّنَّ[3] سِهامك ، كأنى بك تصيرُ إلى غيرِ مقبولٍ منك إلا السيفَ ، هَوْجا هوجا عند كَشْفِ الحربِ عن سَاقِها ، ومبارَزَةِ أبطالها ، والسلام على من أنابَ إلى أللهِ ، وسَمِعَ وأجاب » . (الإمامه والسياسة ٢ : ٢٨)

٢٣٣ — كتاب المهلب إلى عبد الرحمن بن الأشعث

وقد كان بلغ المهلَّبَ (وكان على خُراسان) شِقاقُ عبد الرحمن ، وهو بسجستان فكتب إليه :

« أما بعدُ ، فإنك وضعتَ رجلَك يابن محمد فى غَرْزٍ[4] طويل الغَيِّ على أمة محمد صلى ألله عليه وسلم ، أللهَ أللهَ فانظر لنفسك لاتُهْلِكْها ، ودماء المسلمين فلا تَسْفِكْها ، والجماعة فلا تُفَرِّقْها ، والبَيْعة فلا تَنْكُثْها ، فإن قُلتَ : أَخاف الناس على نفسى ، فأللهُ أَحقُّ أن تخافه عليها من الناس ، فلا تعرِّضها لله فى سَفْك دمٍ ، ولا استحلال مُحرَّم ، والسلام عليك » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٠)

---

(١) هبلته أمه كفرح : ثكلته وفقدته . (٢) الفريصه : اللحمه بين الجنب والكتف .

(٣) فى الأصل « ولتشعلن » وأراه محرفا .

(٤) الغرز : ركاب من جلد .

٢٣٤ — كتاب المهلب الى الحجاج

قال الطبرى : وكتب المهلَّب إلى الحجاج :

« أما بعدُ ، فإنَّ أهلَ العراق قد أقبلوا إليك ، وهم مثلُ السَّيْل المُنْحَدر من عَلُ ، ليس شيء يردُّه حتى ينتهىَ إلى قَرارِه ، وإن لأهل العراق شِرَّةً[١] فى أوّل مَخْرَجهم ، وَصَبَابةً إلى أبنائهم ونسائهم ، فليس شىء يردهم حتى يسقطوا إلى أهليهم ، ويَشَمُّوا أولادهم ، ثم واقِفْهم عندها ، فإن اللّٰه ناصِرُك عليهم إن شاء اللّٰه » .

فلما قرأ كتابه ، قال : فعل اللّٰه به وفعل ، لا واللّٰه ، مَالِى نَظَرَ ، ولكن لابن عمِّه[٢] نَصَحَ . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٠)

وروى ابن نُباتة هذا الكتاب فى سَرْح العيون بصورة أطول ، قال :

وحُكِىَ أن عبد الرحمن بن الأشعث لما خرج على الحجاج بالجيش الذى كان بعثه معه إلى قتال رتبيل ، كَاتَبَ المهلَّبَ ، وهو بخراسان يدعوه إلى خلع الحجاج ، فقال المهلب : لاغَدْرَ بعد سبعين سنة ، ثم كتب إلى الحجاج :

« أما بعدُ ، فإن أهل العراق مع ابن الأشعث قد أقبلوا إليك ، وهم مثلُ السيل المنحطِّ من أعلى إلى أسفل ، لبس يرده شىء حتى ينتهَى إلى قراره ، ولأهل العراق شِدَّة فى أول حربهم ، وبهم صَبابةٌ إلى نسائهم

---

(١) أى نشاطا وحدة . (٢) وذلك أن المهلب أزدى ، وعبد الرحمن كندى ، والأزد وكندة قبيلتان من كهلان بن سبأ من القحطانيين .

وأبنائهم ، فلا شيء يردهم دون أهليهم ، فلا تَستقْبلهم وخلّ لهم السبيل حتى يأتوا البصرة ، فيُضَاجعوا نساءهم ، ويتشَهَّوْا أبناءهم ، فترِقّ قلوبهم ، ويُخلدوا إلى المُقام فى منازلهم ، ويتفرقوا عن ابن الأشعث ، فأوقِعْ بمن حاربك منهم ، فإن الله ناصرك عليهم » .

فلما قرأ الحجاج كتابه قال : وَيْلى على ابن المَزُونىّ ، والله مالى نظَرَ ، وإنما نَظَر إلى ابن عمه ، ولم يقبل منه ذلك . (سرح العيون ١٣٧)

٢٣٥ — كتاب الحجاج إلى عبد الملك

وتجهز الحجاج لِلِقاء ابن الأشعث ، وتتابعت إليه جنودُ الشأم ، فسارىهم حتى نزل « تُستَر »(١) ، وحَمَل ابن الأشعث عليهم فهزمهم ، فارتحل الحجاج إلى البصرة ونزل « الزّاوية »(٢) وخلّى البصرة لأهل العراق فنزلوها ، وبايع ابنَ الأشعث على حرب الحجاج وخَلْعِ عبد الملك ، جميعُ أهلها ، ودارت رَحَى الحرب ، فانهزم أهل الشام فصَبَروا وصَدَقوا القتال حتى انتصروا ، وانهزم جيش ابن الأشعث ، فأقبل نحو الكوفة حتى دخلها فبايعه أهلها ، وأقبل الحجاج بجيوشه نحوها فنزل دَيْر قُرَّة ، فخرج ابن الأشعث إلى دَيْر الجَماجِم(٣) ، واجتمع أهل العراق جميعا على حرب الحجاج ، جَمَعَهم عليه بُغْضهم وكراهيتهم له ، واشتد القتال بين الفريقين ، وأراد عبد الملك أن يترضّى أهل العراق ، فبعث يَعْرِض عليهم عَزْل الحجاج

(١) مدينة بالأهواز . (٢) موضع قرب البصرة .

(٣) ظاهر الكوفة ، ودير قرة بإزائه .

عنهم ، وأن ينزل ابن الأشعث أىَّ بلد من العراق شاء ، يكون عليه واليا مادام حيا ، وكان عبد الملك واليا ، فلم يأت الحجاجَ أمر قطُّ كان أشدَّ عليه ، ولا أغيظَ له ، ولا أوجعَ لقلبه منه ، مخافةَ أن يقبلوا فيُعْزَل عنهم ، فكتب إلى عبد الملك :

« يا أميرَ المؤمنين ، واللهِ لئن أعطيْتَ أهلَ العراق نَزْعِي ، لا يلبثون إلا قليلا حتى يخالفوك ويسيروا إليك ، ولاَ يزيدُهم ذلك إلا جُرْأةً عليك ، ألَمْ ترَ وتسمعْ بوثوب أهل العراق مع الأشتر على ابن عفَّان ؟ فلما سألهم : ما يريدون ؟ قالوا : نزعَ سعيدِ بن العاصِ[1] ، فلما نزَعه لم تتمَّ لهم السَّنةُ حتى ساروا إليه فقتلوه ، إن الحديد بالحديد يُفْلَحُ[2] ، خارَ[3] اللهُ لك فيما ارتأيت ، والسلام عليك » .

فأبى عبد الملك إلا عرْضَ ذلك على أهل العراق إرادةَ العافية من الحرب ، فجمعهم عبد الرحمن ، وحثَّهم أن ينتهزوا تلك الفرصة ، ويقبلوا ما عُرِضَ عليهم ، فأبَوا وركِبوا رءوسهم ، وقالوا : لا واللهِ لا نقبل ، وأعادوا خلع عبد الملك ثانية ، وبرَزوا للقتال ، فوقعت بينهم وبين الحجاج بدير الجَماجم مواقع هائلة استمرت مائة يوم ، وانتهت بهزيمة ابن الأشعث وجنده (فى ١٤ من جمادى الآخرة سنة ٨٣) . (تاريخ الطبرى ٨ : ١٦)

---

(١) انظر ص ٣٠٦ من الجزء الأول .

(٢) أى يشق ويقطع . (٣) أى جعل لك فيه الخير .

٢٣٦ — كتاب الحجاج إلى قتيبة بن مسلم

ولما انهزم الناس يوم دير الجماجم ، قال الحجاج : اتركوهم فليتبدَّدوا ولا تتبعوهم ، ونادى مناديه : مَن رَجَع فهو آمن ، ومن لَحَق بقُتَيْبَة ابن مُسْلِم بالرَّيِّ فهو أمانُه ، فلَحِق ناس كثير بقتيبة ، وكان فيمن لَحِق به عامِرٌ الشَّعْبي [١] ، فذكرَ الحجّاج الشَّعبيَّ يوما ، فقال : أين هو ؟ وما فعل ؟ فقيل له : إنه لَحِق بقتيبة بالرَّيِّ ، فكتب الحجاج إلى قتيبة :

« أما بعدُ ، فابعث إلىّ بالشَّعبيِّ حين تنظر فى كتابى هـذا ، والسلام عليك » فسُرِّح إليه ، فلما دخل عليه اعتذر إليه ، فقبِل منه الحجاج وعفا عنه .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٣١)

٢٣٧ — كتاب عبد الملك إلى الحجاج

ودخل الحجاج الكوفة بعد وقعة دير الجماجم ، وأقبل الناس يبايعونه ، وكان عبد الملك كتب إليه فى أسرى دير الجماجم : «أن يَعْرِضهم على السيف ، فمن أقَرَّ منهم بالكفر بخروجه علينا فخلِّ سبيله ، ومن زعم أنه مؤمن فاضرِبْ عنقه » فكان الحجاج لا يبايعه أحد إلا قال له : أتشهد أنك قد كفرت ؟ فإذا قال « نعم » بايعَه وإلاّ قتله [٢]

(العقد الفريد ١ : ١٥١ و ٣ : ٢ ، وتاريخ الطبرى ٨ : ٢٥)

---

(١) هو أبو عمرو عامر بن شراحيل (بفتح الشين) الشعبى — نسبة إلى شعب وهو بطن من همدان — وهو كوفى تابعى جليل القدر وافر العلم توفى سنة ١٠٥ هـ . وكانت أمه من سبى جلولاء .

(٢) ورأى سعيد بن جبير (أحد كبار التابعين) فقال له : أنت سعيد بن جبير ؟ قال : نعم ، قال : لا ، بل شقى بن كسير ، قال : أمى أعلم باسمى منك ، قال : شقيت وشقيت أمك ، قال : السماء لأهل

٢٣٨ — كتاب عبد الملك إلى الحجاج

ولما أسرف الحجاجُ فى قتْل أُسارَى دير الجماجم وأعطى الأموال ، بلغ ذلك عبد الملك ، فكتب إليه :

« أما بعدُ ، فقد بلغَ أميرَ المؤمنين سَرَفُكَ فى سَفْكِ الدماء ، وتبذيرُكَ فى الأموال ، فى الباطل ، ومنعُكَ الحقّ ، ولا يحتمِلُ أميرُ المؤمنين هاتين الخَصْلتين لأحد من الناس ، وقد حَكَمَ عليك أميرُ المؤمنين : فى الدماء ، فى الخطإ الدِّية ، وفى العَمْد القَوَد[1] ، وفى الأموال رَدّها إلى مواضعها ، ثم العَمَل فيها برأيه ، فإنما أمير المؤمنين أمين الله ، وسِيَّانِ عنده مَنْعُ حق وإعطاء باطلٍ ، فإن كنت أردتَ الناس له فما أغناهم عنك ، وإن كنت أردتَهم لنفسك فما أغناك عنهم ، وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران : لِينٌ وشِدَّةٌ ، فلا يُؤْنِسَنّك إلا الطاعةُ ، ولا يُوحِشَنّك إلا المعصية ، وظُنَّ بأمير المؤمنين

النار ، قال : أكافر أنت أم مؤمن ؟ قال : ما كفرت بالله منذ آمنت به ، قال : اضربوا عنقه .

وجاء إليه رجل من خثعم كان معتزلا الناس جميعا من وراء الفرات ، فسأله عن حاله ، فقال : مازلت معتزلا منتظرا أمر الناس حتى ظهرت (أى غلبت) فأتيتك لأبايعك مع الناس ، فقال : أمتربص ؟ أتشهد أنك كافر ؟ قال : بئس الرجل أنا إن كنت عبدت الله ثمانين سنة ثم أشهد على نفسى بالكفر ، قال : إذن أقتلك ، وضرب عنقه .

وأتى بشيخ وشاب فقال للشاب : أمؤمن أنت أم كافر ؟ قال : بل كافر ، قال : لكن الشيخ لا يرضى بالكفر ، فقال له الشيخ : أعن نفسى تخادعنى يا حجاج ؟ والله لو كان شىء أعظم من الكفر لرضيت به ، فضحك الحجاج وخلى سبيلهما . وفى رواية أخرى أنه أتى برجل فقال الحجاج : إنى أرى رجلا ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر ، فقال : أخادعى عن نفسى ؟ أنا أكفر أهل الأرض وأكفر من فرعون ذى الأوتاد ، فضحك الحجاج وخلى سبيله .

(١) القود : القصاص .

كلَّ شيء إلا احتمالَك على الخَطَإ ، وإذا أعطاك الظَّفَر على قوم فلا تقتلنَّ جانحا ولا أسيرا » وكتب فى أسفل كتابه :

إذا أنت لم تَطْلُبْ أمورا كَرِهْتَها ... وتطلب رضائى بالذى أنت طالبُهْ

وتخشَى الذى يخشاه مِثْلِيَ هاربًا ... إلى ٱللّٰهِ منه ، ضيَّع الدّرَّ حالبُه[1]

فإن تَرَ منى غَفْلةً قُرَشِيَّةً ... فيارُبَّما قد غَصَّ بالماء شارِبُه

وَإِنْ تر منّى وثْبَةً أَمَوِيَّةً ... فهذا وهذا كلٌّ ذا أنا صاحِبُه

فلا تَلْحَيَنِّى والحوادثُ جَمَّةٌ ... فإنك مجزىٌّ بما أنت كاسِبُه[2]

ولا تَعْدُ ما يأتيك منى ، وإن تَعُدْ ... يقومُ بها يوما عليك نوادبُه

ولا تَدْفَعَنْ للناس حَقا عَلِمْتَه ... ولا تعطِيَنْ ما ليس لله جانبُه

(مروج الذهب ٢ : ١٣٦ ، وأدب الكتاب ص ٢٣٦)

٢٣٩ — رد الحجاج على عبد الملك

فلما قرأ الحجاج كتابه كتب إليه :

« أما بعدُ ، فقد أتانى كتابُ أمير المؤمنين يذكر فيه سَرَفى فى الدماء ، وتبذيرى فى الأموال ، ولعَمْرِى ما بلغتُ فى عقوبة أهل المعصية ما هم أهلُه ، وما قضيْتُ حقَّ أهل الطاعة بما استحقّوهُ ، فإن كان قَتْلى أولئك العُصَاةَ سَرَفا ، وإعطائى أولئك المطيعين تبذيرا ، فلْيُسَوِّغْنى[3] أمير المؤمنين

---

(١) الدر : اللبن .

(٢) فى الأصل « فلا لمى » وإنه لا يستقيم به البيت ، وأرى أنه محرف عن « فلا تلحينى » وهو بمعناه

(٣) يقال : سوّغه ما أصاب أى تركه له خالصا ، والمعنى : فليقرّنى على ما فعلته ، وفى [illegible]

ما سَلَف ، ولْيَحُدَّ لى فيه حدا أنتهى إليه إن شاء الله تعالى، ولا قوة إلا بالله ، ووالله ما علىَّ من عَقْلٍ(١) ولا قَود ، ما أصبتُ القومَ خطأً فأَفدِيَهم ، ولا أعطيتُهم إلا لك ، ولا قتلتُ إلا فيك ، وأما ما أنا مُنتظِرُه من أمْرَيك ، فألينُهُما عِدَةٌ ، وأعظمُهما مِحْنَةٌ ، فقد عبَّأت للعدةِ الجِلاد ، وللمِحْنة الصبر ،

وكتب فى أسفل كتابه :

إذا أنا لم أَتْبَعْ رِضاكَ وَأَتَّــقِى ... أَذَاكَ ، فيومِى لا تَزُول كواكِبُهْ

وما لِامْرِئٍ بعد الخليفةِ جُنَّةٌ ... تَقِيه من الأمرِ الذى هو كاسِبُه(٢)

أُسَالِمُ مَنْ سالمتَ من ذى قرابةٍ ... ومَنْ لم تُسالِمْه فإنى محارِبُه

إذا قارفَ الحجاجُ منك خطيئةً ... فقامتْ عليه فى الصباح نَوادِبُه(٣)

إذا أنا لم أُدْنِ الشفيقَ لنُصْحِهِ ... وأُقْصِ الذى تَسْرِى إلىَّ عقاربُه

فمن ذا الذى يرجو نَوالى ، ويتَّقِى ... مُصاوَلَتِى ؟ والدهرُ جَمٌّ نوائِبُه

فقِفْ بى علىحَدّ الرضا لا أَجُوزُه ... مدَى الدهرِ حتى يَرْجِعَ الدَّرَّ حالِبُه(٤)

وإلاّ فدَعْنِى والأمورَ ، فإننى ... شَفِيقٌ رَفيق أَحْكَمَتْنِى تجارِبُه

فلما انتهى كتابه إلى عبد الملك قال : خاف أبو محمد صَوْلَتى ، ولن أعود لشىء يكرهه (مروج الذهب ٢ : ١٢٧ ، وأدب الكتاب ص ٢٣٦)

الكتاب : « فإن رأى أمير المؤمنين أن تمضى لى سالفى ، ويأمرنى بما أحب فى مستأنفى ، فعل إن شاء الله » .

(١) العقل : الدية . (٢) الجنة : الوقاية .

(٣) قارف الذنب : اقترفه ، ونوادبه : دواعيه .

(٤) يرجع : يرد ، والدرّ : اللبن ، أى حتى يرد الحالب الدر فى الضرع وهو مستحيل ، والمعنى : لا أجوزه أبدا ، ومن الأمثال « حتى يرجع الدر فى الضرع » يضرب لما يستحيل كونه .

٢٤٠ — كتب الحجاج إلى رتبيل

وما زال ابن الأشعث ينهزم من بلد إلى بلد حتى دخل بلاد رتبيل ، فأنزله عنده وأكرمه وعظّمه ، فكتب الحجاج إلى رتبيل :

« أما بعدُ : فإني قد بعثتُ إليك عُمارةَ بن تميم[1] فى ثلاثين ألفاً من أهل الشأم ، لم يخالفوا طاعةً ، ولم يخلعوا خليفة ، ولم يتّبعوا إمام ضَلالة ، يَجْرِى على كل رجل منهم فى كل شهر مائةُ درهم ، يستطعِمُون الحرب استطعاما ، يطلبون ابن الأشعث » .

فأبَى رتبيل أن يسلمه ، وتتابَعَتْ كُتُب الحجاج إليه فى ابن الأشعث أن :

« ابْعث به إلىّ ، وإلاَّ فوالذى لا إله إلا هو لأُوطِئَنَّ أرضَك ألف ألفِ مقاتل »

ثم عاهده الحجاج لَيَكُفَّنّ الخراجَ عن أرضه سبع سنين على أن يدفع إليه ابن الأشعث ، فوجّه به إليه ، فألقى ابن الأشعث نفسه من فوق قصر فمات ، فاحتَزَّ رتبيل رأسه ، وبعث به إلى الحجاج ، وكتب إليه : « أنه أخذ ثمانية عشر رجلا من أهل بيت عبد الرحمن » . فكتب إليه :

« أن اُضْرِب رقابهم وابعث إلىَّ برءوسهم » .

وكَرِه أن يؤتَى بهم إليه أحياء فيُطاب فيهم إلى عبد الملك ، فيترك منهم أحدا ، وكان ذلك سنة ٨٥ هـ . (تاريخ الطبرى ٨ : ٤٠)

---

(١) كان على سجستان .

٢٤١ — كتاب عبد الملك إلى الحجاج

وروى أنه لما هَزَم الحجّاج ابْنَ الأشعث ، كتب إليه عبد الملك :

« أما بعدُ : فما لَكَ عندى مثل إلا قِدْحُ ابنِ مُقْبِل[1] » .

٢٤٢ — كتاب الحجاج إلى قتيبة بن مسلم

فلم يدْرِ الحجاج ما أراد ، فكتب إلى قُتَيْبة بن مُسْلِم الباهليّ ـ وكان عالمًا برواية الشعر ـ :

« إن ابن مُقْبِل من أهلِكَ ، وقد كتب إلىّ أمير المؤمنين بكذا ، فعرِّفنى قِدْحَه » .

٢٤٣ — رد قتيبة على الحجاج

فكتب إليه قتيبة :

« إن هذا القِدْح فاز تسعين مرةَ[2] ، لم يخِبْ فيها مرةَ واحدة ، حتى ضُرِب به المَثَل[3] ، فقال ابن مقبل ينْعتهُ :

خَرُوجٌ من الغُمَّى إذا صُكَّ صَكَّةً   بَدَا والعُيونُ المستكِفّةُ تَلْمَحُ[4]

---

(١) هو تميم بن مقبل ، شاعر مخضرم ، والقدح : السهم الذى يستقسم به ، على عادة العرب فى الميسر .

(٢) وفى شرح العيون « سبعين مرة » . (٣) يقال : « قدح ابن مقبل » .

(٤) الغمى : الشديدة من شدائد الدهر لا يتجه لها ، ويقال : إنهم لفى غمى من أمرهم : إذا كانوا فى أمر ملتبس ، وفى الأصل « جمهرة الأمثال » العمى بالعين المهملة وهو تصحيف ، وصكه : ضربه .

مُفَدًّى ، مُؤَدًّى باليَدَيْن ، مُنَعَّمٌ خَلِيعُ قِدَاحٍ فائزٌ مُتَمَنِّحُ(١)
غَدَا وهو مَجْدولٌ فراحَ كأنه من المَسِّ والتَّقليبِ بالكَفِّ أفْطَحُ(٢)
إذا امْتَنَحَتْه من مَعَدٍّ قَبِيلةٌ غَدَا رَبُّه قبلَ المُفِيضِين يَقْدَحُ(٣)

« جمهرة الأمثال ٢ : ١٩ ، وسرح العيون ص ١٢٨ »

٢٤٤ — كتاب الحجاج إلى المهلب

وولَّى الحجاجُ المهلَّبَ خُراسانَ سنة ٧٨ هـ كما قدمنا ، فلما كانت سنة ٨٠ هـ قطع المهلبُ نهر بَلْخ فنزل على « كَشّ » وأقام بها سنتين ، ثم صالح أهلها على فِدْية ، واتهم وهو بكش قومًا من مُضَر فحبسهم بها ، فلما قَفَل وصار صُلْح خلّاهم ، فكتب إليه الحجاج :

« إن كنتَ أصبتَ بحَبْسهم فقد أخطأتَ فى تخليتهم ، وإن كنت أصبت بتخليتهم فقد ظلمتهم إذ حبستهم »

فقال المهلَّب : « خفتُهم فحبستهم ، فلما أمنْتُ خلّيتهم » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٣)

واستكففه : استوضحه بأن تضع يدك على حاجبك كمن يستظل من الشمس ، واستكفوا حوله : أحاطوا به واجتمعوا حوله ينظرون إليه .

(١) مؤدى باليدين . أى شمل اليدين كأنهما لابسا واحده ، اعتزازا به وتقديرا لأموره ، والخليع القدح الفائز أولا (وهو أيضا قدح لا يسور) وتمنح المال : أطعمه غيرى ، وفى حديث أم زرع « وآكل فأتمنح » أى أطعم غيرى ، وهو تفعل من المنح : أى العطية ، والمراد أنه يمنح ويعطى من يستعيره مما به .

(٢) الأفطح : العريض .

(٣) امتنحته : طلبت أن تمنحه أى استعارته ، وفى جمهرة الأمثال وشرح العيون « امتنحته » وهو تحريف ، والتصحيح عن لسان العرب ، مادة « منح » والمنيح (كأمير) : قدح من قداح الميسر يؤثر بفوزه ، فاستعار لمن يؤثر بفوزه ، وقال : المنيح منها : الذى لا نصيب له ، وقد ذكر أن مثل القدح

٢٤٥ — كتاب المهلب إلى حريث بن قطبة

وقَفَل المهلبُ من « كَشّ » وخلَّف حُرَيثَ بن قُطْبَةَ وقال له : إذا استوفيتَ الفِدية فردَّ عليهم الرُّهُنَ ، وقطع النهرَ فلما صارَ ببلخ أقام بها وكتب إلى حريث : « إنى لست آمَنُ إن رَدَدْتَ عليهم الرُّهُنَ أن يُغيروا عليك ، فإذا قبضْتَ الفِديةَ فلا تُخلِّ الرُّهُنَ حتى تقدَم أرضَ بلخ » .

(تاريخ الطبرى ٨ : ١٨)

٢٤٦ — كتاب يزيد بن المهلب إلى الحجاج

وتوفى المهلب سنة ٨٢ هـ فولَّى الحجاج خراسانَ أبنَه يزيد ، وفى سنة ٨٤ هـ غزا يزيدُ « بَاذَغِيس[١] » فصالحه ملكها « نيزك » على أن يدفع إليه مافى قلعته من الخزائن ، ويرتحل عنها بعياله[٢] ، وكتب يزيد إلى الحجاج بالفتح — وكانت كتب يزيد إلى الحجاج يكتبها يحيى بن يَعْمَر العَدْوانى — فكتب :

« إنَّا لَقِينا العدوَّ ، فمنَحَنا اللهُ أكتافَهم ، فقتلْنا طائفةً ، وأسَرْنا طائفةَ ، ولَحِقَتْ طائفةٌ برءوس الجبال ، وعراعِرِ[٣] الأودية ، وأَهْضَام الغِيطَانِ ، وأثْنَاءِ الأنهار » .

المستعار: الذى يتبرك بفوزه إذا امتحنه .... البيت » وأفاض القداح وبها : ضرب بها ، والمعنى: أنهم إذا استعاروا هذا القدح غدا صاحبه يقدح النار لعمل اللحم قبل خروجه ثقة بفوزه .

(١) ناحية تشتمل على قرى من أعمال هراة .

(٢) وفى ذلك يقول كعب بن معدان الأشقرى من قصيدة :

نفى نيزكا عن باذغيس ، ونيزك بمنزلة أعيا الملوك اغتصابها

(٣) عراعر: جمع عرعرة بضم العينين ، وعرعرة كل شىء: أعلاه ، وأهضام: جمع هضم بالفتح وبكسر

وقال أبو العباس المبرِّد فى الكامل عقب شرحه : « وعرار الأقوام » الواردة فى كتاب ابن الأشعث السابق :

ومن ذلك كتاب يزيد بن المهلَّب إلى الحجاج بن يوسف :

« وإنّ العدوَّ نزل بعُرْعُرة الجبل ، ونزلْنا بالحَضِيض[1] » .

ورواية الجاحظ فى البيان والتبيين :

« إنا لقِينا العدو . فقتلْنا طائفةً ، وأسَرْنا طائفة ، ولَحِقت طائفة بعَرائر[2] الأودية ، وأهضام الغيطان ، وبتنا بعُرْعُرة الجبل ، وبات العدو بحضيضه » .

فقال الحجاج : مايزيدُ بأبى عُذْرة هذا الكلام[3] ، فَمَن هناك ؟ قيل : يحيى بن يَعْمَر ، فكتب إلى يزيد أن نُشْخِصه إليه[4] .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٣٩ ، والكامل للمبرد ١ : ١٣٣ ، والبيان والتبيين ١ : ٢٠١)

وهو المطمئن من الأرض ، وبطن الوادى وأسفله ، والغيطان جمع غائط : وهو المطمئن الواسع من الأرض ، وأثناء جمع ثنى بالكسر ، وثنى النهر : منعطفه .

(١) الحضيض : القرار من الأرض عند منقطع الجبل .

(٢) فسره الجاحظ فقال : « عرائر الأودية : أسافلها » ولم أجده فى كتاب اللغة ، والذى فى لسان العرب : « وعرّا الوادى شاطئاه » مثنى « عر » كفعل ، ويلاحظ أنه لا يجمع قياسا على عرائر .

(٣) العذرة : البكارة ، وافتضاض الجارية ، يقال : فلان أبو عذر فلانة وأبو عذرتها : إذا كان افترعها وافتضها ، وما أنت بأبى عذرة هذا الكلام : أى لست أول من اقتضبه .

(٤) فحمله يزيد على البريد فقدم عليه أفصح الناس ، فقال له : أين ولدت ؟ قال : بالأهواز ، قال فأنى لك هذه الفصاحة ؟ قال : حفظت كلام أبى وكان فصيحا ، قال : من هناك ؟ فأخبرنى : هل يلحن عنبسة بن سعيد ؟ قال : نعم كثيرا ، قال : ففلان ؟ قال : نعم ، قال : أفتسمعنى ألحن ؟ قال : الأمير أفصح من ذلك ، فأعاد عليه القول وأقسم عليه ، فقال يحيى : نعم تلحن لحنا خفيا تزيد حرفا وتنقص حرفا ، وتجعل أن فى موضع إن ، وإن فى موضع أن ، قال : قد أجلتك ثلاثا ، فإن أجدك بعد ثلاث بأرض العراق قتلتك ، فرجع إلى خراسان .

ومما تصل بذلك ما أورده ابن خلكان فى ترجمة الشعبى فى وفيات الأعيان ١ : ٢٤٤ قال : « ويقال إن الحجاج قال له يوما . كم عطاءك فى السنة ؟ قال : ألفين ، قال : ويحك ! كم عطاؤك ؟ فقال : ألفان ، قال : كيف لحنت أولا ؟ قال . لحن الأمير فلحنت ، فلما أعرب أعربت ، وما أمكن أن يلحن الأمير وأعرب أنا ، فاستحسن ذلك منه وأجازه » .

٢٤٧ — كتب بين الحجاج وعبد الملك ويزيد والمفضل ابنى المهلب

وظهرت مَناقب يزيد وعَظُمت آثاره ، فحسده الحجاج وعمل على عزله ، ولم يكن يتخوف بعد ابن الأشعث غيرَه ، واتفق أن وفد الحجاج إلى عبد الملك ، ثم عاد إلى العراق فمرّ فى مُنْصَرَفه بدَير فنزله ، فقيل له : إن فى هذا الدير شيخا من أهل الكُتُب عالما ، فدعا به وسأله : أتعلَمُ ما إلىَّ ؟ قال : نعم ، قال : فمن يَليه بعدى ؟ قال : رجل يقال له يزيد ، فوقع فى نفسه أنه يزيد بن المهلَّب ، وارتحل وهو وَجِل من قول الشيخ ، وقَدِم فكتب إلى عبد الملك يستعفيه من العراق ، فكتب إليه :

« يابنَ امِّ الحجاج قد علِمْتُ الذى تَغْزُو[1] ، وإنك تريد أن تعلم رأيى فيك ، ولعَمْرى إنى لأرَى مَكانَ نافع بن عَلْقَمة ، فالْهُ عن هذا حتى يأتى اللهُ بما هو آتٍ » .

وأَجْمَعَ الحجاج على عزل يزيد ، فلم يجد له سببا ، حتى قَدِم الخِيار ابن سَبْرة — وكان من فُرسان المهلب ، وكان مع يزيد — فقال له الحجاج : أخبِرْنى عن يزيد ، قال : حَسَنُ الطاعة ، ليِّن السيرة ، قال : كَذَبتَ ، اُصدُقْنِى عنه ، قال : اللهُ أجلُّ وأعظم ، قد أَسْرج ولم يُلْجِمْ ، قال : صدقت ، ثم كتب إلى عبد الملك : اشير عليه بعزل يزيد بن المهلَّب ، ويخبره بطاعة آل المهلَّب لابن الزبير ، وأنه لا وفاءَ لهم .

---

(١) غزاه غزوا : أراده وطلبه وقصده ، ومنه : مغزى الكلام : أى مقصده .

فكتب إليه عبد الملك :

« إنى لا أرى نقصًا بآل المهلَّب طاعتَهم لآل الزُّبَيْر ، بل أراه وفاءً منهم لهم ، وإن وفاءهم لهم يدعوهم إلى الوفاء لى » .

فكتب إليه الحجاج يخوّفه غدرَهم لما أخبره به الشيخ .

فكتب إليه عبد الملك « قد أكثرت فى يزيد وآلِ المهلّب ، فسَمِّ لى رجلا يصلُحُ لخُراسان » .

فسمّى له مُجَّاعة بن سِعْر[1] السَّعْدى - ولم يكن يصلح ، وإنما جعل ذلك دهاء منه حتى لا يعرف ميله إلى قتيبة بن مسلم - .

فكتب إليه عبد الملك : « إنّ رأيك الذى دعاك إلى استفساد آل المهلّب ، هو الذى دعاك إلى مُجَّاعة بن سِعر ، فانظر لى رجلا صارما ماضيا لأمرك » .

فسمَّى له قُتَيْبة بن مُسْلِم ، فكتب إليه « ولِّه » .

وبلغ يزيد أن الحجاج عزله ، فقال لأهل بيته : مَنْ تَروْن الحجاج يُولِّى خُراسانَ ؟ قالوا : رجلا من ثقيف ، قال كلا ، ولكنه يكتب إلى رجل منكم بعهده ، وإذا قدمْتُ عليه عَزَلَه وولّى رجلا من قيس ، وأخلِقْ بقُتَيْبَة

ولما أذن عبد الملك للحجاج فى عزل يزيد كره أن يكتب إليه بعزله . فكتب إليه : « أن استخلِف المفضّل وأقبِلْ » .

---

(١) وفى شرح العيون « مسعر » .

فاستشار يزيد حُضينَ بن المنذر ، فقال له : أقِمْ واعتَلَّ ، فإن أمير المؤمنين حَسَن الرأى فيك ، وإنما أُتيتَ من الحجاج ، فإن أقمت ولم تعجَلْ رجوت أن يكتب إليه أن يُقرَّ يزيد ، قال : إنا أهل بيت بُورِكَ لنا فى الطاعة ، وأنا أكره المعصية والخلاف ، فأخذ فى الجهاز ، وأبطأ ذلك على الحجاج ، فكتب إلى المفضَّل « إنى قد وليتك خراسان » .

فجعل المفضَّل يستحثّ يزيد ، فقال له يزيد : إن الحجاج لا يُقِرُّك بعدى ، وإنما دعاه إلى ما صنع مخافةَ أن أمتنع عليه ، قال : بل حَسَدتنى ، قال يزيد : يابن بَهْلَة[1] : أنا أحسُدُك ! ستعْلَم ، وخرج يزيد فى ربيع الآخر سنة ٨٥ ، فعزل الحجاج المفضل ، وولّى قُتَيْبة بن مُسْلِم .

وفى رواية أخرى أن الحجاج كتب إلى يزيد « أن اغْزُ خُوارَزْم » .

فكتب إليه : « أيها الأمير إنها قليلة السَّلَب[2] ، شديدة الكَلَب » .

فكتب إليه الحجاج : « استخلِفْ واقْدَمْ » .

فكتب إليه : « إنى أريد أن أغزوَ خُوارَزْم » .

فكتب إليه : « لا تغزُها فإنها كما وصفت » .

فغزا ولم يطعه ، فصالحه أهل خوارزم وأصاب سبْيًا مما صالحوه ، وقفل فى الشتاء فاشتد عليهم البرد ، فأخذ الناس ثياب الأسرى فلبسوها ، فمات ذلك السبي من البرد ، فكتب إليه الحجاج أن « اقْدَم » فقدِمَ .

(تاريخ الطبرى ٨ : ٤٢ ، وشرح العيون ص ١٢٤)

---

(١) هى أم المفضل وأخيه عبد الملك وهى هنائية ، — انظر تاريخ الطبرى ٨ : ٧٢ — وأما يزيد فأمه « رحمة » — انظر البيان والتبيين ٢ : ٦٧ والعقد الفريد ٢ : ١٥٥ — .

(٢) السلب : ما سلب ، والكلب فى الأصل سعار وداء شبه الجنون يصيب الكلاب ، ويقال : دفعت عنه كلب فلان أى شره وأذاه ، ومعناه هنا ما نال المحاربين من المتاعب والشدائد .

٢٤٨ — كتاب الحجاج إلى أعراب قطعوا الطريق

وبلغ الحجاجَ أن قومًا من الأعراب من عمرو بن تميم وحَنْظلة يفسدون الطريق، فكتب إليهم:

« من الحجاج بن يوسف، أما بعد فإنكم قد استخلصتم[1] الفتنةَ، فلا عن حقٍّ تُقاتِلون، ولا عن مُنكَر تَنْهَوْنَ، وأيمُ الله إنى لأَهُمُّ أن يكون أوّلَ ما يَرِدُ عليكم من قِبَلى، خَيْلٌ تنسِفُ الطَّارِفَ والتالد[2]، وتدَعُ النِّساءَ أيامَى[3]، والأبناء يَتامَى، والدّيارَ خَرابًا، والسوادَ بياضًا، فأيُّما رُفقةٍ[4] مرّت بأهلِ ماء، فأهلُ ذلك الماء ضامِنون لها، حتى تَصِيرَ إلى الماء الذى يَليه، تَقْدِمة منى إليكم، والسعيد من وُعِظ بغيره، والسلام »:

فلما بلغهم كتابُه كَفُّوا عن الطريق.

(البيان والتبيين ١ : ٢١٢، والعقد الفريد ١ : ١٧)

٢٤٩ — كتاب الحجاج إلى عبد الملك

وكتب الحجاج إلى عبد الملك بن مَرْوان:

« وبلغنى أن أمير المؤمنين عَطَسَ عَطْسَةً، فشَمَّتَه[5] قوم، فقال:

---

(١) استخلصه: أخذه. استخلصه، وفى رواية العقد الفريد « قد استحليتم الفتنة ».

(٢) الطارف: المال المستحدث، والتالد: المال القديم الأصلى الذى ولد عندك.

(٣) الأيامى: من لا أزواج لهم من الرجال والنساء، الواحد منهما أيم كطيب، سواء كان تزوج من قبل أو لم يتزوج، وامرأة أيم بكرا كانت أو ثيبا.

(٤) الرفقة مثلثة: الجماعة ترافقهم فى سفرك، والجمع رفق.

(٥) التشميت والتسميت: الدعاء للعاطس.

« يغفر الله لنا ولكم » ، فـ « يَالَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزاً عَظِيماً » .

(الكامل للمبرد ١ : ٢٤٨ ، والعقد الفريد ٣ : ٢٠)

٢٥٠ — كتاب الحجاج إلى عبد الملك

وكتب الحجاج إلى عبد الملك بن مروان :

« أما بعدُ : فإنّا نُخبر أمير المؤمنين أنه لم يُصِبْ أرضَنا وَابِلٌ(١) منذُ كتبْتُ أُخْبِرُه عن سُقْيا الله إيانا ، إلا ما بَلَّ وَجْهَ الأرض من الطَّشِّ(٢) والرَّشِّ والرَّذَاذِ ، حتى دَقِعَت(٣) الأرض واقشعرَّت واغبَرَّت ، وثارَتْ فى نواحيها أَعاصِيرُ(٤) تَذْرُو دُقاقَ الأرض من ترابها ، وأمسكَ الفلاّحون بأيديهم ، من شدة الأرض واعْتِزازها(٥) وامتناعها ، وأرضُنا أرضٌ سريعٌ تغيُّرها ، وشِيكٌ(٦) تنكُّرُها ، سيِّئٌ ظنُّ أهلها عند قُحُوط المطر ، حتى أرسل الله بالقَبُول(٧) يوم الجمعة ، فأثارَتْ زِبْرِجا متقطِّعا متمصِّرًا ، ثم أعقبَتْه الشَّمالُ يومَ السبت ، فطَحْطَحَتْ(٨) عنه جَهامَه ، وألَّفَتْ متقطِّعه ، وجمَّعت متمصِّرَه ،

---

(١) الوابل والوبل : المطر الشديد الضخم القطر .

(٢) الطس والطشيش : المطر الضعيف ، وهو فوق الرذاذ .

(٣) الدقعاء كحمراء : الأرض لا نبات بها ، والتراب ، ويقال : دقع الرجل كفرح وأدقع إذا لصق بالدقعاء فقرا ، والمعنى : قد صارت الأرض دقعاء جرداء خالية من الزرع . واقشعرت الأرض : تقبضت وتجمعت من المحل والجدب .

(٤) الأعاصير : جمع إعصار بالكسر ، وهو الريح التى تهب من الأرض كالعمود نحو السماء ، وذرته الريح التراب تذروه : أطارته وأذهبته ، والدقاق ، بالضم ، فتات كل شىء .

(٥) أى شدتها وصلابتها ، والذى فى كتب اللغة عزز الشىء واستعزز : اشتد وصلب وغلظ ، وعزز عليه واستعزز ، استصعب . (٦) أى سريع .

(٧) القبول : ريح الصبا . والزبرج : السحاب الرقيق فيه حمرة . ومتمصرا : أى قليلا متفرقا ، والشمال : الريح تهب من ناحية القطب .

(٧) طحطح : فرّق وبدّد ، والجهام : السحاب الذى لا ماء فيه ، أو الذى قد هراق ماءه .

حتى انتضَد[1] فاستوَى ، وطَمَى وطَحَى ، وكان جَوْنا مُرْثعِنًّا قريبًا رَواعِدُه ، واعتدَّت عوائدُهُ بوابلٍ منهملٍ مُنْسَجِل ، يَرْدَف[2] بعضُه بعضاً ، كلما أَرْدَفَ شُؤْبُوبٌ ارتَدَفَتْه شآبِيبُ ، لشدة وَقْعه فى العِرْض .

وكتبتُ إلى أمير المؤمنين ، وهى تَرْمِى بمثل قِطَع القُطْن ، قد ملأَ اليَبَابَ[3] ، وسَدَّ الشِّعابَ ، وسقى منها كل ساقٍ ، فالحمد لله الذى أنزل غيثَه ، ونشَرَ رَحْمَتَه من بعد ما قَنَطوا ، وهو الولىُّ الحَمِيدُ » .

(البيان والتبيين ٣ : ٢٣٥)

٢٥١ — كتاب الحجاج إلى عبد الملك

وكتب الحجاج إلى عبد الملك يُشير عليه أن يستكتب محمد بن يزيد الأنصارى ، وكتب إليه :

« إن أردتَ رجلا مأمونَا ، فاضلاً ، عاقلاً ، وَديعا ، مُسْلِمًا ، كتُوما ، تتخذه لنفسك ، وتَضَع عنده سِرَّك ، وما لا تحبُّ أن يظهرَ ، فاتخذ محمد ابن يزيد » .

فكتب إليه عبد الملك « احْمِلْه إلىّ » فحَمَله فاتخذه عبد الملك كاتبا :

---

(١) من نضد المتاع : إذا جعل بعضه فوق بعض ، وأنضاد السحاب : ما تراكم وتراكب منه ، وطمى البحر كرمى وعلا : امتلأ ، وطحى كسعى : انبسط ، والجون : الأسود (والأبيض أيضا) وارثعن المطر : ثبت وجاد ، وعوائده : روائحه ، وسحل الماء فانسحل : صبه فانصب .

(٢) ردفه كسمعه ونصره : تبعه كأردفه ، والشؤبوب : الدفعة من المطر ، وارتدفه : ردفه ، والعرض بالكسر . الوادى ، وفى الأصل « فى العراض » جمعا ، ولكن صاحب اللسان قال : « وجمعه أعراض ، لا يجاوز » .

(٣) اليباب : الخراب ، والشعاب : جمع شعب بالكسر ، وهو الطريق فى الجبل ، ومسيل الماء فى بطن أرض ، أو ما انفرج بين الجبلين .

عبد الملك ، وعَاذَ به تخوفًا من الحجاج ، واستذفاقًا لِضَرَره وشَرِّه ، فلما بلغ ذلك الحجاجَ كتب إلى عبد الملك بن مَرْوان :

« أما بعدُ : فإنّ لِواذَ[1] الْمُعْتَرِضين بك ، وحُلُولَ الجانحين إلى الْمَكْثِ بساحتك ، واستِلانتَهم دَمَثَ[2] أخلاقك ، وسَعَةَ عَفْوِك ، كالعَارِضِ[3] الْمُبْرِق لأعدائه لا يَعْدَم له شائمًا[4] ، رَجاءَ استمالةِ عفوِك ، وإذا أُدْنِىَ الناس بالصفح عن الجرائم ، كان ذلك تمرينًا لهم على إضاعة الحقوق مع كل ضالّ ، والناسُ عَبِيدُ العَصَا ، هم على الشدة أشدّ استِبْاقًا منهم على اللِّين ، ولنا قِبَلَ عُرْوَةَ بن الزُّبير مالٌ من مال اللّٰه ، وفى استخراجه منه قَطْعٌ لِطَمَعِ غيره ، فلْيَبْعَثْ به أميرُ المؤمنين إن رَأَى ذلك ، والسلام » .

فلما قرأ الكتاب ، بَعَثَ إلى عُرْوَةَ ، ثم قال له : إن كتاب الحجاج قد وَرَد فيك ، وقد أَبَى إلا إشْخَاصَك[5] إليه ، ثم قال لرسول الحجاج : شَأْنَك به ، فالتفت إليه عُروةُ مُقْبِلاً عليه ، وقال : أمَا واللّٰهِ ماذَلَّ وخَزِىَ مَن مات ، ولكن ذَلَّ وخَزِىَ مَنْ مَلَكْتُموه ! واللّٰهِ لئن كان الْمُلْكُ بِجوازِ الأمرِ ونَفَاذِ النَّهْى ، إن الحجاج لَسُلْطانٌ عليك ، يُنْفِذُ أُمورَه دون أُمورِك ، إنك لَتُرِيد الأمرَ يَزِينُك عاجِلُه ، وَيَبْقَى لك أُكرومةً[6] آجِلُه ، فيَجْذِبُك

---

(١) لاذ به لوذا ولواذا ولياذا ، لجأ إليه وعاذ به ، وفى الأصل « لوذان » ولم أجده فى كتب اللغة مصدرا ، وإنما الذى فيها : « ويقال هو بلوذان كذا بفتح اللام وسكون الواو أى بناحية كذا » ومعناه هنا غير مناسب ولذا جعلته (لواذا) .

(٢) دمث دمثا كفرح فهو دمث : لان وسهل . والدماثة : سهولة الخلق .

(٣) العارض : السحاب المعترض فى الأفق .

(٤) شام البرق : نظر إليه أين يقصد وأين يمطر ؟ . (٥) إرسالك .

(٦) الأكرومة : فعل الكرم ، أفعولة من الكرم كأعجوبة من العجب .

عنه ، ويلقاه دونك ، ليتولىَّ من ذلك الحُكْمَ فيه ، فيَحْظَى بشرفِ عفوٍ إن كان ، أو بجُرْمِ عقوبةٍ إن كانت ، وما حارَبَك مَنْ حاربك إلا على أمرٍ هذا بَعْضُه .

فنظر فى كتاب الحجاج مرةً ، ورفع بَصَرَه إلى عُرْوة تارةً ، ثم دعا بدَوَاة وقِرْطاس ، فكتب إليه :

٢٥٧ — رد عبد الملك على الحجاج

« أما بعدُ : فإن أمير المؤمنين رآك ـ مع ثِقَته بنصيحتك ـ خابِطًا فى السِّياسة خَبْطَ عَشْواءِ[1] الليل ، فإن رَأْيَك الذى يُسَوِّل لك أن الناس عَبيدُ العصا ، هو الذى أخرج رِجالاتِ العرب إلى الوثوب عليك ، وإذا أحْرَجْتَ العامة بعُنْفِ السياسة ، كانوا أوشكَ[2] وُثُوبًا عليك عند الفُرْصة ، ثم لا يلتفتون إلى ضلال الداعِى ولا هُداه ، إذا رجَوْا بذلك إدراكَ الثَّأر منك ، وقد وَلِيَت العراقَ قبلَك ساسَةٌ ، وهم يومئذ أَحْمَى أنوفا ، وأقربُ من عَمْياء الجاهلية ، وكانوا عليهم أصلحَ منك عليهم ، وللشِدَّة واللِّين أهْلُون ، والإفراطُ فى العفو أفضل من الإفراط فى العقوبة ، والسلام » .

(العقد الفريد ٣ : ١٧)

---

(١) العشواء : الناقة التى لاتبصر أمامها ، فهى تخبط بيديها كل شىء . (٢) أسرع .

٢٥٨ — كتاب عبد الملك إلى الحجاج

وروى صاحب العقد الفريد قال :

حَدَّث سَعيد بن جُوَيْرِيَة قال : خرجَتْ خارجةٌ على الحجّاج أبن يوسف ، فأرسلَ إلى أنَسِ بن مالكٍ أن يَخرج معه فأبَى ، فكتب إليه يشتِمُهُ ، فكتب أنس بن مالك إلى عبد الملك بن مَرْوَانَ يشكوه ، وأدرج كتابَ الحجاج فى جَوْفِ كتابه .

قال إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر : بعث إلىّ عبد الملك بن مَرْوان فى ساعةٍ لم يكن يبْعَث إلىَّ فى مِثْلِها ، فدخلتُ عليه ، وهو أشدُّ ما كَان حَنَقا وغيظا ، فقال : يا إسمعيل ، ما أشدّ علىَّ أن تقول الرعيةُ : ضَعُف أمير المؤمنين، وضاق ذَرْعُه فى رجل من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ، لا يقْبَلُ له حَسَنةً ، ولا يتجاوَزُ له عن سيئّة . فقلت : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : أنَس بن مالك خادم رسول الله كتب إلىّ يذْكُر أن الحجاج قد أضَرَّ به ، وأساء جواره ، وقد كتبت فى ذلك كتابين : كتابا إلى أنس بن مالك والآخر إلى الحجاج ، فاقبِضْهما ثم اخرج على البَريد ، فإذا وَرَدْتَ العراق فابدَأْ بأنس بن مالك ، فادفع له كتابى ، وقل له : اشتدَّ على أمير المؤمنين ما كَان من الحجاج إليك، ولن يأتىَ إليك أمرٌ تكْرَهه إنْ شاء الله، ثم ائتِ الحجاجَ فادفع إليه كتابَه وقل له : قد اغترَرْتَ بأمير المؤمنين غِرَّةً لا أظنه يُخْطِئُك شرُّها ، ثم افهم ما يتكلم به ، وما يكون منه ، حتى تُفْهِمَنِى إياه إذا قَدِمْتَ علىَّ إن شاء الله .

قال إسماعيل : فقبضت الكتابين وخرجت على البريد ، حتى قَدِمْتُ العراقَ فبدأتُ بأنس بن مالك فى منزله ، فدفعتُ إليه كتاب أمير المؤمنين ، وأبلغتُه رسالتَه ، فدعا له وجَزَاه خيراً ، فلما فرغ من قراءة الكتاب ، قلت له : أبا حمزة ، إن الحجاج عامِلٌ ، ولو وُضِع لك فى جامِعَةٍ[1] لقَدَر أن يَضُرَّك وينفعك . فأنا أريد أن تصالحه ، قال : ذلِكَ إليكَ : لا أَخْرُجِ عن رأيك ، ثم أتيتُ الحجاج ، فلما رآنى رَحَّب بى وقال : واللهِ لقد كُنْتُ أُحِبّ أن أراك فى بلدى هذا ، قلت : وأنا واللهِ قد كنت أحبُّ أن أراك ، وأَقْدَمَ عليك بغير الذى أُرسِلْتُ به إليك ، قال : وما ذاك ؟ قلتُ : فارقْتُ الخليفةَ وهو أغضبُ الناس عليك ، قال : ولِمَ ؟ قال : فدفعتُ إليه الكتاب ، فجعل يقرؤه وجَبِينُه يَعْرَق ، فيمسحه بيمينه ، ثم قال : اركب بنا إلى أنس بن مالك ، فلت له : لاتفعلْ ، فإنى سأتلطَّف به حتى يكونَ هو الذى يأتيك ـ وذلك لِلَّذى أشرتُ عليه من مصالحته ـ قال : فألقى كتاب أمير المؤمنين ، فإذا فيه :

☆

« بسم الله الرحمن الرحيم : من عبد الله عبد الملك بن مَرْوان إلى الحجاج بن يوسف ، أما بعدُ ، فإنك عَبْدٌ طَمَتْ[2] بكَ الأمورُ فطغَيْتَ ، وعَلَوْتَ فيها حتى جُزْتَ قَدْرَك ، وعَدَوْتَ طَوْرَك[3] ، وايمُ الله يابنَ المُسْتفرِمَةِ[4] بِعَجمِ زَبيب الطائف ، لأَغمِزَنّكَ كبعض غَمَزَاتِ اللُّيُوثِ

---

(١) الحامعه : القد .

(٢) وروانة صح الأعشى « علت » وهى عه اها ، من طمى الماء إدا علا ، والىت ادا طال : أى ار ى ممسك ى الدوله وطع ت ، وفى عرر الحصائس « طمت » أى علت أيصا .

(٣) أى وحاورت حدك . (٤) انطر هامس ص ٢١٠ .

الثَّعالِبَ ، وَلأَرْكُضَنَّكَ رَكْضَةً تَدْخُل منها فى وِجارِك[١] ، اذكر مكاسِبَ آبائك بالطائف ، إذ كانوا يَنْقُلون الحجارة على أكتافهم ، ويَحْفِرُون الآبار والمناهِلَ[٢] بأيديهم ، فقد نَسِيتَ ما كنتَ عليه أنت وآباؤك من الدناءة واللؤم والضَّرَاعة[٣] ، وقد بلغ أمير المؤمنين استطالةٌ منك على أَنَس بن مالك خادمِ رسول اللّٰه صلى اللّٰه عليه وسلم ، جُرْأَةً منك على أمير المؤمنين ، وغِرَّةً بمعرفة غِيَره ونِقْماته وسَطَواته على من خالَف سبيلَه ، وعَمَدَ إلى غير مَحَجَّته[٤] ، ونَزَل عند سَخْطته .

وأظنُّك أردتَ أن تَرُوزَه[٥] بها ؛ لتعلم ما عنده من التغيير والنكير فيها ، فإن سُوِّغْتَها[٦] مضيتَ قُدُما ، وإنْ غَصِصْتَ بها ولَّيْتَ دُبُرًا ، فعليك لعنةُ اللّٰه من عَبْدٍ أخفشِ[٧] العينين ، أَصَكِّ الرِّجْلين ، ممسُوح الجَاعِرَتين ، وايمُ اللّٰه لو أن أمير المؤمنين علم أنك اجْتَرَمْتَ منه جُرْمًا ، وانتهكتَ له عِرْضاً فيما كتب به إلى أمير المؤمنين ، لبعث إليك من يَسْحَبُك ظَهْرًا

(١) الوجار فى الأصل : جحر الضبع وغيرها ، وفى صبح الأعشى « فى وجعاء أمك » والوجعاء كحمراء : الدبر .

(٢) المناهل: جمع منهل كمقعد وهو المشرب ، وفى صبح الأعشى «والمناهر» جمع منهر كمقعد أيضا وهو موضع النهر .

(٣) الذلّ . (٤) المحجة : جادة الطريق ، وفى العقد الفريد « محنته » .

(٥) راوزه روزا : جرّبه ، وفى غرر الخصائص : « وركبت داهية دهماء أردت أن تروزنى بها ، فإن سوّغتكها مضيت قدما ، وإن لم أفعل رجعت القهقرى » .

(٦) يقال : سوّغه ما أصاب : أى تركه له خالصا ، والمعنى : فإن أقرك على ما قد فعلت .

(٧) وصف من الخفش بالتحريك : وهو ضيق فى العين وضعف فى البصر خلقة ، والأصك: وصف من الصكك بالتحريك : وهو أن تضرب إحدى الركبتين الأخرى عند العدو فتؤثر فيها أثرا ، ومصك أيضا كمقص ، والجاعرتان : لحمتان تكتنفان أصل الذنب ، وهما من الإنسان فى موضع رقمتى الحمار (ويقال للكيتين السوداوين على عجز الحمار : الرقمتان) .

لبَطْنٍ ، حتى ينتهى بك إلى أَنَسِ بن مالك ، فيَحْكُمَ فيك بما أحبَّ ، ولن يَخْفَى على أمير المؤمنين نبؤُك[1] ، ولِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » .

قال إسماعيل : فانطلقتُ إلى أنسٍ فلم أزَلْ به حتى انطلق معى إلى الحجاج ، فلما دخلْنا عليه قال : يَغْفِرُ اللهُ لك أبا حَمْزَةَ ، عَجِلْتَ باللاَّئمة ، وأغضبْتَ علينا أميرَ المؤمنين ! ثم أخذ بيده ، فأجلسه معه على السرير ، فقال أنس : إنك كنت تزعم أنّا الأشرار ! واللهُ سَمَّانا الأنصار ، وقلت : إنّا من أبْخَل الناس ! واللهُ يقولُ فينا : « وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[2] » وزعَمْتَ أنّا أهلُ نِفاق ! واللهُ تعالى يقول فينا : « وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ، وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا » . فكانَ الْمَخْرَجُ والمشتكَى فى ذلك إلى الله وإلى أمير المؤمنين، فتولَّى من ذلك ماوَلاَّه اللهُ ، وعَرَفَ من حقنا ماجَهِلْتَ ، وحفِظَ منا ماضَيَّعْتَ ، وسيحكم فى ذلك رَبٌّ هو أرْضَى للمُرْضِى ، وأسخَط للمُسْخِط ، وأقْدَر على الغِيَر فى يوم لايشُوبُ الحقَّ عنده الباطلُ ، ولا النورَ الظُّلْمةُ ، ولا الْهُدَى الضلالةُ ، وَاللهِ لوأن اليهود أو النصارى رأت مَنْ خَدَمَ موسى بن عِمْرانَ أو عيسى بن مريم يوما واحدا ، لرأتْ له مالم تَرَوْا لِى فى خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم عَشْرَ سنين .

قال : فاعتذر إليه الحجاج وتَرَضَّاه حتى قَبِلَ عُذْره ، ورضى عنه ، وكتب بِرضاه وقبولِه عُذْرَه ، ولم يزل الحجاج له معظِّما هائبا له ، حتى هَلَكَ رضى الله عنه .

---

(١) وفى غرر الخصائص : « فإذا أتاك كتابى هذا فكن لأنس أطوع من عبده لسيده ، وإلا أتاك منى سهم مسكل ، ولكل نبأ ... الخ » . (٢) الخصاصة : الحاجة والفقر .

٢٥٩ — رد الحجاج على عبد الملك

وكتب الحجاج إلى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عبد الملك بن مروان ، أما بعد : أصلح الله أمير المؤمنين وأبقاه ، وسهَّل حَظَّه وحَاطَه[1] ولا أعدَمَناه ، فإن إسمعيل بن أبى المهاجر رسول أمير المؤمنين — أعزَّ الله نصرَه — قَدِم علىّ بكتاب أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه ، وجعلنى من كل مكروهٍ فِداءَهُ — يَذْكُر شَتْمى وتوبيخى بآبائى ، وتَعْيِيرى بما كان قبلَ نُزُول النعمة بِى من عند أمير المؤمنين — أتمَّ الله نعمتَه عليه ، وإحسانَه إليه — ويذكر أمير المؤمنين — جعلنى الله فِداءه — استطالةً منى على أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جُرْأةً على أمير المؤمنين ، وغِرَّةً بمعرفة غِيَره ونِقْماته وسَطَواته على من خالف سبيله ، وعَمَد إلى غير مَحَجَّته ، ونزل عند سَخْطته ، وأميرُ المؤمنين — أصلحه الله — فى قرابته من محمد رسول الله — صلى الله عليه وسلم — إمامِ الهدى وخاتمِ الأنبياء ، أحقُّ من أقال عَثْرتى ، وعفا عن ذنبى ، وأمْهَلَنى ولم يُعْجِلْنِى عند هفْوَتى ، لِلَّذى جُبِل عليه من كريم طبائعه ، وما قلَّدَه اللهُ من أمور عباده ، فرَأْىُ أمير المؤمنين — أصلحه الله — فى تسكين رَوْعتى ، وإفراج كُرْبتى ، فقد مُلِئْتُ رُعْباً وفَرَقا[2] من سَطوته ، وفُجاءة نِقْمته[3] ، وأميرُ المؤمنين — أقاله اللهُ العثراتِ ، وتجاوز

---

(١) صانه وحفظه . (٢) خوفا .

(٣) وفى صبح الأعشى « وفجآت نقماته » جمع فجأة بالضم وهى المهلكة .

له عن السيئات ، وضاعَفَ له الحسناتِ ، وأعْلَى له الدَّرجات ـ أحقُّ مَن صَفَح وَعفا ، وتغمَّد[1] وأبقى ، ولم يُشْمِتْ بى عدوًّا مُكِبًّا[2] ، ولاحسوداً مُضِبًّا[3] ، ولم يُجَرِّعنى غُصَصا ، والذى وصَفَ أميرُ المؤمنين من صَنِيعتهِ إلىّ ، وتنويهه[4] بى بما أسْنَدَ إلَىَّ من عمله ، وأوْطَأَنِى من رقاب رَعِيَّته ، فصادِقٌ فيهِ ، مَجْزِىٌّ بالشكر عليه ، والتوسُّل منى إليه بالولاية ، والتقرُّبِ له بالكفاية .

وقَد عاين إسماعيل بن أبى المهاجر رسولُ أمير المؤمنين وحاملُ كتابه ، مِنْ نزولى عند مَسَرَّة أنس بن مالك ، وخضوعى عند كتاب أمير المؤمنين ، وَإقلاقه إياى ، ودخوله بالمصيبة علىّ ، ما سيُعْلِمه أميرَ المؤمنين ويشهد إليه ، فإن رَأى أمير المؤمنين ـ طوَّقنى الله بشكره ، وأعانى على تأدية حقه ، وبلَّغنى إلى ما فيه موافقةُ مَرْضاتِه ، وَمدَّلى فى أَجَله ـ أن يأمر لى بكتابٍ مِنْ رضاه وسلامةِ صدره ، يُؤَمِّننى به من سَفْك دمى ، ويردّ ما شَرَدَ من نومى ، ويطمئنُّ به قلبى ، فَعلَ ، فقد وَرَد علىَّ أمرٌ جليلٌ خَطبُهُ ، عظيمٌ أمره ، شديدٌ علىَّ كَرْبُهُ ، أسأل الله أن لايُسْخِطَ أمير المؤمنين علىّ ، وأن يُنيله فى حَزْمه ، وعزمه ، وسياسته ، وفِراسته ، ومَواليه ، وحَشَمه ، وعُمَّاله ، وصنائعه ، مايحمَدُ به حُسْنَ رأيه ، وبُعد همته ، إنه ولىُّ أمير المؤمنين ، والذابُّ عن سلطانه ، والصانع له فى أمره ، والسلام »

---

(١) تغمد فلانا وغمده بالتشديد : ستر ما كان منه .

(٢) مكبا : أى على التعس عن سيئاتى وارتقاب ماسوى من الخطوب ، من أكب عليه إذا أقبل ولزم . (٣) الضب بالفتح والكسر : الغيظ والحقد ، وأضب : حمل الضب.

(٤) نوه فلان بفلان : إذا رفعه وطير به وقواه ، ومنه قوله :

ونوهت لى ذكرى وما كان خاملا   ولكن بعض الذكر أنبه من بعض

فحدّث إسماعيل أنه لما قرأ أمير المؤمنين الكتابَ ، قال : يا كاتبُ أَفْرِخْ رُوعَ[1] أبي محمد ، فكتب إليه بالرضا عنه .

(العقد الفريد ٣ : ١٤ ، وصبح الأعشى ٦ : ٣٨٩ و ٤٧٨ ، وغرر الخصائص الواضحة ص ٧٣)

٢٦٠ — رواية أخرى لكتاب عبد الملك

وروى أن الحجاج قال لِأَنَس بن مالك حين دخل عليه فى شأن ابنه عبد اللّه ـ وكان خرج مع ابن الأشعث ـ : «لا مَرْحَبًا بك ولا أهلا ، لَعْنَةُ اللّه عليك من شيخ جوّالٍ فى الفتنة ، مَرَّةً مع أبى تُراب[2] ، ومرةً مع ابن الأشعث ، واللّه لأَقْلَعَنَّكَ قَلْعَ الصَّمْغَة[3] ، وَلأَجْزُرَنَّكَ جَزْرَ الهُرْب[4] ، وَلأَعْصِبَنَّك عَصْبَ السَّلَمَة[5] ، وَلأُجَرِّدَنَّكَ تجريدَ الضَّبِّ[6] » .

قال أنس : مَن يَعْنِى الأميرُ، أبقاهُ اللّه ؟ قال: إياك أعنِى ، أَصَمَّ اللّهُ صَدَاكَ[7] .

قال : فكتب أنس بذلك إلى عبد الملك ، فكتب عبد الملك إلى الحجاج :

---

(١) الروع : القلب أو موضع الفزع منه ، وأفرخ روعه : أى هدئ باله وسكنه وأمنه .

(٢) كنية الإمام على كرم الله وجهه .

(٣) قال الجاحظ فى موضع آخر (ج ١ : ص ٢٠٠) : لأن الصمغة اليابسة إذا فرقت عن الشجرة انقلعت انقلاع الحلمة» (والحلمة بالضم : القشرة تعلو الجرح عند البرء) .

(٤) الهرب بالضم : ثرب البطن بالفتح ، وهو شحم رقيق يغشى الكرش والأمعاء.

(٥) السلمة: واحدة السلم، وهو شجر كثير الشوك ، قال الجاحظ أيضا(ج ٣ : ص ٢١): «وذلك لأن الأشجار تعصب أعصانها ثم تخبط بالعصى لسقوط الورق وهشيم العيدان» .

(٦) قال صاحب اللسان فى مادة جرد : « أى لأسلخنك سلخ الضب ، لأنه إذا شوى جرد من جلده ، وروى : لأجردنك بتخفيف الراء وضمها » .

(٧) أصم الله صداه أى أهلكه ، الصدى : الصوت الذى يسمعه المصوت عقب صياحه يردّه عليه الجبل أو المكان المرتفع العالى ، ثم استعير للهلاك ، لأنه إنما يجاب الحى ، فإذا هلك الرجل صم صداه كأنه لا يسمع شيئا فيجيب عنه .

« بسم ٱللّه الرحمن الرحيم ، يابنَ المُسْتَفْرِمَةِ بِعَجَمِ الزَّبيب ، وٱللّهِ لقد هَمَمْتُ أن أَرْكُلَكَ(١) برجلى رَكْلَةً تَهْوِى بها فى نار جَهنم ، وأَضْغَمكَ(٢) ضَغْمةً كبعض ضَغَماتِ الليوثِ الثعالبَ ، وأَخبِطَك خَبْطَةً تَوَدّ أنك زاحمتَ مَخْرَجَك من بطن أمك ، قاتَلَكَ ٱللّهُ(٣) أُخَيْفِشَ(٤) العينين ، أَصَكَّ الرجلين ، أَسْوَدَ الْجَاعِرَتين ، والسلام » .

(البيان والتبيين ١ : ٢٠٥ ، ومجمع الأمثال ٢ : ٨٩)

٢٦٠ — كتاب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج

وروى صاحب العقد قال :

قال أبو عثمان عمرو بن بَحْر الجاحظ : كان عبد الملك بن مروان سِنَانَ قريش وسَيْفَهَا رأيا وحَزْما ، وعابِدَها قبل أن يُسْتَخْلَفَ وَرَعا وزُهْداً ، فجلس يومًا فى خاصَّته فقَبَضَ على لحيته فشَمَّها مَلِيًّا ، ثم اجتَرَّ نفَسَه ، ونَفَخ نَفخَةً أطالها ، ثم نظر فى وجوه القوم فقال : « ما أقولُ يومَ ذى المسألةِ عن أمر الحجاج ، وأُدْحِضَ المحتَجُّ عَلَى العليمِ(٥) بما طَوَتْه الحُجُبُ ؟ أَمَا إِنَّ تمليكى له قَرَنَ بى لَوْعةً يَحُثُّها التَّذكار ! كيف وقد علِمْتُ فتعاميْتُ ، وسَمِعْتُ فتصاممْتُ ، وحَمَله الكرام الكاتبون ! والله لكأنى آلَفُ ذا الطَّعْنَ على نفسى ، بعد أن نَعَتِ الأيامُ بتصرُّفها أنفُسًا حقٌّ لها الوعيدُ

---

(١) ركله : ضربه برجله . (٢) ضغمه كمنع ، عضه .

(٣) قاتله الله : قتله ، وقيل لعنه ، وقيل عاداه .

(٤) تصغير أخفش . وقد تقدم معناه.

(٥) أدحض حجته : أبطلها . على العليم : أى على الله العليم .

بتصَرُّم الزوال ، وما أبقَت الشُّبْهَةُ للباقى مُتعلّقا ، وما هو إلا الغِلُّ الكامن ، والغِشُّ المندمِلُ من ذى النفسِ بحَوْبها[١] ، اللهم أنت لى أوسعُ ، غيرَ منتصِرٍ ولا مُعتذِر » يا كاتبُ ، هاتِ الدَّواةَ والقِرْطاس ، فقعد كاتبه بين يديه وأملى عليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبد الله عبد الملك بن مَرْوان إلى الحجاج أبن يوسف ، أما بعدُ : فقد أصبحتُ بأمرك بَرِما[٢] ، يُقْعِدُنى الإشفاقُ ، ويُقيمنى الرجاء ، عَجزتُ فى دار السَّعة ، وتوسُّطِ الملك ، وحينَ المَهَل ، واجتماع الفِكَر ، ألتمِس العذرَ فى أمرك ، فأنا لعَمْرُ الله فى دار الجزاء ، وعدمِ السلطان واشتغالِ النفس ، والركونِ إلى الذِّلة من نفسى ، والتوقُّعِ لما طُوِيَتْ عليه الصُّحُف ، أَعْجَزُ ، وقد كنت أشركتك فيما طوَّقنى اللهُ حَمْلَه ، ولاَثَ بحَقْوى[٣] من أمانة الله فى هذا الخَلْق المَرْعِىّ ، فدُلِلْتَ منه على الحزم والجِدِّ فى إماتة بدعةٍ ، وإنعاشِ سُنَّة ، فقعَدتَ عن تلك ، ونهضْتَ بما عانَدها[٤] ، حتى صِرتَ حُجَّةَ الغائب ، وعذرَ اللَّاعِنِ والشاهد القائم .

فلعَنَ اللهُ أبا عَقِيلٍ[٥] وما نجَلَ ، فألأَمُ والدٍ ، وأخْبَثُ نَسْلٍ ، فلعمرى . ما ظَلَمَكم الزمانُ ، ولا قَعدتْ بكم المَراتبُ ، لقد ألبَسْتكم مَلْبَسكم ، وأقعدتكم

---

(١) الحوباء : روع القلب بضم الراء أى سواده ، قال الشاعر : «ونفس تجود بحوبائها» والحوباء أيضا : النفس .

(٢) برم به كفرح : ضجر . (٣) الحقو بالفتح ويكسر : الكشح ومعقد الإزار ، ولاث بحقوى : أى لف وعصب ، لاث الشىء لوثا : أداره مرتين كما تدار العمامة والإزار ، قال النابغة :

تلوث بعد افتضال البرد مئزرها   لوثا على مثل دعص الرملة الهارى

(٤) خالفها وجانبها . (٥) هو جد الحجاج ، ذكر ابن خلكان فى وفيات الأعيان — ج ١ : ص ١٢٣ — فى نسبه أنه الحجاج بن يوسف بن الحكم بن عقيل بن مسعود بن عامر ... — انظر أيضاً شرح العيون ص ١١٢ — ، ونجله : ولده .

على رَوَابِى خِطَطِكم[1] ، وأحَلّتكم على مَنَعَتكم ، فمن حافرٍ وناقلٍ وماتِحٍ[2] للفَلَواتِ القفْرة المُتَفَيْهِقَةِ[3] ، ماتقَدَّم فيكم الإسلامُ ، ولقد تأخرتم[4] ، وما الطائِفُ منا ببعيدٍ يُجْهَل أهلُه ، ثم قمتَ بنفسك ، وطمَحْتَ بهمّتك ، وسَرَّك انتضاءُ[5] سيفك ، فاستخرَجك أميرُ المؤمنين من أعوان رَوْحِ ابن زِنْباع وشُرَطه[6] ، وأنت على معاونته يومئذٍ محسودٌ ، فهفَا أميرِ المؤمنين

(١) الخطط جمع خطة بالكسر : وهى الأرض التى تنزلها ولم ينزلها نازل قبلك .

(٢) متح الماء : نزعه .

(٣) هكذا فى الأصل ، يريد المتسعة ، وتفيهق فى الكلام : توسع فيه ، مأخوذ من الفهق وهو الامتلاء ، كأنه ملأ به فمه ، وأرى أن صوابه « المنفهقة » من انفهق الشيء إذا اتسع ، ويقال أيضاً مفازة فيهق أى واسعة ، والفيهق : الواسع من كل شيء .

(٤) كانت ثقيف من القبائل التى تأخرت فى إجابة دعوة الإسلام ، وكانت ممن آذى النبى عليه السلام أبلغ الإيذاء ، وذلك أنه لما مات أبو طالب نالت قريش من رسول الله مالم يمكنها نيله فى حياته ، فخرج عليه السلام إلى ثقيف بالطائف يرجو منهم أن يسلموا ويناصروه على قومه ، لأنهم أقرب الناس إلى مكة وله فيهم خئولة ، وكلم رؤساءهم وساداتهم فيما جاءهم به ، فردوا عليه ردا قبيحا ولم ير منهم خيرا ، فطلب إليهم ألا يشيعوا ذلك عنه لئلا تعلم قريش فيشتد أذاهم له ، فلم يفعلوا بل أرسلوا سفهاءهم وغلمانهم وراءه يرمونه بالحجارة حتى أدموا عقبه ، وكان مولاه زيد بن حارثة يدرأ عنه ، وما زالوا على جاهليتهم حتى فتح رسول الله مكة سنة ٨ هـ ودخل العرب فى دين الله أفواجا ، فوفدت عليه ثقيف فى رمضان سنة ٩ هـ وأسلمت مع من أسلم .

(٥) انتضى السيف : سله .

(٦) الشرط : أعوان الولاة واحدها شرطة كغرف وغرفة ، وكان أول ماظهر من أمر الحجاج أنه اتصل بروح بن زنباع الجذامى ، فكان فى عديد شرطته (وكان روح وزير عبد الملك ، وبمنزلة نائبه) ثم إن عبد الملك ، توجه إلى الجزيرة لقتال زفر بن الحرث الكلابى عند ما عصى عليه بقرقيسياء كما قدمنا ، فشكا ما رأى من انحلال العسكر وأن الناس لايرحلون برحيله ولا ينزلون بنزوله ، فقال له روح بن زنباع : ياأمير المؤمنين ، إن فى شرطتى رجلا لو قلده أمير المؤمنين أمر عسكره لأرحلهم برحيله ، وأنزلهم بنزوله ، يقال له الحجاج بن يوسف ، قال : فإنا قد قلدناه ذلك ، فكان لايقدر أحد أن يتخلف عن الرحيل والنزول إلا أعوان روح بن زنباع ، فمر يوما بعد رحيل العسكر بجماعة من خواص غلمان روح فى خيمة يأكلون ، فقال لهم : مامنعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين ؟ فسخروا منه إدلالا بمحلهم ومحل سيدهم . وقالوا له : انزل يابن اللخناء فكل معنا (واللخن بالتحريك : قبح ريح الفرج ، وامرأة لخناء ، ويقال اللخناء : التى لم تختن ، وهى من شتم العرب ، كأنهم يقولون : يادنيء الأصل ، أو يالئيم الأم) . فقال : هيهات ! ذهب ماهنالك ، وضرب بسيفه أطناب الخيمة فسقطت عليهم ، وأطلق فيها نارا فأحرقت أثاثهم عليهم ، وأمر بهم فجلدوا

ـ واللهُ يُصْلِحُ بالتوبة والغُفْرانِ زَلَّتَه ـ وكانَ ما لو لم يكن لـكان خيراً مما كان ، كلُّ ذلك من تجاسُرِك وتحامُلِك على المخالفة لرأى أمير المؤمنين ، فصَدعْتَ صَفَاتنا[1] ، وهتَـكْتَ حُجُبنا ، وبَسَطْتَ يديك تحفِنُ بهما من كرائم[2] ذوى الحقوق اللازمة ، والأَرْحام الواشِجَة ، فى أوعيةِ ثَقيف ، فاستغْفِرِ اللهَ لذنبٍ ماله عُذْرٌ ، فلئن استقال[3] أمير المؤمنين فيك الرأىَ ، لقد جالت البصيرةُ فى ثقيف بصالحٍ النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ ائتمنه على الصَّدَقاتِ وكان عَبْدَه ، فهَرَب بها عنـه[4] ، وما هو إلا اختيارٌ للثِّقة ،

بالسياط وطوفهم فى العسكر ، فدخل روح بن رنباع على عبد الملك باكيا ، فقال له : مالك ؟ فقال : ياأمير المؤمنين ، الحجاج بن يوسف الذى كان فى عديد شرطتى ضرب عبدى ، وأحرق فساطيطى ، قال : علىّ به ، فلما دخل عليه ، قال : ماحملك على مافعلت ؟ قال : ماأنا فعلته يا أمير المؤمنين ، قال : ومن فعله ؟ قال : أنت والله فعلت ، إنما يدى يدك ، وسوطى سوطك ، أنت يا أمير المؤمنين أمرتنا بالاجتهاد فيما وليتنا ففعلنا ما أمرت ، وبهذه الفعلة يرتدع من بقى من أهـل العسكر ، وما على أمير المؤمنين أن يخلف على روح بن رنباع للفسطاط فسطاطين وللغلام غلامين ، ولا يكسرنى فيما قدمنى له ؟ فأعجب عبد الملك وقال : إن شرطيكم لجلد ، ثم أقره على ماهو عليه ، وتقدم الحجاج فى منزلته ، وكان ذلك أول ماعرف من كفايته .

ولما طال القتال والحصار بينه وبين زفر بن الحرث ، أرسل عبدالملك رجاء بن حيوة وجماعة منهم الحجاج إلى زفر بكتاب يدعوه إلى الصلح ، فأتوه بالكتاب وقد حضرت الصلاة ، فقام رجاء يصلى مع زفر ، وصلى الحجاج وحده ، فسئل عن ذلك ، فقال : لا أصلى مع منافق خارج على أمير المؤمنين وعن طاعته ، فسمع عبد الملك بذلك فزاد عجبا بالحجاج ورفع قدره ، وولاه بلدة تسمى « تبالة » ـ كسحابة ، بلد باليمن ـ وهى أول ماولى ، فخرج إليها فلما قرب سأل عنها ، فقيل : إنها وراء هذه الأكمة ، فقال : أف لبلدة تسترها أكمة ورجع عنها ، فقيل فى المثل : أهون من تبالة على الحجاج ـ انظر العقد الفريد ٣ : ٦ ، وشرح العيون ص ١١٣ ـ .

(١) الصفاة : الحجر الصلد الضخم .

(٢) كرائم الأموال : خيارها التى تكرم عليك ، والواشجة : الرحم المشتبكة ، وقد وشجت بك قرابته تشج كوعد .

(٣) أقال عثرته : رفعه من سـقوطه ، واسـتقاله : طلب إليـه أن يقيله ، والمعنى فلئن طلب أمير المؤمنين إلى رأيه أن يقيلك من سقطتك ، أى أحسن بك الظن وألتمس لك العذر فيما فعلت .

(٤) انظر هامش ص ١٦٦ .

والمَطْلَبُ لمواضِعِ الكِفاية ، فقَعَد فيه الرجاء ، كما قعد بأمير المؤمنين فيما نَصَبَك له ، فكَأَنَّ هذا أَلْبَسَ أمير المؤمنين ثوبَ العَزاء ، ونهض بعُذره إلى استنشاق نَسِيم الرَّوْح[1] ، فاعتزِلْ عَمَلَ أمير المؤمنين ، واظْعَنْ[2] عنه باللعنة اللاَّزِمة ، والعقوبة النَّاهِكَة[3] إن شاء الله ، إذ استحكم لأمير المؤمنين مايحاولُ من رأيه ، والسلام » .

ودعا عبد الملك مَوْلى له يقال له : نُباتة ، له لِسَانٌ وفَضْلُ[4] رأى ، فناوله الكتابَ ، ثم قال له يا نباتة : العَجَلَ ثم العجل ، حتى تأْتِيَ العراقَ ، فضع هذا الكتاب فى يد الحجاج ، وترقَّبْ ما يكون منه ، فإذا جَبُن عند قراءته واستيعابِ مافيه ، فاقْلَعْه عن عمله وانقلِع معه حتى تأْتى به ، وهدِّئْ الناسَ حتى يأتيَهم أمرى ، بما تَصِفُنى به فى حين انقلاعك ، من حُبِّى لهم والسلامة ، وَإِنْ هَشَّ للجواب ولم تكشِفْه أَرْنَبَةُ[5] الحَيْرَة ، فخُذْ منه مايُجيب به وأَقرِره على عمله ، ثم اعْجَلْ علىَّ بجوابه .

قال نباتة : فخرجتُ قاصداً إلى العراق ، فضمَّتنى الصحارَى والفَيافِى[6] ، واحتوانى القُرّ[7] ، وأخذ منى السَّفَرُ ، حتى وصلتُ ، فلما وَرَدْته ، أُدخلتُ

---

(١) الروح : الراحة . (٢) أى ارحل .

(٣) نهكه السلطان كسمعه : بالغ فى عقوبته . ويقال انهكه عقوبة : أى ابلغ فى عقوبته .

(٤) الفضل : الزيادة .

(٥) الأرنبة : طرف الأنف ، وإضافتها إلى الحيرة : لأنها تختلج وتهتز وقت الحيرة والدهش ، أو لأن من عادة بعض الناس عند الحيرة أن يطرق برأسه ويمر أصابعه على أرنبته ، وربما كان الأصل « أربة » بفتح فسكون : أى شدة ، أو «أربة» بضم فسكون ، والأربة : العقدة التى لا تنحل حتى تحل حلا .

(٦) الفيافى جمع فيفاة بفتح الفاء : وهى المفازة . (٧) القر مثلث القاف : البرد .

عليه فى يوم ما يُحْظَر[1] فيه الخلقُ ، وعلىَّ شُحوبُ مُضْنًى ، وقد توسَّطَ خَدَمَه من نواحيه ، وتَدَثَّر بمُطْرَف[2] خزٍّ أدْكَنَ ، ولاثَ[3] به الناسُ من بين قائم وقاعد ، فلما نظر إلىَّ ـ وكان لى عارفًا ـ قعد ثم تبسَّم تبسُّمَ الوَجِل ، ثم قال : أهلاً بك يا نباتةُ ، أهلا بمَوْلَى أمير المؤمنين ، لقد أثَّر فيك سفرك ، وأعرِفُ أميرَ المؤمنين بك ضَنِينا ، فليت شعرى ما دهِمَك أودهِمَنى عنده ؟ قال : فسلَّمتُ وقعدتُ ، فسأل : ما حَالُ أمير المؤمنين وخَوَلِه ؟[4] ، فلما هدأ أخرجتُ له الكتابَ فناولته إياه ، فأخذه منى مسرِعا ، ويده تُرْعَد ، ثم نظر فى وجوه الناس فما شَعَرْتُ إلا وأنا معه ، ليس معنا ثالث ، وصار كل من يُطِيف به من خدمه يلقاه خاليًا ، لايسمعون منا إلا الصوتَ ، ففكَّ الكتاب فقرَأه ، وجعل يتثاءب ويردِّد تثاؤُبَه ، ويَسيل العرق على جبينه وصُدْغيه ـ على شدة البَرْد ـ من تحت قَلَنْسُوَته من شدة العرَق ، وعلى رأسه عمامة خَزٍّ خضراء ، وجعل يشخَص إلىَّ ببصره ساعة كالمتوهِّم ، ثم يعود إلى قراءة الكتاب ، ويلاحظُنى النظرَ كالمتفهِّم إلا أنه وَاجِم[5] ، ثم يعاود الكتابَ ، وإنى لأقول : ما أراه يُثبِت حروفَهُ من سدة اضطراب يده ، حتى استقصى قراءتَه ، ثم مالت يده حتى وقع الكتاب على الفِراش ، ورجع إليه ذهنه ، فمسح العرق عن جبينه ، ثم قال متمثلا :

---

(١) أى مايمنع ، وفى الأصل « يحظر » وأراه مصحفا .

(٢) تدثر بالثوب : اشتمل به ، والمطرف : رداء من خز مربع ذو أعلام . وأدكن : وصف من الدكنة كحمرة : وهى لون إلى السواد . (٣) أى التفوا واستداروا .

(٤) الخول : الخدم والحشم . (٥) الواجم : العبوس المطرق لشدة الحزن » وجم كوعد وجما ووجوما : سكت على غيظ .

وَإِذَا المَنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ... أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لاتَنْفَعُ(١)

قَبُحَ وَاللهِ منا الحسَنُ يا نباتة ! وتَوَا كَلَتْنا عنـد أمير المؤمنين الألسُنُ ، وما هذا إلا سانحُ فِكْرة نَمَّقَها مُرْصِدٌ(٢) يَكْلَبُ بقصَّتنا ، مع حُسْنِ رأى أمير المؤمنين فينا ، ياغلامُ ، فتبادَرَ الغِلمانُ الصَّيْحَةَ ، فُلِئَ علينا منهم المجلسُ ، حتى دفّأتنى منهم الأنفاسُ ، فقال : الدواةَ والقرطاسَ ، فأُتِى بدواةٍ وقرطاس ، فـكتب بيده ، وما رفع القلَمَ إلا مستمِدًّا حتى سَطَّر مثلَ خَدِّ الفرس ، فلما فرغَ قال لى : يا نباتة ، هل علمتَ ماجئتَ به فنُسْمِعَكَ ما كتبْنا ؟ قلت : لا ، قال : إذن حَسْبُك منا مِثلُه ، ثم ناولنى الجواب ، وأمر لى بجائزة فأجْزَلَ ، وجرّد لى كِساء، ودعا لى بطعام فأكلتُ ، ثم قال: نَـكِلُك إلى ما أُمِرْتَ به من عَجَلة أو توانٍ ، وإنى لأحبُّ مقارَنَتَك والأُنْسَ برؤيتك ، فقلت : كان معى قُفْلٌ مِفتاحُه عندك ، ومفتاح قُفلك عندى ، فأَجَدْتُ لك الوافِيةَ بالأَمْرَين ، فأقفلتُ المكروهَ وفتحتُ العافيـةَ ، وما ساءنى ذلك ، وما أُحِبُّ أن أَزيدكَ بيانا ، وحَسْبك منى استعجالُ القيام ، ثم نهضتُ وقام مُودِّعًا لى ، فالتزَمَنِي وقال : بأبى أنت وأمى ، رُبَّ لفظةٍ مسموعة(٣) ، ومحتقَرٍ نافع ، فـكن كما أظنّ ، فخرجتُ مستقبلاً وجهى ، حتى وردتُ أمير المؤمنين ، فوجدته منصرفا من صلاة العصر ،

---

(١) التميمه : العودة تعلق على الإنسان .

(٢) يقال أرصده إذا قعد له على طريقه يرقبه ، وأرصد له بالخير والشر : كافأه ، وأرصد له الأمر: أعدّه ، وكلب كفرح : سفه وأشبه الـكلب الـكلب .

(٣) فى الأصل « مسمومة » وأرى أنها محرفة ، والصواب «مسموعة» كما يدل عليه ما بعده وهو قوله « فـكن كما أظن » يطلب إليه أن يذكره عند عبد الملك بكلمة طيبة رجاء أن يسمع لها .

فلما رآنى ، قال : ما احتواك المضجَعُ يا نباتة ! فقلت : مَنْ خاف مِن وَجْه الصباح أَدْلَجَ[١] ، فسلَّمْتُ وانتبذتُ[٢] عنه ، فتركنى حتى سَكَن جَأْشِي ، ثم قال : مَهْيَم[٣] ، فدفعت إليه الكتابَ ، فقرأه متبسما ، فلما مضى فيه ضَحِك حتى بَدَتْ له سِنٌّ سوداء ، ثم استقصاه فانصرف إلىّ ، فقال : كيف رأيتَ إشفاقَه ؟ قال : فقصَصْتُ عليه ما رأيتُ منه ، فقال : صلوات الله على الصادق الأمين « إن من البيان لسِحْراً » ثم قذف الكتاب إلىّ فقال : اقرأ ، فقرأتُه فإذا فيه .

٢٦١ — رد الحجاج على عبد الملك

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله أميرِ المؤمنين ، وخليفة رب العالمين ، المؤيَّد بالولاية ، المعصوم من خَطَل[٤] القول ، وزَلَل الفعل ، بكَفالة الله الواجبة لذوى أمره ، من عبدٍ اكتنفَته الزَّلّة ، ومدَّ به الصَّغار[٥] إلى وَخِيم المَرْتَع ، ووَبِيلِ المَكْرَع[٦] ، من جائل قادح ، ومعتزّ فادح[٧] ، والسلام عليك ورحمة الله التى اتسعت فوَسِعَت ، وكان بها التقوى إلى أهله قائداً ، فإنى أَحْمَد إليك اللهَ الذى لا إله إلا هو راجياً لعطفك بعطفه[٨]

(١) أدلج : سار من أول الليل . (٢) أى تنحيت .

(٣) أى ما الأمر وما الخبر ؟ . (٤) الخطل : المنطق الفاسد المضطرب ، وقد خطل فى كلامه كفرح

(٥) الصغار : الذل . (٦) المكرع اسم مكان من كرع فى الماء كمنع : إذا تناوله بفيه من موضعه من غير أن يشرب بكفه ولا بإناء ، كما تفعل البهائم لأنها تدخل أكارعها فيه ، كنى بهذا وبما قبله عن سوء العاقبة .

(٧) من جائل ، أى من عدو يجول ويدور بمذمتى ، قادح : أى طاعن ذام ، ومعتز أى بجاهه ومنزلته لدى أمير المؤمنين . فادح : من فدحه إذا أثقله ، أى يثقلنى بما يفتريه علىّ من الأباطيل .

(٨) فى الأصل « فإنى أحمد الله إليك — راجيا لعطفك بعطفه — الذى لا إله إلا هو ، وقد أصلحه كما ترى وهو الأظهر عندى .

أما بعد، كَانَ ٱللهُ لك بالدَّعَةِ[١] فى دار الزَّوال، والأمنِ فى دار الزِّلزال، فإنه من عَنَّت[٢] به فِكرتُك يا أمير المؤمنين مخصوصاً، فما هو إلا سعيدٌ يُؤْثَر، أو شقِيٌّ يُوتَر[٣]، وقد حَجَبنى عن نواظر السَّعْد لسانُ مُرْصِد، ونافِسٌ[٤] حَقِد، انتهز[٥] به الشيطانُ حين الفكرة، فافتتح به أبوابَ الوسْواس بما تحتويه الصدور، فَواغوثاه! باستعاذة أمير المؤمنين من رجيم، إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ، واعتصاما بالتوكل على من خَصَّه بما أجزلَ له من قَسْمِ[٦] الإيمان وصادق السُّنَّة، فقد أراد اللَّعِينُ أن يَفْتُق لأوليائه فَتْقا، نَبَا عنه كيدُه، وكثُر عليه تحسُّرُه، بَلِيةٌ قَرَعَ بها فِكْرَ أمير المؤمنين مُلَبِّسا[٧] وكادِحًا ومُؤَرِّشا، ليفُلَّ من غَرْبِه[٨] الذى نصبنى، ويُصيبَ ثأراً لم يزل به مُؤْتَرًّا[٩]، وأَذْكَره مامَتَّ[١٠] به الأوائلُ قديمـا حتى لَحِقْت بمثله منهم، مِمَّـا كُنْتُ أَبْلُوه[١١] من خِسَّة أقدار، ومزاولة أعمال، إلى أن وصَلْتُ ذلك بالتشَرُّط لرَوْح بن زِنْباع، وقد عَلِم أمير المؤمنين ـ بفضل

---

(١) الدعة: الخفض والسعة فى العيش، ودار الزوال: الدنيا، ودار الزلزال: الآخرة.

(٢) عنّ: عرض، والمراد: عنّ بفكرتك، فقلب.

(٣) آثر إيثارا: فضله وقدمه. ووتره: أفزعه وأدركه بمكروه، (٤) نفس عليه بخير كفرح: حسد، ونفس عليه الشيء نفاسة: لم يره أهلا له.

(٥) المراد: اختلى به، والوسواس مصدر وسوس كالوسوسة.

(٦) القسم: العطاء. (٧) التلبيس: التخليط والتدليس، وفى الأصل «مبلساً» وأراه محرفا، إذ المبلس هو المتحير واليائس والساكت عند انقطاع حجته، والساكت من الحزن أو الخوف، وذلك غير مناسب هنا. كادحا: جادّا ساعياً. والتأريش: التحريش والإفساد، أرّش بين القوم: أفسد بينهم وحمل بعضهم على بعض. (٨) الغرب: الحدّ

(٩) من اتأرت المدر: إذا اشتد عليانها، وفى الأصل «موترا» وأراه محرفا.

(١٠) أى ماتوسل، وفى الأصل «وأذكره قديما مامتّ به الأوائل» وقد أصلحته كما ترى.

(١١) أى أزاوله وأمارسه، وفى الأصل «حتى لحقت بمثله منهم وممن كنت أبلوه» وهو تحريف

ما اختار اللهُ له تبارك وتعالى من العِلْم المأثور الماضى - بأن الذى عَيّر به القَوْمَ مَصانِعَهم[١] ، من أشدِّ ما كان يزاولهُ أهلُ القُدْمَة[٢] الذين اجتبى اللهُ منهم ، وقد اعتصموا وَامْتَعَضوا[٣] من ذكر ما كان ، وارتفعوا بما يكون ، وما جَهِلَ أميرِ المؤمنين - ولِلبيانِ مَوْقِعُه غَيْرَ محتجٍّ ولا مُتَعدٍّ[٤] - أَنَّ متابعةَ رَوْح بن زِنباع طريقٌ إلى الوسيلة لِمَنْ أراد مَنْ فوقه ، وأَن رَوْحا لم يُلْبِسنى العزمَ الذى به رفعنى أميرُ المؤمنين عن خَوَله ، وقد أَلصَقَتْنى برَوْح ابن زنباع همّةٌ لم تَزَلْ نواظِرُها ترمِى بى البعيدَ ، وتُطالِعُ الأعلامَ ، وقد أخذتُ من أمير المؤمنين نصيبا اقتَسَمَهُ الإشفاقُ من سخطه ، والمواظبةُ على موافقته ، فما بقِىَ لنا بعدُ إلا صُبَابة[٥] وإرْثٌ به تجولُ النفسُ ، وتَطْرِف[٦] النواظرُ ، ولقد سِرْتُ بعين[٧] أمير المؤمنين سَيْرَ المثبِّط لمن يتلوه ، المتطاولِ لمن يَقْدُمُه ، غيرَ مُبِتٍّ مُوجِفٍ[٨] ، ولا متثاقلٍ مُجْحِفٍ ،

---

(١) المصانع: جمع مصنعة : مايصنعه الناس من الآبار والأبنية وغيرها ، وقدتقدم فى كتاب عبد الملك إليه : « فمن حافر وناقل ومائح ... » وفى كتاب سابق : « اذكر مكاسب آبائك بالطائف ، إذ كانوا ينقلون الحجارة على أكتافهم ، ويحفرون الآبار والمناهل بأيديهم » .

(٢) القدمة : السابقة فى الأمر كالقدم بالتحريك ، يقال : لفلان قدم صدق ، أى سابقة خير وأثر حسن ، ومنه قوله تعالى : « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ » وكذلك القدمة . واجتبى : اصطفى واختار . (٣) أى غضبوا وشق عليهم .

(٤) غير محتج حال من البيان، وفى اسناده إلى البيان مجازعقلى أى غير محتج صاحبه ، أوهو حال من المتكلم والجملة احتراس تأدبا فى مخاطبته عبد الملك ، يعنى أنه يدلى ببيانه هذا فى غيراحتجاج على أميرالمؤمنين ، ولا تعدّ لحدود مايجب عليه له من التوقير والتعظيم ، وفى الأصل « ولا معتدد » وهوتحريف .

(٥) الصبابة : البقية اليسيرة تبقى فى الإناء من الشراب ، وفى الأصل « صابة » وهو تحريف والإرث : البقية من كل شىء . (٦) طرف البصر كضرب : تحرك .

(٧) أى بحيث يرانى ويعلم أمرى ، المثبط : ثبطه عن الأمر : عوّقه وبطأ به عنه ، وفى الأصل « المتأبط » وهو تحريف ، وقدمه من باب نصر : تقدمه .

(٨) مبت ، من أبتّ بعيره: إذا أجهده وأتعبه فى السير حتى قطعه ، وصاحبه مبت أى منقطع عن

ففُتُّ الطالبَ، ولَحِقْتُ الهاربَ ،حتى ثارت السُّنَّةُ(١)، وبادت البدعة، وخَسِئَ الشيطانُ ، وحُمِلت الأديانُ إلى الجادَّة العظمى ، والطريقة المُثْلَى ، فهأنَذا يا أمير المؤمنين نُصْبُ المسألة لمن رامني ، وقد عَقَدْتُ الحُبْوَةَ(٢) ، وقَرَنْتُ الوَظِيفَيْن لقائلٍ محتجّ ، أَوْ لائم ملتَجّ(٣) ، وأميرُ المؤمنين وَلِيُّ المظلوم ، ومَعْقِلُ الخائف ، وستُظْهِر له المِحْنَةُ(٤) نَبأَ أمرى ، ولـكل نبأ مستقَرٌّ ، ومَا حَفَنْتُ يا أمير المؤمنين فى أوعية ثقيف حتى رَوِى الظمآنُ ، وبَطِنَ الغَرْثانُ(٥) ، وغَصَّتْ الأوعيةُ ، وانْقَدَّتْ الأَوكِيَةُ(٦) فى آل مَرْوانَ ، فأَخذَتْ ثقيف فَضْلاً(٧) صار لها ، لولاهم لَقَطَتْهُ السائلةُ ، ولقد كان ما أَنكره أمير المؤمنين مِنْ تحامُلى ، وكان ما لو لم يكُن لَعَظُم الخطبُ فوق ما كان ، وإن أمير المؤمنين لرابع أربعة : أحـدهم أُبنةُ(٨) شُعَيْبٍ النبى صلى الله

أصحابه ، لأنه جد فى سيره حتى انبتّ أخيرا ، ومنه الحديث الشريف « إن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى » وفى الأصل « غير متئنت » وهو تحريف . موجف ، وجف الفرس والبعير وجيفا : عدا ، وأوجفته : أعديته ، وهو العنق فى السير . وأجحف بالأمر : قارب الإخلال به.

(١) ثارت : نهضت وهبت وعادت إلى ما كانت عليه . وخسئ : بعد وطرد .

(٢) احتبى : جمع بين ظهره وساقيه بثوب أو غيره ، والاسم الحبوة بالكسر ويضم ، والوظيف : مقدم الساق . والمعنى : قد تهيأت واستعددت لمن رام مساءاتى وبهاتى .

(٣) المراد به : لاجّ ، أى متماد فى الخصومة يأبى أن ينصرف عنها .

(٤) محنه : اختبره كامتحنه ، والاسم المحنة بالكسر .

(٥) الغرثان : الجائع ، غرث كفرح : جاع ، والبطنة بالكسر : امتلاء البطن من الطعام ، بطن كفرح بطنا وبطنة ، وبطن ككرم : عظم بطنه .

(٦) انقدت : انقطعت ، والأوكية : جمع وكاء ككتاب وهو رباط القربة وغيرها ، كنى بذلك عن امتلاء الأوعية واكتظاظها . (٧) أى ما زاد وفضل .

(٨) هى صفوراء بنت شعيب زوج موسى عليهما السلام ، يعنى أنها أشارت على أبيها أن يستأجر موسى قال تعالى فى شأن موسى معها : « وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ ، وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ، قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ، قَالَتَا

عليه وسلم ، إذ رَمَتْ بالظن غَرَضَ اليقين ، تفرُّساً فى النجيِّ[1] المصطفى بالرسالة ، فحقَّ لها فيه الرجاء ، وزالت شبهةُ الشك بالاختبار ، وقبْلَها العزيزُ[2] فى يوسف ، ثم الصِّديقُ[3] فى الفاروق رحمة ٱللّٰه عليهما ، وأمير المؤمنين فى الحجاج ، وما حَسَد الشيطانُ يا أمير المؤمنين خاملا ، ولا شَرُف بغير سِجَافِكم[4] ، غِبطةٌ[5] يا أمير المؤمنين الرَّجيمُ أَدْبَرَ منها ، وله غُواةٌ ومِرْساةٌ[6] ، وقد قَلَّتْ حِيلتُه ، وَوَهَنَ[7] كيده يوم كَيتَ وكَيتَ ، ولا أظن

لاَ نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ، فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ، فَقَالَ : رَبِّ إِنِّى لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ، فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِى عَلَى اسْتِحْيَاءٍ ، قَالَتْ : إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ، فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لاَ تَخَفْ ، نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، قَالَتْ إِحْدَاهُمَا : يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِىُّ الْأَمِينُ ، قَالَ : إِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَىَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِى ثَمَانِىَ حِجَجٍ ، فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ، سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ مِنَ الصَّالِحِينَ » .

(١) أى فى موسى الذى ناجاه الله .

(٢) هو قطفير العزيز الذى كان على خزائن مصر ، يشير إلى ما كان من امرأته دليخا إذ راودت يوسف عن نفسه فأبى ، فاتهمته بأنه أراد بها سوءا ، فسجن ثم حصحص الحق وظهرت براءته، فجعله الملك على خزائن أرضه ، والقصة مشهورة ، ويقال ان قدوم يوسف عليه السلام مصر كان فى عهد الأسرة السادسة عشرة مدة حكم الملوك الرعاة ، ويقول المفسرون إن ملك مصر يومئذ كان الريان ابن الوليد العمليق .

(٣) يشير إلى اختيار أبى بكر لعمر رضى الله عنهما لتولى الخلافة قبل موته .

(٤) السجاف بالكسر والسجف بالفتح والكسر : الستر ، والمعنى ولا شرف الخامل دون أن يكون فى كنفكم ويستظل بظلكم . (٥) الغبطة : حسن الحال والمسرة .

(٦) المرساة : أنجر السفينة الذى ترسى به ، وهو أخشاب ضخم (خشبات يفرغ بينها الرصاص المذاب فتصير كصخرة) يشد بالحبال ويرسل فى الماء فيمسك السفينة ويرسيها حتى لا تسير ، كنى بذلك عن شدة تمكن الشيطان من أوليائه أولئك الذين يدسون له عند الخليفة ويكيدون له .

(٧) وهن : ضعف ، وفعله كوعد وورث وكرم، وكيت وكيت ويكسر آخرهما : أى كذا وكذا.

أَذْكَرَ لهـا من أمير المؤمنين ، ولقد سَمِعتُ لأمير المؤمنين فى صالح صلوات الله عليـه ، وفى ثقيف ، مقالا هَجَم بى الرَّجاءَ لِعَدْلِهِ عليه ، بالحُجَّةِ فى ردِّه بمحْكَم التنزيل على لسان ابن عمه خاتَم النبيين وسيد المرسلين ، صلى الله عليه وسلم ، فقد أخبر عن الله عزّ وجل وحكاية غُرِّ المَلَأ[1] من قريش عند الاختيار والافتخار ، وقد نفخَ الشيطان فى مَنَاخِرِهم ، فلم يَدْعُوا خَلْفَ ماقصدوا إليـه مُواسًى[2] ، « وَقَالُوا : لَوْلاَ نُزِّلَ هٰذَا القُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ[3] عَظِيمٍ » فوقع اختيارُهم ـ عنـد المباهاةِ بِنَفْخَة الـكِبْر وكِبْر الجاهلية ـ على الْوَلِيد بن المُغِيرة المَخْزُومى وأبى مسعود[4] الثَّقَفى ، فصارا فى الافتخار بهما صِنْوَيْن[5] ، ما أنكر اجتماعَهما من الأمة مُنْـكِرٌ ، فى مَدِّ صوت القرآن ، ومبلِّغ الْوَحْى ، وإنْ كان ليقالُ للوليد فى الأمة يومئذ « رَيْحَانَة قريش » ، وما ردَّ ذلك العزيز تعالى إلا بالرحمة الشاملة فى القَسم السابق ، فقال عز وجل : « أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ، نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ

---

(١) الملا : الجماعة . والغر : المشهورون ، جمع أغر .

(٢) المواساة : المشاركة ، والسوية ، وأصلها الهمزة فقلبت واوا تخفيفا ، ويقال مايؤاسى فلان فلانا : أى مايشاركه ، وآسيته بنفسى : سويته (وآسيته بمالى : أنلته منه وجعلته فيه أسوة بكسر الهمزة وضمها أى قدوة) ، وفى الحديث : « ما أحد عندى أعظم يداً من أبى بكر ، آسانى بنفسه وماله » وقد تقدم فى الجزء الأول فى كتاب عمر إلى أبى موسى : « آس بين الناس فى وجهك ومجلسك وعدلك » أى سوّ بينهم واجعل كل واحد منهم أسوة خصمه . وفى كتاب على عليه السلام « آس بينهم فى اللحظة والنظرة » فمعنى الجملة : أنهم حين اختيارهم لم يدعوا وراء ما قصدوا إليه محلا للتسوية بين من اختاروهم وبين غيرهم ، فاختاروا رجلين لايسوّى بهما غيرهما ولا يشاركهما أحد فى السودد ورفعة القدر ، وفى الأصل « موسى » وهو تحريف وصوابه « مواسى » كما رأيت .

(٣) مكة والطائف . (٤) هو عروة بن مسعود الثقفى .

(٥) إذا خرجت نخلتان ، أو ثلاث من أصل واحد ، فكل واحد منهن صنو ، والاثنان صنوان ، والجمع صنوان برفع النون .

مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » ، وما قدَّمَتْنى يا أمير المؤمنين ثقيف فى الاحتجاج لهـا ، وَإِنَّ لهـا مقالا رَحْبا ، ومعاندةً قديمةً ، إلا أن هذا من أَيْسَر ما يحتجُّ به العبدُ المشفِقُ على سيده المُغْضَب ، والأمرُ إلى أمير المؤمنين : عَزَلَ أم أقرّ[1] ، وكلاهما عَدْلٌ متَّبَعٌ ، وصوابٌ مُعْتَدِلٌ ، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله » .

قال نباتة : « فأتيت على الكتاب بمَحْضَر أمير المؤمنين عبد الملك ، فلما استوعبتُه سارَقْتُه النظَر من الهيبة منه ، فصادَفَ لحَظِي لحظَه ، فقال : اقطَعْه ولا تُعْلِمَن بما كان أحداً ، فلما مات عبد الملك فشا عنى الخبر بعد موته » . (العقد الفريد ٣ : ٨)

٢٦٢ — كتاب الشعبى إلى الحجاج

وكتب الشَّعْبي إلى الحجاج يسأله حاجة فاعتلّ عليه ، فكتب إليه الشعبي : « والله لاعَذَرْتُك وأنت والى العراق ، وابن عظيم[2] القَرْيَتَيْن » . فقضى حاجته . (العقد الفريد ١ : ٧٧)

---

(١) فى الأصل « قر » وهو تحريف .

(٢) هو عروة بن مسعود الثقفى — انظر ص ٢٦٤ — وكان عروة جدّ الحجاج لأمه ، روى ابن خلكان فى ترجمته نقلا عن المسعودى أن أم الحجاج هى الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفى — انظر ج ١ : ص ١٢٣ — .

٢٦٣ — كتاب امرأة إلى زوجها

(وكان مع الحجاج يحضر طعامه وهى فى سوء حال)

روى أبو على القالى فى أماليه قال :

كان رجل من أهل الشام مع الحجاج يَحْضُر طعامه[١] ، فكتب إلى امرأته يُعلمها بذلك ، فكتبت إليه :

أيُهْدَى لِيَ القِرْطاسُ ، والخُبزُ حاجتى ... وأنت على باب الأمير بَطِينُ[٢]

إذا غِبْتَ لم تذكُرْ صديقاً ولم تُقِمْ ... فأنت على ما فى يديك ضَنِينُ[٣]

فأنت ككلب السوء جَوَّع أهلَه ... فيُهْزَلُ أهل البيت وهْوَ سمـين

(الأمالى ٢ : ١٣٨)

---

(١) حدث ابن نباتة فى سرح العيون (ص ١١٨) عن كرم الحجاج قال :

« فأما كرمه ، فحكى أنه لما دخل المدينة فرق فى أهلها عشرة آلاف دينار ، ثم قال : أبينا كم وقد غاض المال لكثرة النوائب فاعذرونا ، فقال رجل : لاعذر الله من يعذرك ، وأنت أميرالمصرين وابن عظيم القريتين ، فقال : صدقت ، واقترض أموالا من هناك من التجار فكان شيئاً عظيما ، ولما ولى العراق كان يطعم فى كل يوم على ألف مائدة ، يجتمع على كل مائدة عشرة أنفس ، ويطاف به فى محفة (والمحفة كمخدّة : مركب كالهودج إلا أنها لا تقب) على أيدى الرجال ، يشرف على القوم ، ويقول : يأهل الشأم ، اهشموا الخبز لئلا يعاد عليكم ، وقيل كان فعله هذا خاصاً بأهل الشأم وكان يرسل الرسل إلى الناس لحضور الطعام ، فكثر عليه ذلك فقال : أيها الناس رسلى إليكم الشمس ، إذا طلعت فاحضروا للغداء ، وإذا غربت فاحضروا للعشاء ، فكانوا يفعلون ذلك . واستقل الناس يوما فقال : مابال الناس قد قلوا ؟ فقام رجل وقال : يأيها الأمير ، أنت أغنيت الناس فى بيوتهم عن الحضور إلى مائدتك ، فأعجبه ذلك وقال : اجلس بارك الله عليك » .

وقال أبو العباس المبرد فى الكامل (١ : ١٤٥) :

« وكان يطعم فى كل يوم على ألف مائدة ، على كل مائدة ثريد وجنب من شواء وسمكة طرية ، ويطاف به فى محفة على تلك الموائد لتفقد أمور الناس ، وعلى كل مائدة عشرة ، ثم يقول : يأهل الشأم ، اكسروا الخبز لئلا يعاد عليكم ، وكان له ساقيان أحدهما يسقى الماء والعسل ، والآخر يسقى اللبن » .

(٢) بطن ككرم فهو بطين : عظم بطنه ، أى وأنت مملىء البطن من كثرة الطعام .

(٣) أى بخيل .

٢٦٤ — كتاب البخترى بن أبى صفرة إلى أخيه المهلب

وروى أيضاً قال :

كَان البَخْتَرِىُّ بن أبى صُفْرة من أكمل فِتْيان العرب جمالاً وبيانا ونجدة وشعراً ، وكان بنو المهلب يَحْسُدونه لفضله ، فدسَّتْ إليه أمُّ ولدِ عُمارة ابن قيس اليَحْمَدِى فراوَدَته عن نفسه فأبى ، فحملت عليه عُمارة حتى شكاه إلى المهلب ، وأكثر فى ذلك بنوه القولَ ، فعرَف ذلك فى وجه المهلَّب فكتب إليه :

جَفَوتَ امرأً لم يَنْبُ عما تُريدُه ... وكان إلى ما تشتهيه يُسارِعُ
تَمُوت حِفاظًا دونَ ضَيْمِك نَفْسُهُ ... وأنت إلى ما ساءه متطالِعُ
كأنى أخو ذنبٍ ، وما كنتُ مُذْنِباً ... ولكنْ دهَتْنى السَّارياتُ الشَّبادِعُ[1]
دَبَبْنَ (وقد نام الغَفُولُ) بعَيْبِنا ... إليك إماءٌ مُومِساتٌ جَوَالِعُ[2]
فأوْقَدْنَ نيرانَ العَداوةِ بيننا ... جِهاراً ، ولم تُسْدَدْ علىَّ المَطالِعُ
بَغَيْنَ أموراً لستُ مِمَّن أشاؤها ... ولو جُعِلَت فى ساعِدَىَّ الجوامِعُ[3]
أأصْبُو بعِرْس الجار أنْ كان غائبا ... وتلك التى تستكُّ منها المسامعُ[4] !
فلستُ وربِّ البيت أصبُو بمثلها ... وربِّىَ رَاءٍ ما صنَعْتُ وسامِعُ

(١) الشبادع : الدواهى والعقارب والنمائم ، جمع شبدعة وشبدع بكسر الشين والدال .

(٢) امرأة مومس ومومسة : فاجرة أو مجاهرة بالفجور « من الومس كوعد : وهو احتكاك الشىء بالشىء حتى يتجرد ، وأومست : أمكنت من الومس » . والجوالع : جمع جالعة ، وهى التى قد ألقت عنها الحياء ، جلعت كفرح فهى جالعة وجلعة .

(٣) الجوامع : جمع جامعة وهى الغل .

(٤) استكت المسامع : صمت وضاقت ، وعرس الرجل : امرأته .

فإن تك عِرْسُ اليَحْمَدِىّ وأختُه ... سَرَيْنَ فلا قاهن أَلْيَسُ خالِعُ (١)

يَبيت يُراعِى المومساتِ إذا دَجا الظـلامُ، وجارُ البيتِ وَسْنانُ هاجِعُ (٢)

فما أنا ممن تَطَّبيه خَـريدةٌ ... ولو أنها بَدْرٌ من الأفق طالِعُ (٣)

وإنى لتنهانِى خلائِقُ أَربعٌ ... عن الفُحْش فيها للكريم رَوادِعُ

حَـياءٌ وإسلامٌ وشَيْبٌ وعِفّةٌ ... وما المرءُ إلا ما حَبَتْـه الطبائعُ (٤)

وقد كنتُ فى عصر الشباب مُجانِباً ... صِباىَ، فأَنَّى الآنَ والشيبُ شائع!

فلا تَقْطَعَنْ منى وشائجَ سُهْمَةٍ ... فلا يصلِ الأبناءُ ما أنت قاطع (٥)

وكافِحْ بأجرامى الهِياجَ إذا التظَى ... شِهابٌ من الموت المُحَرِّق لامِعُ

تُنَبِّهُ (وعَهدِ اللّهِ) مـنى مُشَيَّعا ... صبوراً على اللأواءِ والموتُ كانِعُ (٦)

(الأمالى ٢ : ١٣٨)

٢٦٥ — رسالة الحسن البصرى إلى الحجاج

وقال أحمد بن يحيى المرتضى فى كتابه «المُنية والأمل» :

كتب الحجاج إلى الحسن البصرى : «بلغنا عنك فى القَدَر شىء فاكتب إلينا» فكتب إليه رسالة طويلة نحن نذكر منها أطرافا :

---

(١) الأليس : الجرئ من كل شىء ، وصف من الليس بالتحريك وهو الشجاعة ، وخالع : أى قد خلع الحياء . (٢) دجا الليل : أظلم ، ووسنان : نائم ، وصف من الوسن بالتحريك . والهجوع : النوم ليلا . (٣) اطباه : استماله ، والخريدة والخريد والخرود : البكر لم تمسس ، والخفرة الطويلة السكوت الخافضة الصوت المستترة . (٤) حباه : منحه وأعطاه .

(٥) الوشائج : الأرحام المشتبكة المتصلة ، جمع وشيجة ، وهى مأخوذة من وشائج الرماح وهى عروقها ، والسهمة : القرابة .

(٦) اللأواء : الشدة ، والموت كانع : أى مستجمع للوثوب ، من كنعت العقاب كمنع : ضمت جناحيها للانقضاض .

منها قوله : « سلام عليك أما بعدُ : فإن الأمير أصبح فى قليلٍ مِن كثيرٍ مَضَوا ، والقليلُ من أهل الخير مَغفولٌ عنهم ، وقد أدركنا السَّلَفَ الذين قاموا لأمر الله ، واستَنُّوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فلم يُبْطِلوا حقّاً ، ولا أَلْحقوا بالربِّ تعالى إلا ما أَلْحَقَ بنفسه ، ولا يحتجّون إلا بما يحتجّ اللهُ تعالى به على خلقه ، وقوله الحق : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ » ولم يخلقهم لأمر ثم حال بينهم وبينه ، لأنه تعالى ليس بظَلاَّم للعبيد ، ولم يكن أحد فى السَّلَف يذكر ذلك ولا يجادل فيه ، لأنهم كانوا على أمر واحد ، وإنما أحدثْنا الكلامَ فيه لمَّا أحدثَ الناسُ النَّكِرَةَ له ، فلمَّا أحدث المُحْدِثون فى دينهم ما أحدثوه ، أحدث الله للمتمسكين بكتابه ما يُبطِلون به المُحْدَثاتِ ، ويحذِّرون به من المهلكات :

ومنها قوله : فافهم أيها الأمير ما أقوله ، فإن ما ينهَى الله عنه فليس منه ، لأنه لا يَرْضَى ما يُسْخِطه من العباد ، لأنه تعالى يقول : « وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ » فلو كان الكفرُ من قضائه وقدره لرضِيَ عمن عَمِلَه .

ومنها قوله : ولو كان الأمر كما قال المخطئون لما كان لمتقدمٍ حَمْدٌ لما عَمِل ، ولا على متأخرٍ لوم ، ولقال تعالى : «جزاء بما عملت أيديهم» ولم يقل : «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» .

ومنها قوله : « إن أهل الجهل قالوا : إن الله يُضِل من يشاء ويَهدى من يشاء ، ولو نظروا إلى ماقبل الآية ومابعدها ، لتبيَّن لهم أن الله تعالى لا يُضِل إلاَّ بتقدُّم الفسق والكفر لقوله تعالى: «وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ» أى يحكم بضلالهم ،

وقال : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ ٱللهُ قُلُوبَهُمْ » . « وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ » .

ومنها قوله : واعلم أيها الأمير أن المخالفين لكتاب الله وعدله يقولون فى أمر دينهم بزَعْمهم على القضاء والقدر ، ثم لا يَرْضَوْن فى أمر دنياهم إلاَّ بالاجتهاد والبحث والطلب والأخذ بالحزم فيه ، ولا يعملون فى أكثر دنياهم على القضاء والقدر .

ومنها قوله محتجا بقوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا[1] » فلوكان هو ٱلذى دَسَّاها لما خَيَّب نفسه ، تَعَالَى ٱللهُ عما يقول الظالمون عُلُوًّا كبيراً . (المنه والأمل ص ١٢)

٢٦٦ — كتاب بشر بن مروان إلى أخيه عبد العزيز

وكتب بِشر بن مَرْوان إلى أخيه عبد العزيز بن مروان يعتذر عن كتاب :

« بسم ٱلله الرحمن الرحيم ، لولا الهفوةُ لم أحتَجْ إلى العذر ، ولم يكن لك فى قبوله منى الفَضلُ ، ولو احتَمل الكتابُ أكثرَ مما ضَمَّنته لزِدْتُ فيه ، وبَقيَّةُ[2] الأكابر على الأصاغر من شِيَم الأكارم ، ولقد أحسَنَ مِسْكين الدارِمىُّ حيث يقول :

أخاك أخاك إن من لا أخاله ... كساعٍ إلى الهَيْجا بغير سلاح[3]

(١) زكاها : أى زكى النفس وطهرها من الذنوب ، وأعلاها بالعلم والعمل، دساها : نقصها وأخفاها بالجهالة والفسوق . (٢) أى إبقاء .

(٣) الهيجاء : الحرب .

وَإِنَّ أبن عمِّ المرءِ (فاعْلَمْ) جَناحُه   وهل يَنْهضُ البازى بغيرِ جَناحِ؟

(مفتاح الأفكار ص ١٧٧)

٢٦٧ — كتب بين عبد الملك وأخيه عبد العزيز

وروى الطبرى قال :

كتب الحجاج إلى عبد الملك يُزيِّن له بَيْعةَ الوليد ، وأوفد وَفْدًا فى ذلك عليهم عِمْرانُ بن عِصَام العَنَزِىّ ، فقام عِمرانُ خطيباً فتكلم وتكلم الوفد ، وحثّوا عبد الملك وسألوه ذلك :

ولما أراد عبد الملك أن يخلع أخاه عبد العزيز ويبايع لابنه الوليد ، كتب إلى أخيه :

« إنْ رأيتَ أن تصيِّرَ هذا الأمر لأبن أخيك »

فأَبَى ، فكتب إليه :

« فاجعلْها له من بَعدِك ، فإنه أعزُّ الْخَلْقِ على أمير المؤمنين »

فكتب إليه عبد العزيز :

« إنى أَرَى فى أبى بكر بن عبد العزيز ما تَرَى فى الْوَليد »

فقال عبد الملك : اللهم إن عبد العزيز قطعنى فاقْطَعْه ، فكتب إليه عبد الملك : « احْمِل خَراجَ مصر » .

فكتب إليه عبد العزيز :

« يا أمير المؤمنين ، إنى وَإياك قد بلغْنا سِنًّا لم يَبْلُغها أحد من أهل

بيتك إلا كَان بقاؤه قليلا ، وَإِنى لا أدرى ولا تدرى : أيُّنا يأتيه الموتُ أَوَّلاً ؟ فإن رأيتَ أن لا تُغَشِّشَ[١] علىَّ بقيَّةَ عمرى فافعل » .

فَرقَّ له عبد الملك وقال : لعمرى لا أُغَشِّش عليه بقية عمره ، ثم إن عبدالعزيز وافته منيّته (سنة ٨٥ هـ) فبايع عبدُ الملك لابنه الوليد ، ثم لسليمان من بعده ، وكتب ببيعته لهما إلى البُلدان . (تاريخ الطبرى ٨ : ٥٤)

٢٦٨ — بين عبد الملك وهشام بن إسماعيل

وكَان عامل عبد الملك على المدينة هِشام بن إسمعيل المخزومىّ ، فكتب إليه عبد الملك أن يدعو الناس لبَيعة الوليد وسليمان ، فدعا الناس إلى البيعة فبايعوا ودعا سَعيد بن المُسَيَّب[٢] أن يبايع لهما ، فأبى ، وقال : لا حتى أنظر ، فضربه هشام ستين سوطا وطاف به فى تُبَّان[٣] شَعَرٍ وحبسه ، وكتب إلى عبد الملك يخبره بخِلافه ، وما كَان من أمره .

---

(١) أى أن لاتفسد .

(٢) قال ابن خلكان فى ترجمته : « هو أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن بن أبى وهب بن عمرو ابن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشى المدنى أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ، وكان سيد التابعين من الطراز الأول، جمع بين الحديث والفقه والزهد والعبادة والورع ، وكانت ولادته لسنتين مضتا من خلافة عمر رضى الله عنه ، وتوفى بالمدينة سنة إحدى وقيل اثنتين وقيل ثلاث وقيل أربع وقيل خمس وتسعين وقيل خمس ومائة للهجرة، والمسيب بفتح الياء المشددة ، وروى عنه أنه كان يقول بكسر الياء ويقول : سيب الله من يسيب أبى — ج ١ : ص ٢٠٦ — وروى ياقوت فى معجم البلدان قال . « لما مات العبادلة — عبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن عمرو بن العاص — صار الفقه فى جميع البلدان إلى الموالى ، فصار فقيه أهل مكة عطاء بن أبى رباح ، وفقيه أهل اليمن طاوس ، وفقيه أهل اليمامة يحيى ابن أبى كثير ، وفقيه أهل البصرة الحسن البصرى ، وفقيه أهل الكوفة ابراهيم النخعى ، وفقيه أهل الشأم مكحول ، وفقيه أهل خراسان عطاء الخراسانى ، إلا المدينة فإن الله تعالى خصها بقرشى ، فكان فقيه أهل المدينة غير مدافع سعيد بن المسيب » — انظر ج ٣ : ص ٤١٢ — .

(٣) التبان كرمان : سراويل صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة فقط يكون للملاحين .

بودِّى أن أنقل ما حواه من الرسائل ، بَيْدَ أنه حال بينى وبين ذلك حائلان : رداءة الخط ، وسوء التصوير ، فقد غُشِّىَ أكثر صفحاته بظِلٍّ أسود كثيف من أثَر التصوير ، مما حَسَرَ معه بَصَرِى عن تبيُّن الحروف بجلاء ووضوح ، ولما كان دَيْدَنى أن أباشر عملى بنفسى ، دون أن أرْكَنَ فيه إلى أحد سواى ، لم يسَعْنى أن أعهَدَ إلى النسّاخ بنسخها منه ، إذ كانت عاقبة الاستنساخ أن أعتَهِد ما نسخ ، وأراجعه ثانيةً فى دقّة واستثبات . وأرجو أن تتاح لبعض أدبائنا الأماثل فرصةٌ موفَّقة ، فينشر للناس هذا السِّفر الجليل ، مُميطا عنه اللثامَ ، معبِّداً إليه السبيلَ .

والله أسأل أن يمنحنا شرفَ الدُّءوب على خدمة لغة قرآنه ونبيِّه ، وأن يَزْوِيَ عنا ما قد يعتورُنا من المَلال والكَلال ، فى إحياء كنوزها الدفينة ، واجتلاء جواهرها المستجِنَّة ، وأن يرزقنا ثوابَ الدنيا وحُسْنَ ثواب الآخرة ، عليه توكَّلنا ، وإليه أنبْنا ، وإليه المصير .

أحمد زكى صفوت

وحرر بالقاهرة فى { رجب ١٣٥٦ هـ / سبتمبر ١٩٣٧ م



فهرس

مآخذ الرسائل فى هذا الجزء

نهاية الأرب : لشهاب الدين النويرى : الجزء السابع

الأمالى : لأبى على القالى : الجزء الثانى ـ ذيل الأمالى

مجمع الأمثال : لأبى الفضل الميدانى : « الثانى

جمهرة الأمثال : لأبى هلال العسكرى : « «

عيون الأخبار : لابن قتيبة : « الخامس

تهذيب تاريخ ابن عساكر : « الأول

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار : « «

للمقريزى

اختيار المنظوم والمنثور لابن طيفور : « الثانى عشر ـ الثالث عشر

نثر الدرر : لمنصور بن الحسين الآبىّ : « الثالث

غرر الخصائص الواضحة وعرر النقائص :

الفاضحة للوطواط

المنية والأمل : لأحمد بن يحيى المرتضى :

ثمرات الأوراق : لابن حجة الحموى :

كتاب الخراج : لأبى يوسف :

سرح العيون ، شرح رسالة ابن زيدون :

لابن نباتة المصرى

أدب الكتاب : لأبى بكر محمد بن :

يحيى الصولى

سيرة عمر بن عبد العزيز : لابن الجوزى :
الحسن البصرى : « « :
فتوح البلدان : للبلاذرى :
الفخرى : لابن طباطبا :
كتاب الوزراء والكتاب : :
لابن عبدوس الجهشيارى :
مقدمة ابن خلدون :
خاص الخاص : للثعالبى :
مفتاح الأفكار : للشيخ أحمد مفتاح :
رسائل البلغاء : لمحمد كرد على بك :

فهـــرس الرسائل

الباب الثالث

الرسائل فى العصر الأموى

حزب الخوارج الشبيبية

فتنة ابن الأشعث

خلافة الوليد بن عبد الملك

التوقيعات

فهرس أعلام الـكتاب

مرتب بترتيب الحروف الهجائية

مع إتباع اسم كل كاتب بأرقام الصفحات التى وردت فيها رسائله

غ

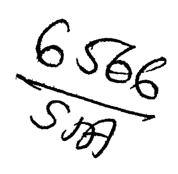
ف

ق

ى

فهـــرس

بعض ماورد في الهامش من الفوائد التي قد يحتاج القارئ إلى مراجعتها



فهـــرس

الأمثال التي ورد شرحها فى الهـامش

الخطا والصواب

أستميح القراء المعذرة إذا أنا قصرت فى إثبات جدول الخطأ والصواب فى هـذا الجزء ، لأن العمل أثقل كاهلى ، فلم أجد فسحة من الوقت تمكننى من مراجعة ماقد يكون من الأخطاء بدأ كبير ظنى أنها قليلة ضئيلة يسهل عليهم ردها إلى نصابها ، وقد نظرت فيه نظرة عجلى فوقع بصرى عفوا فى ص ١١٧ على كلمة « مخزبة » وهى خطأ ، وصوابها « مخربة » .